كيميا
رواية
وليد علاء الدين
دار الشروق

الأعمال الكامله
t.me/kotbhm

کیمیا

كيميا

وليد علاء الدين

الطبعة الأولى ٢٠١٩

تصنيف الكتاب: أدب / رواية

© دار الشروق

٧ شارع سيبويه المصري

مدينة نصر - القاهرة - مصر

www.shorouk.com

dar@shorouk.com

رقم الإيداع ٢٦٨٦٠/ ٢٠١٨

ISBN 978-977-09-3545-3

الغلاف : عمرو الكفراوي

علاء الدين، وليد،

القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٨

تدمك ٩٧٨٩٧٧٠٩٣٥٤٥٣

١- قصص عربية

أ. العنوان

٨١٣

كيميا/ وليد علاء الدين

٢٣٥ ص، ٢٠سم

رقم الإيداع ٢٦٨٦٠/ ٢٠١٨

وليد علاء الدين

كيميا

دار الشروق

اللّيلةَ الماضية، في المنام،
رأيتُ شيخًا في حيّ العِشْق،
أشار إليّ بيده: اعزمْ على الالتحاق بنا.
جلال الدين الرومي

ولكنني قررت.. قبل ذلك...
أن أصنع ثقبًا
في الجدار الغليظ؛
لتحلّق روحُ كيميا.

وليد علاء الدين

(١)

استيقظتُ على برودة تسري في أطرافي. بصعوبةٍ نجحتُ في تحريك ذراعي اليمنى متحسسًا ساقيّ. انتابني ذعرٌ من عدم إحساسي بوجودهما، وازددت فزعًا لمّا طقطق جذعي كالحطب اليابس حين هممت برفعه.

انتبهتُ على آهةٍ عميقة تصدر عنّي. فزعتُ من رقدتي، فالتقطتُ سماعة التلفون وكبستُ أزرار خدمة الغرف.

بصوت نشيط، رغم اقتراب الوقت من الفجر، أجابتني العاملة. لم أنتبه لِما قالت، ولم ألحظ ـ حتى ـ إن كان بالتركية أو بغيرها!

تحت وطأة الفزع وتأثير النوم، طلبتُ إرسال فني تكييف؛ لأن الغرفة تحولت إلى ثلاجة. اعتذرتْ بإنجليزية مرتبكة اعتدتُ عليها خلال فترة تجوالي هنا.

فهمتُ أن الاعتذار لم يكن عن برودة الغرفة؛ ولكن لأنها لم تفهم ما قلتُه بالعربية. أعدتُ الطلب بالإنجليزية، فوعدتْ بإرسال العامل فورًا.

بدأت أنتبه؛ سقطتُ في النوم أمس خلال انهماكي في قراءة رواية «بنت مولانا». أذكر تمامًا مرارةَ الغصة التي انتابتني وأنا أتابع رحيل «كيميا»، رغم أنها المرة الثالثة التي أقرأ فيها هذا النَصَّ المرهف.

ما زال نورُ الغرفة مضاءً. رجلٌ وامرأة وسط حقلِ قطنٍ بهيج

تحت شمس نهارٍ مبتسمة. ابتسامة المرأة تشبه لوزةً متفتحة. ينحني أمامها رجلٌ يلتقط النورات من لوزاتها الجافة. بينهما تقف طفلةٌ ضيّقت عينيها قليلًا لتتفادى الشمس، وتحدق في عيني الرجل الذي لا يظهر إلا جانب وجهه. لا شك في أن الطفلة من زاويتها تلمح شيئًا مختلفًا في نظرة الرجل؛ شيئًا أثارته لوزةُ القطن في عيني المرأة. أخذني لونُ الأفق الأزرق في عمق الصورة حيث ينتهي الحقل. الأزرق في العمق يمنح الأخضرَ مسحة حزن تتعتق في صدرية الرجل السوداء، وفي انحناءته الدرامية على الأغصان. ينحني في مقدمة المشهد ولدٌ يرتدي الزيَّ القاتم نفسه، بينما يغطي رأسَه بغطاء قماشي له درجة الأخضر المشع من الحقل. تنكسر القتامة في لون فستان المرأة البرتقالي وبلوزة الطفلة المخططة بلون البرتقال نفسه على خلفية بيضاء. تتزن ألوان اللقطة.

فكّرتُ: مشهد يصلح للرسم. لو التقطه أحد مصوري عصر النهضة، لكان اليوم لوحةً معروضة في أرقى صالات الفنون.

عبثتُ بكفي إلى جواري باحثًا عن الريموت كنترول. التقطته وضغطت على زر المعلومات بفضول للتعرف اسم الفيلم لأتمكن من مشاهدته في وقت لاحق. قفزت أمامي على الشاشة كلماتٌ كثيرة بالتركية، حروف تشبه الإنجليزية بعضها منقوط، بدت لي لوغاريتمات، ولكنني عثرت بينها على الاسم: On Fertile Lands. ردّدتُ الترجمة الحرفية كما دارت بخاطري «على الأراضي الخصبة»، وقررت أن أبحث عنه لاحقًا.

طرقاتٌ على باب الغرفة؛ كنتُ نسيتُ أمر عامل الصيانة. بدا لي الآن أن الغرفة ليست باردة... لعلها أقرب إلى السخونة!

مرتبكًا، فتحت الباب، بينما أفكر كيف أصف ما حدث. لا بد أنني كنت أحلم بتلك البرودة، لأنه لا أثر لها على الإطلاق. تسمرتْ مكاني فجأة؛ أربكتني ردة فِعلٍ مندهشةٌ صدرت عن العامل، بمجرد أن فتحت له الباب دار بعينيه سريعًا منزلقًا من وجهي ورأسي إلى كامل هيئتي وهو يوازن جسدَه بخطوة إلى الوراء. شيء ما في هيئتي ـ لا بُدَّ ـ أثار فضول الرجل؛ لأنه راح يردد بإلحاح يشبه الفزع جملةً تركية بدت لي سؤالًا، إلى أن تأكدتُ من ذلك حين رددها بإنجليزية متضعضعة فهمت منها أنه يسألني إن كنت بخير!

تركتُ العامل في دهشته. ركضتُ باتجاه مرآة الغرفة. كان شعري مهوّشًا كخيشة أنهت لتوها عملية مسح شاقة، تناثرت فوقه بقايا أوراق شجر جافة. قدماي متسختان، طرفا بنطالي مهترئان. انتبهتُ وقتها فقط إلى رائحة عرق نفاذة تنضح من ثيابي وجسدي، وبقايا ملح متخثرة عند منبت الشعر وحول أطراف لحيتي غير المشذبة.

«أووووف»، خرجتْ من صدري كانفجار بالون. ظللت أحدق في المرآة. راودني هاجس بأن الصورة المنعكسة أمامي ليست لي.

إنها صورتي تتحرك معي. تفتح فمها إذا فتحت فمي. تُحرّك ذراعيها إذا حرّكتُ ذراعيَّ. تركل الهواء بقدم متسخة وطرف بنطال مهترئ عندما أركل الهواء بقدمي.

انتبهت على صوت عامل الصيانة الذي راح يتحرك ببطء وحذر إلى داخل الغرفة محاولًا تنبيهي إلى وجوده. التفتُّ إليه عندما لمحتُ صورته تتحرك صوبي في المرآة: «أنا كنت باحلم!» بالمصرية خاطبته، فهز رأسه في حيرة.

كالمُنوَّم، أعدتُ صياغة العبارة بالإنجليزية، ولنفسي رددت: «البرد دا كان حلم؟ كابوس؟».

اعتذرتُ للرجل الذي كان يطالعني بعينين متشككتين في المرآة، فردّ الاعتذار بخجل، إلا أنه لم يتحرك من مكانه. بدا محتارًا، كأنما يفكر فيما ينبغي فعله في موقف كهذا. أوحت هيئتُه بتعاطفه معي. تركتُ النظر في المرآة والتفتُّ إليه. التفتَ معي، فظننتُ أنه قرر المغادرة. ولكنه عاد والتفت ناحيتي كأنما أربكه أنه كان يراني عبر المرآة، وأضاف أطولَ عبارة إنجليزية أسمعها من تركي منذ أن وصلتُ إلى بلاد الخلافة العثمانية. كان يدعم كلماته المتعثرة بتحديقات من عينيه وإشارات من يديه إلى شعري وملابسي لينقل لي دهشته مما يلاحظه من «عضّات برد على جلدي» و«بقايا أوراق شجر على شعري وملابسي»، ثم سألني إن كنت قد اضطررت للسير مسافة طويلة في صقيع «قونية» هذه الأيام!

استجمعت شجاعتي. اعتبرت كلامه مقترحًا جيدًا لإنهاء الحرج. أشرت برأسي ليعتقد أنني أؤمِّن على كلامه. كنت أريد أن يرحل سريعًا لأتفرغ لمعرفة ما يحدث لي.

يبدو أن إجابتي الصامتة لم تقنعه؛ فظل في موضعه أمامي كمن ينتظر شيئًا أكثر تماسكًا. لكنه بدا سعيدًا بالدولارات العشرة التي سحبتُها بعفوية من على الكومودينو المجاور للسرير، ومنحتها له.

ولكن اسمح لي، سيدي، أن أضبط لك حرارة الغرفة، إلا إذا كنت تفضل الجو ساخنًا هكذا!

بالكاد فهمت حروفه الإنجليزية المرتبكة، هززت رأسي بالموافقة. راقبته لثوانٍ إلى أن ضبط مؤشر الحرارة، ثم استدار لكي يغادر. قبل

أن يصل إلى باب الغرفة، التفتَ ناحيتي مرة أخيرة وعلى وجهه ابتسامة أضاءت في ذهني علامات استفهام ودهشة. من دون أن يتخلص من ابتسامته العجيبة تلك، أشار إلى مرآة متوسطة الحجم مثبتة على الحائط بجوار مؤشر التكييف. رحل وأغلق الباب، بينما ظلت ابتسامته السخيفة معلقة في هواء الغرفة. سلّمت بأن الرجل، بلا ذرة شك، يراني مجنونًا. وله كل الحق.

ركضت نحو المرآة التي كانت إشارته إليها عالقة في الفراغ. دققت النظر. لم أنجح في قراءة تلك الكلمات التي بدا واضحًا أن إصبعًا بشريّة خطتها فوق البخار المتكثف على سطحها. مكتوبة بحروف عربية، إلا أنها ليست جملة متزنة. لا بد أنها ما أثار ابتسامة العامل المريبة.

دققتُ النظر في المرآة، ثلاث عبارات كُتبت بخط جميل متراقص على زجاجها المضبب: «سَن وليد علاء الدين سِن، بَن علاء الدين وَلد تر، سَن بِنم ترستر».

كررت قراءة الجمل الثلاث. في كل مرة يزداد انتباهي إلى ما فيها من إيقاع وسجع، كأنها شعر. لم يُفزعني فقط أنها أعادتني إلى حلم زارني الليلة الماضية، وقفزتْ تفاصيلُه واضحة في ذهني الآن؛ أفزعني أيضًا أنني عندما حدقت في الكلمات محاولًا فك شفرتها، لم يكن الوجه الذي يطالعني في المرآة وجهي، كان وجهًا آخر.

(٢)

كان هذا حلمي الأول في غرفة صغيرة بفندق على أطراف مدينة تطؤها قدماي للمرة الأولى؛ فجلست ودوّنته حريصًا على تسجيل كل لمحة مهما بدت صغيرة.

تخيل شعورَ رجلٍ يسافر نحو عشرين ساعة بين البر والجو، يخرج من قلب الخليج العربي في الرابعة فجرًا ليصل إلى وجهته في وسط جبال الأناضول مع نهاية الليل، لتكون تلك هديته.

ليست الأحلام غريبة عليّ؛ فأنا أحد الحالمين الكبار، أو قل أحد القلة الموعودين؛ تجنبًا لاستخدام كلمة «المصابين»، بالأحلام الصافية.

والحلم الصافي ـ Lucid dream، ليس مرضًا، إنما ظاهرة، يتعرض لها بعض الناس، وأنا لحسن الحظ، أو لسوئه، واحد من هؤلاء.

منذ سنوات لاحظت أنني أكون منتبهًا خلال الحلم، إلى أنه حلم... من دون أن أخرج من الحلم، وهو ما تطور بعد ذلك إلى أن صرت أستطيع التحكم في مجرى أحلامي. صدّق أو لا تصدق! هي حالة علمية معروفة تقع بين اليقظة والنوم.

عمليًا؛ لأن اللعبة أعجبتني، نجحت في تطوير تلك المقدرة. يمكنني الآن مزجَ الحلم بالواقع المحيط بي، عَبْرَ ما أختارُ من مفرداته. لن يمكنني شرحُ طبيعة عملية الاختيار وكيف تتم. لكنها تحدث.

بعد فترة معقولة من التدرب، بلغتُ ذروة مدهشة؛ إذ بتُّ قادرًا على استحضار مَنْ أريد من الأشخاص.

الأمر معقد، حتى إن العلماء فشلوا في وصفه، واكتفوا بتسجيل قصصٍ مِن تجارب مَن تعرضوا له على مَرّ التاريخ.

لم أعرف عن الحلم الصافي هذه المعلومات إلا عندما تكرر حدوث الأمر بشكل سبَّب لي الخوف. في البداية صرت متوجسًا من النوم في غرفة مظلمة وصامتة. اضطررت إلى تغيير مكان نومي إلى الكنبة في غرفة الجلوس، أمام التلفزيون. بمجرد أن يستغرق جميع من في البيت في النوم، أنتقل إلى الكنبة. أنشغل في متابعة التلفزيون إلى أن يأخذني النعاس عنوة. بعد ذلك وضعت شاشة كبيرة في غرفة نومي. أختار برنامجًا حواريًّا أو فيلمًا قديمًا وأتركه طوال الليل يبثّ في الأجواء أصواتًا وأضواء.

تذكرت أنني كنت في طفولتي أُفضّل النوم في غرفة المعيشة حيث يسهر أبي وأمي وإخوتي. أغفو على أصواتهم. آخذها معي إلى عالمي. لا أتذكر إن كنت قد مررت آنذاك بتجربة الحلم الصافي أو الحلم داخل الحلم. تطفو على سطح الذاكرة أحيانًا حالاتٌ مررت بها في سنوات مبكرة من عمري وأخرى خلال سنوات المراهقة، ولكن تظل مغلّفة بضباب كثيف لا أنجح في اختراقه.

مع التجربة، اكتشفت ما يناسب «مزاجي النوميّ» ويجعل آلية الحلم تعمل بشكل مريح: البرامج الحوارية الجادة الخالية من الصراخ تجعل عقلي في حالة يقظة كاملة، ولا أعرف متى أسقط في النوم، كذلك الأفلام القديمة، لديّ صورة ذهنية مريحة عن أبطالها؛ أعتقد أنهم كانوا أكثر نبلًا وحبًّا لما يقومون به. الموسيقى والأغاني

تفسدان مزاجي النومي؛ فالأولى تسمح للعقل بالتفكير على خلفيتها؛ وهو ما لا أريده. والأخيرة تفرض مساحات خيال رسمها أشخاص آخرون بكلمات أغانيهم ومحاولات آخرين تنغيمها، فأظل أفكر في مدى مناسبة اللحن للكلمات، وأشعر أحيانًا بسخافة العلاقة بينهما وعدم منطقيتها.

عمومًا، أطمئن إلى أصوات البشر وهم يتحدثون أو يعبّرون عن أفكارهم. أُنصت مرتاحًا إلى أن أسقط في النوم، لأكتشف، ليس فقط أنهم يتسربون إلى أحلامي، بل تتسرب أفكارُ النقاش وتصنع عوالم يصعب تأليفها في حالة اليقظة.

مع الوقت، صرت أستمتع بإدارة أحلامي. جربتها في غير أوقات النوم المعتادة، واكتشفت أنها تعمل، وربما بصورة أفضل. صرت أنتظر خروج أفراد أسرتي إلى العمل والمدارس لأعاود النوم. أقضي ساعة أو ساعتين، أحيانًا أكثر، أدير أحلامي الصافية. أروي خلالها شوقًا إلى أحبة رحلوا. أو أناقش مع كائناتي الحلمية أفكارًا تشغلني. وأصحو مغمسًا بالنشوة، مجتهدًا في تذكر تفاصيل الفانتازيا التي يُحدثها اختلاط الواقع بالحلم، إما بترديدها لنفسي قبل أن أغادر الفراش، إلى حين سردها لزوجتي حين نلتقي، وإما لأحد الأصدقاء المقربين. وضعت أجندة وأقلامًا على الكومودينو إلى جوار السرير، صرت أدوّن بعض الأحلام كتابةً، قبل أن يختلط عليَّ الأمر فلا أعود أعرف هل كتبت الحلم داخله أم خارجه!

ليس الأمر بهذه البساطة، لم أنجح في التدرب على قنص

كل أحلامي، نسبة كبيرة منها تتبخر فور الدخول، الأدق قبل الخروج... إلى مرحلة اليقظة الكاملة، وتظل أطيافها تداعبني وتغازل ذاكرتي، وتغيظني.

أحيانًا يختار الحلم لحظات عجيبة لكي يقفز فجأة كعفريت العلبة بكامل التجلي: أكون في استقبال ضيف على باب شقتي أو مكتبي، فيقفز الحلم، أكون في الحمام لقضاء حاجة أو للاستحمام، فيهبط كأنما يتحداني لكتابته الآن. وضعت أجندة أخرى وأقلامًا في رفٍّ للكتب صنعته خصيصًا للحمام.

السيئ أن يفاجئك الحلم وسط اجتماع عمل هام، والأسوأ أن يتجلى لحظة أكون شخصيًّا المسئول عن شرح أو إيضاح نقطة أو إدارة دفة النقاش.

من الزيارات الهينة، أن يأتي الحلم وأنا وسط مكالمة هاتفية، لكن ما الحال وأنا أقود سيارتي وأتحدث في الهاتف في الوقت نفسه؟ ظننت لفترة أن الحلم طالما حضر بهذا التجلي، فسوف أنجح في استحضاره بمجرد الفراغ مما يشغلني، ولكن التجربة علمتني أن «الآن»، عند الحلم، تعني: «الآن وإلا فلا».

خبرة الفقد المريرة علمتني أنه حين يحضر فإن عليَّ ترتيب الأمر لتسجيله أو روايته لشخص في الحال، وإلا تبخر ولم يتبقَّ منه سوى مشاعر غيظ مرير.

لم يبدأ الأمر بهذا الوعي؛ كانت البداية حالة شبيهة بالحلم الذي استقبلني في ليلتي الأولى في قونية، ودوّنته قبل قليل. عرفت الاسم العلمي لهذه الحالة فيما بعد. هي ليست من حالات الحلم الصافي؛

يسمونها «الاستيقاظ الكاذب» أو «الحلم داخل الحلم». شخصيًا أفضل التسمية الأخيرة؛ فلست مضطرًا لوصف الأمر بالكذب. الكذب وصف أخلاقي، لا يوجد أحد يكذب هنا، لا أنا ولا الحلم، إنه مجرد حلم داخل حلم.

في تلك الفترة كنت أتساءل إن كنت بالفعل أحلم، أم لا؟ كنت أحيانًا أستطيع الجزم، وأنا داخل الحلم، بأنني أحلم، ويتضح أنني أحلم بالفعل. وفي أحيان كثيرة لم أكن أنجح في معرفة الأمر، ويظل السؤال يلاحقني؛ فأصحو مرتبكًا.

في بعض الليالي كنت أنتبه وأفتح عيني، متذكرًا بوضوح تفاصيلَ حلمي وشخوصه وأحداثه وألوانه وروائحه. في تلك اللحظة، أكون مدركًا تمام الإدراك أنني في غرفتي وعلى سريري، وأنني استيقظت للتو من حلم. ولكن في حقيقة الأمر لا أكون كذلك؛ فسرعان ما أعود للحلم، نفسه أو غيره، في ظاهرة عرفتُ بعد ذلك أن اسمها «الأحلام المتصلة».

حالتي في البداية لم تكن فزعًا، وإن كان فيها شيء منه. هو فزع قابل للذوبان، سرعان ما يهدأ، ليتحول إلى فضول. حتى هذا الفضول، لم أكن أعرف أحيانًا إن كان يحدث داخل الأحلام أم خارجها.

عمومًا، مع الوقت اعتدت الأمر. في الحقيقة أحببته. كنت أستعد للنوم منتظرًا الأحلام. وبات الأمر أكثر متعة عندما تطورت حالتي وبتُّ أرى أحلامًا صافية.

أنا إذن رجل مدرَّب على الأحلام؛ تذكّرها، واقتناصها من

تلافيف الذاكرة لروايتها وكتابتها، بل أيضًا صنعها وتوجيه أحداثها.
لا أقول هذا الكلام، الذي ربما يرى فيه بعض علماء النفس إشارةً إلى إصابة قريبة بالفصام؛ مباهاةً بامتلاك قدرات خارقة للطبيعة أو إشراقات روحانية! لكن لأؤكد ـ لنفسي أولًا، ثم لكم ـ إن كان يهمكم الأمر ـ أن ما حدث معي خلال رحلتي إلى قونية، لم يكن حلمًا داخل حلم. لم يكن حلمًا صافيًا. لم يكن حلمًا كاذبًا. لم يكن على الإطلاق شيئًا من هذا القبيل. كان شيئًا آخر؛ لم أجد له اسمًا بعد.

(٣)

ارتبطت أحلامي بالأماكن المألوفة. كالنوم في بيتي مطمئنًّا إلى ما يحيط بي من كائنات. أما هذا، ففي أرض أخرى. وفي فندق لم أعرف من تفاصيله شيئًا بعد. لم يمهلني هذا الحلم وقتًا. كأنما كان مُخَبَّأ ينتظرني في أركان هذه الغرفة.

لذا، فإن أول ما فعلته، قبل مغادرة سريري، أن تغلبت على قلقي. تتبعت بعيني أسطر رواية «بنت مولانا» في الصفحة التي وجدتها مفتوحة عليها ملقاة على صدري. تذكرت أين توقفت، ثم طويت جانب الصفحة العلوي صانعًا مثلثًا صغيرًا يذكرني أين يجب استئناف القراءة. وضعت الرواية جانبًا. وقبل أن أنهض بجسدي، منحتُ الرجال والنساء والأطفال حرية الحديث التي حرمتهم منها من قبل؛ رفعتُ صوت التلفزيون فملأ الغرفةَ حياةً، وإن كانت بلغة لا أفهم منها كلمة واحدة.

هبطتُ إلى أرضية الغرفة. ينتابني قلق طالما لازمني في بدايات تعرفي على حالتي. أتساءل إن كنت داخل الحلم، أم أنني خارجه؟ شعور مزعج للغاية، خاصة عندما يحدث في مكان غير مألوف؛ فالأماكن غير المألوفة تشبه الأحلام في الأساس. خطوات قليلة وكنت إلى جوار النافذة المغطاة بستائر معتمة تحجب الرؤية والضوء. أزحت الستائر قليلًا ونظرت إلى الخارج؛ الليل على

حاله... لم أنم أكثر من ساعة؛ فعندما نمت كانت تفصلني عن الفجر ساعات قليلة.

قاومت قلقي وشعورًا بالرهبة يحوم حولي. تحركت صوب الحمام. لا بد أن المياه كفيلة بإعادة النضارة إلى جسدي وعقلي معًا. تحت هدير المياه الساخنة، انغمرتُ في بخار كثيف ملأ سريعًا زوايا الحمام الصغير. راقبت استعادة البخار قوامَه المائي على أسطح الزجاج المحيط بالبانيو، ينزلق في مسارب وتعرجات عشوائية، تجنبت التدقيق فيها حتى لا تفاجئني وجوه ووحوش وأشكال كنت أراها في طفولتي في تجمعات الماء ونقوش البلاطات على أرضية الحمام وآثار الرطوبة على دهانات الحوائط. أشحت بعيني عن الزجاج، وأطلت النظرَ عبر تجمعات البخار صوب مرآة الحمام التي تعلو الحوض بصنبوره النحاسي الأنيق. راحت ملامح الحلم تتجسد أمام عيني. أتذكر هذا الحلم جيدًا، لكنه كان حلمًا فرعيًّا، أو لاحقًا لحلم أوليّ غامت تفاصيله. اختلطت عليَّ المشاهد، لم أعد أعرف إن كان ما أحاول تذكره حلمًا بالفعل، أم أنه جزء من هذا الحلم. هل أنا في حلم، أم في يقظة؟ يا الله! هل أدفع الآن -على بعد آلاف الأميال من بيتي - ثمنَ الاستسلام لتلك الأحلام واستمتاعي باللعب بها؟

أسرعت بالانتهاء. أغلقت مياه الدش. لففت الفوطة البيضاء الكبيرة حول منتصف جسدي الأسفل واستخدمت واحدة أخرى لتغطية رأسي وكتفيَّ. انتبهت إلى أن جو الغرفة خارج الحمام بارد. التقطت ثيابًا من حقيبتي التي لم أكن أفرغت

محتوياتها بعد. ارتديت ملابسي، ووضعت منشفة جافة على رأسي منحتني بعض الدفء. جلست إلى المقعد الصغير الموضوع أمام رف خشبي مصنوع بمهارة بحيث يصلح مكتبًا، بينما هو امتداد لطاولة الزينة المثبتة أمام مرآة الغرفة. فتحت اللاب توب مقاومًا شعوري بأنني أحلم، وقررت أن أسجل تفاصيل الحلم سريعًا قبل أن يتبخر. أنهيته بسرعة. ثم بدأت في مراجعة عباراته معيدًا الدقة إلى تسلسل الأحداث ومصوبًا أخطاء العجلة. أحسست كأنما أدون شهادتي أمام محكمة. أوَليس مجرد حلم أدونه كما اعتدت تدوين أحلامي لعدة سنوات مرّت؟ شعور مختلف كان يراودني تلك الليلة؛ هذا الحلم لا يشبه ما سبقه من أحلام.

أنهيت الكتابة. كأنما ألقيت بحمل ثقيل من فوق كتفيَّ. فشلت في استحضار الحلم السابق. قفز في ذهني داخل الحلم عندما كنت أدقق النظر في المرآة. كان واضحًا جليًّا داخل الحلم. لكنه الآن يتفلت ولا يبقى منه في ذاكرتي سوى لمحات. عليَّ أن أعود إلى الواقع. إلى الأرض، فورًا.

اتصلت باستقبال الفندق لأعرف إن كانت خدمة الواي فاي تعمل. استخدمت البيانات التي أعطتها لي الموظفة للاتصال بالإنترنت. وجدت عدة رسائل ترقد في بريدي، بينها رسائل متتابعة من «نوري»، يطمئن على وصولي، ويتابع معي مسار الرحلة؛ يسأل عن «ثريا» ويخبرني بوصول «خليل» والفندق الذي نزل فيه، ويقترح أن نوافيه بتقارير أولية لنشرها في الصحافة حول رحلتنا، نحن الثلاثة الذين أوفدهم المركز العربي للأدب

الجغرافي، من أبوظبي، والمغرب، وفرنسا؛ لتسجيل رحلاتهم في مناسبة إعلان اليونسكو هذا العام عامَ جلال الدين الرومي في مئويته الثامنة.

طمأنته بوصولي، وشرعت في تدوين بعض يوميات السفر تحقيقًا لرغبته في نشر تقرير صحفي عن الرحلة.

عزيزي نوري

شكرًا لسؤالك، وصلت بحمد الله، ونزلت في فندق «دندر». كانت رحلة عجيبة، وليلة أعجب، وإن لم تنقضِ بعدُ؛ وصلتُ قبل ساعات قليلة.

أرفق لك طيه ما تيسر من يوميات السفر والوصول. سوف أستكملها على مهل، إلى أن تبدأ رحلتي الحقيقية في رحاب مولانا. أرجو أن تجد في المرفق ما يصلح لهدفك.

تحياتي/ وليد

في الطريق إلى مولانا (١)

الساعة تقارب الثانية بعد منتصف الليل. نزلت بعناء من سيارة التاكسي الصفراء التي أقلتني من محطة أوتوبيس قونية إلى فندق «دندر» Dundar، بشارع فريت باشا.

بالكاد انتقلت إلى صالة الاستقبال من شدة التعب، بعد معاناة ١٣ ساعة متواصلة من السفر بالأوتوبيس، من إستنبول إلى قونية، وقبلها ساعات السفر بالطائرة من مطار دبي الدولي؛ إذ أقلعت طائرة الخطوط الجوية السنغافورية في موعدها تمامًا: الرابعة والعشرين دقيقة فجر الجمعة، الرابع عشر من شهر ديسمبر ٢٠٠٧، قبل أيام قليلة من ختام احتفالية المئوية الثامنة لمولانا.

جئتك ملبيًا دعوتك يا جلال الدين! رددت ممازحًا نفسي مضفيًا على جو الرحلة مسحة صوفية؛ فهي موضة هذا العصر.

إلى أن حطت الطائرة في مطار أتاتورك بإستنبول، كنت متحمسًا للتوجه مباشرة إلى قونية. أخبرتني موظفة الحجز في أبوظبي أن المسافة أقل من ٦٠٠ كيلو متر، يقطعها الأوتوبيس في خمس ساعات. راودني الأمل في اللحاق بزحام صلاة الجمعة في مسجد الرومي.

رحت أسأل مكاتب الاستعلامات ومن يصادفني من موظفي المطار عن أفضل طريقة للوصول إلى قونية. ورغم صعوبة استخلاص إجابات من بشر لا يجيدون سوى التركية، فهمت أن المسافة بين البلدين لا تقل عن ٧٠٠ كيلو، وأن الأوتوبيس يقطعها في ١٣ ساعة، على الأقل، وأن الطيران هو الوسيلة الأفضل. ولكي تكتمل الصدمة؛ لا بد من وجود حجز مسبق سواء للطيران أو الأوتوبيس أو حتى القطار الذي قالوا إنه يستغرق ليلتين ليصل إلى مدينة مولانا!

مشحونًا بالغضب، خرجت من مطار أتاتورك المهيب في بنائه وتنظيمه. قصدت محطة المترو إلى وسط المدينة. تبدأ المدن من أواسطها، كنت أقاوم رغبتي في رؤية إستنبول مدفوعًا بفضولي لإدراك صلاة الجمعة في مسجد مولانا، وبما أنه بات من المستحيل تحقيق تلك الرغبة، فلألقِ نظرة تسد بعض جوعي إلى هذه المدينة الحلم.

موظف التذاكر في محطة المترو لا يجيد سوى تركيته، ويبدو أنني أفسدت صباحه بمظهري ورغبتي في استخلاص إجابات منه.

كان يشير بيديه ويلفظ كلمات لا أفهمها بينما أسأله عن أقرب محطة إلى وسط المدينة. عرفت من البحث على الإنترنت تمهيدًا للسفر أن المترو ينتهي في محطة «أكسراي» تقوم بما يشبه التحويلة إلى اتجاهات أخرى في المدينة. أردت التأكد من أن هذه المحطة بالفعل هي الأقرب إلى مركز المدينة. ومن أي رصيف يجب أن أستقل القطار. اعتبرت حصولي على الرد بالإنجليزية حقًا مشروعًا لغريب في مدينة تُشتهر بالسياحة. وتستقبل يوميًا أفواجًا من السياح والسائحين والحجاج والمريدين. ربما أغاظ موظفَ المترو أنني أنطق اسم المحطة (أسكراي). وربما هو قادم من بيته بغيظه. المهم أنني أدخلت كفي إلى جيب معطفي وأخرجت العملات التركية التي أحملها. وضعتها أمامه وقلت له «أسكراي». مد يده وأخذ منها ليرة ونصف ليرة وأعطاني عملة أخرى تمكنني من المرور من بوابة الدخول. وأشار بيده كمن يهش ذبابة ثقيلة الظل إلى مدخل المترو.

حتى هذه اللحظة لم أكن غادرت نفسي المغلقة؛ فالمطار يقودك بتدرج نازل إلى مبنى محطة المترو. الجو دافئ. ربما ساخن قليلًا. توقعت أمطارًا كما قيل في إذاعة الطائرة في أثناء الهبوط. وعندما خرجت من سجن الجدران، اكتشفت أن إستنبول مغسولة بالمطر، وأن الجو منعش ورائع. تخترقه برودة جميلة تذكرك بأنك على قيد الحياة.

يبدو أن كل ركاب المترو من الموظفين المتجهين إلى أعمالهم. أسماء المحطات طويلة ومعقدة. وبالنسبة لي، فإن جرس موسيقى اللغة التركية صعب لا يمكن بسهولة التقاط مفرداتها وترديدها.

يبدو وكأن الكلمات متشابكة ومتداخلة. من حوالي خمس عشرة محطة خلال الطريق، لم أحفظ سوى محطة «بَيرم باشا». بقية الأسماء كانت تنمحي من ذاكرتي بمجرد أن تنتهي إذاعة المترو الداخلية من نطقها. عند وصولي إلى محطة «أكساراي»، توقفت أسفل لوحة الطريق وسجلت أسماء المحطات كلها. رغم ذلك لم أتمكن من نطقها بصورة صحيحة.

أجرُّ حقيبتي وأحمل حقائب أخرى صغيرة، خرجت إلى المحطة. استوقفت أول تاكسي. طلبت من السائق أن يقلني لمشاهدة كنيسة آيا صوفيا، لا أعرف لماذا أحسست أن طلبي أغضبه، استمر هذا الغضب خلال حوارنا القصير جدًّا، قال: «Aya Sofia Cami». قلت ظنًّا أنه لم ينتبه:Aya Sofia Church. قال بحدة: «Cami .. Cami» وانتهى الحوار.

ولكن آيا صوفيا كنيسة أيها السائق. وإن تحولت إلى جامع بعد غزو القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح، فهي توصف بأنها أعظم كنيسة بنتها اليد البشرية على الأرض. سخَّر لها الإمبراطور جوستيان أفضل المعماريين: أرتموس الأمهر في آسيا، وإيسادور من ميلانو، وجلب لها الأحجار والأعمدة والرخام من مصر وبعلبك وأوبْوا وأثينا وروما، وأنفق عليها ٣٦٠ مليون فرنك ذهبي، واستخدم فيها عشرة آلاف عامل، حتى قيل إن هذه البناية لم يُشهد مثلها منذ آدم، ولا يمكن تشييدها بعد الآن. فمن أقنعك بأنها جامع؟

كانت رغبتي في مشاهدة مسجد السلطان أحمد، المسجد الأزرق، لا تقل قوة عن رغبتي في مشاهدة كنيسة آيا صوفيا، خاصة

أن أحد أهم دوافع اختيار هذا المكان للمسجد رغبة السلطان في منافسة الكنيسة وجعل مسجده يفوقها روعة وجمالًا. اشترى قطعة الأرض المقابلة لها بثروة هائلة، وكلّف ببنائها محمد أغا تلميذ سنان باشا أكبر بَنَّاء في التاريخ الإسلامي العثماني، وداود أغا، أشهر مهندسي ذلك العصر.

أرضيت فضولي لمشاهدة الأثرين بزيارة خاطفة من الخارج، وعدت لمحاولة العثور على وسيلة نقل تُقلني إلى قونية؛ تلبية لنداء مولانا!

(٤)

خيالات الحلم تحاصرني، تضاءلت رغبتي في تدوين اليوميات، فاكتفيت بما سجلته، وأرفقته في الإيميل وضغطت أيقونة الإرسال.

استعدت بعض لياقتي بعد أن أضعفها السفر. لم أُطق صبرًا حتى الصباح الذي بات وشيكًا. قررت النزول ـ الآن ـ وزيارة مولانا؛ أنا في حاجة إلى أن أثبت لنفسي أنني خارج الحلم. أحتاج إلى التيقن من ذلك بالفعل. ارتديت ملابس الخروج. فتحت باب الغرفة، وطلبت المصعد.

في سكون الليل، بدا كالزعقة صوتُ أزيز الكهرباء إثر ضغطة إصبعي على الزر الذي أشعَّ بالضوء الأحمر. تخيلتُ الكهرباءَ وهي تسري كالبرق وصولًا إلى الكتلة المستكينة في موضعها منتظرةً أمرًا بالصعود أو الهبوط.

فزعتُ لصدى تلك الزنة التي أحدثها عزمُ تحرك الصندوق من مكانه؛ تشبه إفاقة جثة هامدة. حضر المصعد. كشفت الإضاءةُ المتسربة من خلف زجاج الباب الشفاف بطانَتَه الداخلية الحمراء وجزءًا من المرآة المثبتة على جداره. راقبت خيالًا في المرآة ظننته انعكاس صورتي. مددت يدي لأفتح الباب. قفز الحلم في رأسي.

هرولت مسرعًا عائدًا صوب باب غرفتي. أخرجت البطاقة

الممغنطة من جيب الجاكت الداخلي الذي شعرت الآن بمدى ثقله على كتفي. سلّكت ذراعًا من أحد الكُمّين، ودسست البطاقة في الباب، دفعته فانفتح. الغرفة مظلمة إلا من لمبات صغيرة تُومض من جوانب اللاب توب الذي لم أكن أغلقته. وضعت البطاقة في المكان المخصص لتشغيل الكهرباء فعادت الإضاءة. في لحظات استدعيت صفحة الوورد البيضاء وشرعت في الكتابة. مَرَّ وقتٌ قبل أن أنتبه إلى أنني ما زلت واقفًا أكتب بيد واحدة، بينما الأخرى مدلاة إلى جانبي يجذبها إلى الأرض كُمُّ الجاكت المعلق بها. أعدت قراءة السطور فاطمأننت إلى اقتناصي الحلمَ وتثبيته في عالمي. نزعت الجاكت وألقيت به على السرير خلفي. استرخيت، وجلست أدقق ما كتبت، وأضبط محاوره:

رأيتني شابًّا، بالكاد جاوزت الثامنة عشرة من عمري. أشعر بخيول الطاقة تركض في دمائي وتقودني أحيانًا إلى شفا العصبية والتهور. لكن أنجح دائمًا في كبح جماح غضبي ولا أتجاوز حدود اللياقة والأدب. هكذا تعلمت في بيت أبي. البعض يظن تأدبي خوفًا. لكنني لا أعرف معنى الخوف. لم يكن الخوف ما وقف حائلًا دون إقدامي على مفاتحة والدي جلال الدين الرومي في الأمر. إنما، على العكس من ذلك، منعني حُبٌّ شديد له، كاد أن يبلغ مبلغ التقديس، واعتدت معه أن أتجنب مواجهته بما لا يروق له، وإن راقني.

لم أعد أشعر ببرد «قونية» القارس، الذي يصبح من شدة وطأته في مثل هذا الوقت من كل عام مسننًا كحواف أسلحة الحصاد. حرارة التفكير وصلت بعقلي إلى درجة الغليان. حرثتُ ـ على مدار ساعات من السير المتواصل ـ شوارعَ المدينة وأزقتها، إلى أن أوقفتني مستنقعات مياه جمدها البرد على حدود العمران. لم أستجمع شتات شجاعتي بعد.

يبدو أنني مضطر للمواجهة هذه المرة. منذ أن همس «قادري» في أذني بكلماته التي أحرقت ما تبقى في صدري من تجلد؛ وأنا أستشعر نذر خروج غضبي عن حدوده التي أعرفها. لذا هربت.

منذ ذلك الوقت وأنا هائم على وجهي في شوارع المدينة، أحاصر غضبي وأحاول ترويضه.

تُخايلني نظرات صديقي الحائرة. لفتني عندما مررت بداره هذا الصباح أنه كان مرتبكًا وخجولًا على غير عادته اليومية، غير قادر على ترتيب عباراته، أو النظر في عينيَّ، أنا صديق عمره!

لم أنشغل كثيرًا بذلك، وانتظرت أن تذوب هذه الحالة بعد دقائق من استرسالنا في حديثنا اليومي. ظننته ينوء كعادته بحمل جديد من تلك القصص التي صارت حديثَ المدينة عن أبي منذ أن ظهر «شمس الدين» في حياته.

تربكه القصص وتوغر قلبه. كما تربك الكثيرين من

محبي أبي وتغضبهم، وتذكي في نفسي شخصيًّا نارًا، بعد أن انشغل الرومي عنا جميعًا بشمسه الغريب.

إلا أن شيئًا في صوت قادري ولفتاته جعلني أستشعر الخطر هذه المرة؛ في الأمر رائحة «كيميا». قادري هو الوحيد الذي يعرف سرَّ عشقي لها منذ أن وطئت قدماها الناعمتان أرض دارنا. منذ أن سلمها لي أبي، مرددًا بصوت حنون: «أختك يا علاء الدين؛ كيميا، أريدك أن ترعاها وتحفظها في عينيك وقلبك».

لم أُخلف الوصية في شيء. لم أستطع أن أجعلها أختي. لكنني حفظتها في كل كياني. حفظت صوتَها واستدارَة وجهها وانسيابَ شعرها عليه. حفظتُ لفتة العينين الخجولتين؛ تلك اللفتة الغامضة المتهيئة دومًا للفرح، والمشوبة أبدًا بلمسة من الغضب الأنيق. تلك النظرة المفعمة كأنما هي دائمًا على وشك أن تصرخ، من فرح أو خوف أو عشق.

رغم مرور السنوات، لم أنسَ لمسة أناملها الدقيقة وهي تتشبث بكفي. كيف أنسى! لحظة انتهى أبي من كلماته لنا، انتقلت بجسدها الصغير لتقف إلى جواري. بيدها اليسرى تعلقت بردائي من خلف ظهري، بينما تشبثت يدُها الأخرى بكفي، كأنما تترجم ما وصلها من كلمات أبي: علاء الدين ملاكُك الحارس.

لم يقل قادري الكثير. كان كافيًا بالنسبة لي أن يجتمع اسمُ كيميا باسم شمس، لتصلني الرسالة. أنا

الملاكُ الحارسُ. أشعر منذ فترة أن هذا الكيان المبهم كالظل المعتم يزحف الآن على بقعة الضوء الوحيدة الباقية في حياتي بعد رحيل أمي وانقلاب أبي. ولن أسمح له بذلك.

يا الله، أعِنّي. إن روحي جمرة تستنفد طاقتها في صندوق من الثلج. ساعدني على النظر في عيني الرومي ومواجهته. ألهمني طريقة لأثبت له أحقيتي في كيميا. دلني على وسيلة أستعيد بها عينيه اللتين كان يرفعهما من بين أوراقه ويترك ما بين يديه ليشملني بنظراته العذبة فور أن يسمعني أهمس من خلفه: أنا علاء الدين يا أبي. لم يعد يرى بهما سوى ظلّه المعتم. لم يعُد أحد سواه في الدنيا يعنيه.

يا الله، امنحني بعض الجرأة! أو على الأقل اضمن لي أن يكون وحيدًا من دون ذلك الظل المعتم. لأنني لا أعرف ماذا سيحدث لو كان جاثمًا كعادته بين يدي أبي. أبي، أنا علاء الدين، علاء الدين ولد، يا أبي، وليد... علاء الدين يا أبي.

(٥)

استلقيت على السرير مندهشًا من تلك اللعبة التي تلعبها الأحلام معي. هل حلمت حقًّا بعلاء الدين؟ لم يكن هو من يخوض بقدمين حافيتين في مستنقعات قونية الباردة. كنت أنا. لم أكن أنا من يخشى لقاء جلال الدين. كان هو. لم يكن هو من فسدت هيئته وملابسه بفعل البرد والسير لمسافة طويلة. كان أنا. لم يكن أنا من ذوَّبه عشق كيميا وخشيَ عليها من الظل المعتم. كان هو. لم يكن هو من صحا في غرفته مرتبكًا لا يعرف الحلمَ من الواقع. كان أنا. لكنه في نهاية الحلم لعب لعبته السحرية بالأسماء، اللعبة نفسها التي قالتها عبارةُ المرآة: «علاء الدين ولد، وليد علاء الدين».

متى حلمت بعلاء الدين؟ أذكر فقط أنني تذكرت هذا الحلم عندما نظرت إلى مرآة الغرفة داخل الحلم. متى كان ذلك؟ ما الذي يحدث معي؟ يجب أن أخرج من هذه الغرفة. والآن.

خلال دقائق، ألقيت بنفسي داخل أول سيارة أجرة وجدتها خارج الفندق. طلبت من السائق أن يقلني إلى «حضرة مولانا» فأخبرني أنه مُغلق الآن. لم أستسلم لذلك. بين متشكك في فهمه الكامل لما أقول وراغبٍ في زيارة المكان حتى ولو كان مغلقًا؛ أكّدت طلبي. فلأتجول خارج أسواره ملقيًا التحية إلى أن أعاود زيارته في الصباح.

رحت مدفوعًا بلذة الاستكشاف أتجول حول الأسوار. أراقب انكسارات الضوء على البناء القديم. انتبهت إلى أنني لست وحيدًا في المكان. رغم تأخر الوقت؛ كثيرون يتجولون مثلي، رجال ونساء. رَجلٌ مضعضع البنية انتحى ركنًا ورفع كفيه مندمجًا في دعاء باكٍ وعيناه معلقتان على صفوف القبب الصغيرة التي تمنح المكان أسطورته. امرأة تمسح خشبَ الباب العتيق بكفيها كأنما تمسد جسد حبيب. أخريات ألصقن خدودَهن بالباب الخشبي كأنما يستمعن إلى نداءات تأتيهن من هناك. حَشْدٌ من الشابات في ملابسهن الملونة الزاهية يبدون مع كثرة طبقات الثياب وتموجات الفراء كسرب من البطاريق الملونة. رجل ينقر بأطراف أصابعه قشرةَ الجليد الشفافة على سطح واحدة من فسقيات المياه المتناثرة في الساحة. رجال غمرتهم العتمة ألصقوا وجوههم بأسوار المتحف، وكفّوا عن الحركة حتى لتحسبهم، مع تسربات الضوء، تماثيل أو نتوءات برزت من الجدار، لا تكشفهم سوى حرارة أجوافهم، ربما هي ابتهالاتهم، التي تتكثف بخارًا يتصاعد من الأنوف والأفواه بمجرد الالتقاء ببرودة الهواء المحيط.

منشغلًا عن الرومي ومتحفه، اندمجت في مراقبة الناس. أدركت أن المكان أبدًا ليس مكانًا واحدًا، إنه أمكنة تتعدد وتختلف بتعددنا واختلافنا.

تجولت في أنحاء الساحة مقتربًا من الأسوار والقباب المنطمسة في عتمة الليل. مَنْ أعرفُ في هذا المكان؟ لا يهم في

أي زمان. راحت ذاكرتي تستدعي أسماء من قرأتُ لهم، أو عنهم، وعشت معهم في هذا المكان: جلال الدين الرومي صاحب الحضرة. بهاء الدين وَلَد؛ سلطان العلماء. علاء الدين الغاضب المتمرد. سلطان ولد المطيع كظلّ. جوهر خاتون الزوجة التي غادرت عالمهم مبكرًا بعد أن وهبته ابنيه. كيرا خاتون الزوجة الثانية التي أكلتها الغيرة عندما استحوذ عليه شمس الدين تبريزي. شمس الدين... العنصر الذي غيّر كيمياء المعادلة. صلاح الدين زركوب صائغ الذهب الذي رقص مولانا على صوت طرقاته على المعدن النفيس فظلّ يدق له إلى أن ذاب الذهب تحت المطارق فنشأت رقصة المولوية. حسام الدين جلبي التابع الساحر الذي أيقظ الشاعرَ الكامن في قلب جلال الدين واستكتبه المثنوي الشهير... كانت الأسماء تتداعى إلى ذهني، كلهم كانوا أجسادًا عاشت هنا ذات يوم، ربما وقف أحدهم مكاني هنا قبل ثمانمائة سنة... أكثر... أقل! لا يهم الزمن؛ المكان يختزل الأزمنة ولا ينفيها، وإلا فكيف نستحضرها؟

هل وقف شمسٌ هنا؟ هل أصابته قشعريرة البرد التي أشعر بها الآن؟ عاش يخشى الشتاء ولا يطيقه، تسودّ أظافرُه من الصقيع، وفقرات ظهره الناحل لا تحتمل البرودة. تجاوز الستين من عمره بأعوام عندما التقى مولانا، هنا... ربما في هذا الشارع أو بالقرب منه، كان شيخًا عندما أوقف رَكْبَ جلال الدين الرومي. يسأل شمسٌ ويجيب جلال:

- قل لي أيها الشيخ، هل الرسول محمد أعظم، أم أبو يزيد البسطامي؟

ـ وماذا يكون البسطامي بجانب خاتم الرسل والأنبياء؟!

ـ فكيف يقول البسطامي إذن: «سبحاني ما أعظم شاني»، بينما يقول محمد: «ما عرفناك حق معرفتك»؟

ـ لأن البسطامي كوبٌ، ومحمدًا محيط... امتلأ الكوب ففاض، وكيف للمحيط أن يمتلئ؟

أدار مفاتيح السؤال في مخزون عقله، ودلف إلى كيانه، فاستخلص العسل من الجرة، كما يقولون. إلى أي حدّ تَصْدُقُ هذه الحكايات؟

فليقولوا ما شاءوا من حكايات، عن جلال، وعن شمس، هذا الروح القلق في جسد هَرِم ناءَ بحمل السر يبحث عن جسد آخر لينقله إليه. ولكن كيف باللهِ استقبلته كيميا بشبابها وروحها الوديعة؟

تذكرت كيميا التي أسلمتْ روحَها بين يديَّ على صفحات رواية «بنت مولانا»؛ فاضت روحُها هذه المرة في الفندق منذ ساعات قرب الأرض التي استقبلتها طفلةً غريبةً وألقت بها قربانًا على مذبح رجل غريب. زهدتُ في وقفتي على عتبات الرومي. انتبه أنفي إلى رائحة شواء تتصاعد من مطاعم السوق القريبة في الميدان العامر ببشر لا يشغلون أنفسهم، على الأقل في هذه اللحظة، بهذا البناء العتيق ولا ساكنيه.

ولّيت مولانا ظهري، واستسلمت لرائحة الشواء المغوية. أرضيت جوعي بوجبة ساخنة أشبعتني وسرّبت إلى جسمي خدرًا لم أتخلص منه إلى أن وصلت إلى الفندق.

في الغرفة أيقظني نداءُ الواجب، جلست لتدوين رسالة جديدة في تقرير الرحلة؛ فلست أعرف متى أتمكن من الكتابة مرة أخرى.

عزيزي نوري

أرفق لك هنا جزءًا جديدًا من يوميات السفر والوصول. لم تُتَح لي بعد فرصة مشاهدة المدينة. زرت ساحة مولانا منذ قليل. رغم العتمة والبرودة، كان مريدوه يلتمسون الدفء بقربه. بالنسبة لي كانت رائحة الشواء عصية على المقاومة..

مودتي/ وليد

في الطريق إلى مولانا (٢)

غمامة كبيرة ترقد فوق كنيسة آيا صوفيا، ذكَّرتني بطيورالغمام التي حلّقت بينها الطائرة في أثناء الهبوط، نظرتُ إلى إحداها وقلت: «ربما يُدركني مطرُ هذه الغيمة وأنا في إستنبول».

كانت مثيرة بشكل كبير، تشبه قطة تتمطى، قطة مصنوعة برقّة ودقّة من ندف القطن، مكتنزة وممتلئة الأطراف.

عندما دخلت الطائرة الأجواء التركية، كانت تحلق بين سماءين: سماء علوية زرقاء مضيئة لا يشوب صفاءَها سوى حمرة باهتة كحمرة دراقة في مستهل النضج ترسم حدَّ الأفق، وسماء سفلية تبدو كغلالة بيضاء شفيفة تُخايل من فواصلها بين الحين والحين أضواء سفينة ضخمة تبدو راقدة في المياه، أو أضواء كيانات لا يُدرَك كنهُها، تبرق وتختفي في محيط من البياض والعتمة.

كانت الرحلة بالنسبة لي، وأنا منغرس بوجهي كله في زجاج النافذة، سباحةً رقيقة وناعمة في محيط من القطن المندوف. قاومت رغبة عارمة في أن أترك نفسي لأهوي سابحًا وسط هذا البياض الفاتن.

هل كانت غمامة آيا صوفيا هي غمامتي الفاتنة؟ لا أعرف. إلا

أنها لم تقلَّ عنها فتنة وهي تحتضن الكنيسة في حنو كبير، بينما يتدفق صوتُ الواعظ من مكبرات الصوت في مسجد السلطان أحمد من الجهة المقابلة، لا يختلف كثيرًا عن صوت خطباء المساجد العرب رغم أنه يتحدث التركية؛ الأفكار تقود الخطابات.

فقط تجولت في الميدان، وقمعت رغبتي الجارفة في زيارة كاملة للمسجد والكنيسة تحت وطأة شعوري بضرورة الإسراع في تحديد وسيلة انتقال إلى قونية.

استعلمت عبر الهاتف عن رحلات الطيران، وعرفت أنني يجب أن أحجز قبلها بيوم على الأقل، فلوّحت لأول تاكسي وطلبت من السائق أن يقلني إلى محطة القطار.

لديَّ توجس دائم من سائقي التاكسي؛ أعرف مقدمًا أنني زبون بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ. لا أغضب عندما يتعمد أحدهم التجول في المدينة كلها ليعود بي إلى نقطة لا تبعد عن مركز تحركنا سوى كيلومترين مثلًا ليحصل على أجرة أكبر. أعتبر الأمر هدية لطيفة في مدينة لم أرها من قبل. لكن أتوجس من تزييف بعضهم الحقائق فلا يبقى سوى الخيار الذي يحقق لهم المصلحة. وقد بدا لي هذا السائق من ذلك النوع. يتحدث العربية بطريقة مضحكة ولطيفة. متحمس ويتكلم بسرعة لافتة.

أخبرني أن أباه من «لواء إسكندرون» السوري وأمه كردية، بينما هو تركي المولد والمنشأ. قال إن القطار يقطع الطريق بين إستنبول وقونية في ليلتين، وهو أمر لم أستطع تصديقه. ألححت أن يقلني إلى المحطة؛ فليس من المعقول أن تركيا نصف الأوربية ليس فيها

قطار سريع يقطع مسافة سبعمائة الكيلومتر في ساعات! أخبرني أن الأوتوبيس يحتاج إلى حجز مسبق. ربما قبلها بليلة. وبالتالي، فإن الحل الوحيد أن أقاوله الآن للذهاب إلى قونية بسيارته التي وصفها بالجديدة والخفيفة والسريعة، بحيث لا يستغرق الطريق أكثر من خمس ساعات.

وظنًّا منه أنني أحد مريدي الرومي، راح يتحدث عن بركاته وكراماته، مشيرًا إلى أن الرومي هو أول النداء إلى حج مكة، ومن يزره فلا بد أن يزور مكة، وقال إن أمه لبت نداء الحج «كرّتين» بينما لبّاه أبوه «كرَّة» واحدة بسبب الرومي.

أعجبني مصطلح «كرّة» من رجل يتحدث العربية بصعوبة. كان يُقبّل ظهر كفّه كلما تحدث عن مولانا ويقول: «بيرام» أي بركة. عندما سألته: «كم مرة زرت مولانا؟» قال: «ولا مرة». وعلّل ذلك بأنه لم يزر قونية سوى مرة واحدة عندما اصطحب زائرًا من إستنبول إلى هناك في مقاولة وصفها ببساطة بـ«المربحة». وقال: «لم يكن لديَّ الوقت لزيارة مولانا، ربما لم أكن من الموعودين به وقتها».

ربما كان يريد أن يجعلني مقاولته الرابحة الثانية. ولكن لا أعرف إن كانت نيته أن يزور مولانا هذه المرة ليقبّل ظهر كفه على عتبته ويقول «بيرام» أم لا!

في محطة القطار، كانت الصدمة؛ كل القطارات من إستنبول إلى مرقد مولانا جلال الدين الرومي محجوزة ولثلاثة أيام مقبلة. وموظف الشباك لا نيّة لديه لمناقشة أي أفكار للمساعدة،

وإن كان منها أن أدفع ثمن التذكرة بلا مقعد. يستخدم كلماته الإنجليزية القليلة فقط ليرفض أي مقترح أقدمه ليساعدني، أنا القادم من بلاد الشمس والرطوبة لزيارة مولانا في عز البرد التركي وتدوين كتاب عن رحلتي إليه. عدت خائبًا منقطع الرجاء من رحلة بالقطار. وتمنيت لو استسلمت لسائق التاكسي ابن الإسكندروني والكردية، لكنتُ الآن مستلقيًا داخل سيارة تنهب الطريق إلى قونية.

(٦)

لم أعرف إن كان زلزالًا حقيقيًّا ما شعرتُ به، أم أنه نتيجة الاندماج في الكتابة! تجاهلت الأمر حتى انتهيت من إرسال الإيميل.

عزز سقوطُ اللوحة المعلقة فوق السرير احتمال وقوع زلزال، الأناضول مشهورة بالهزات الأرضية. لكن ثبات بقية الأشياء في الغرفة نقلني من مساحة القلق والريبة إلى هلعٍ لم أعرفه من قبل.

اختبرت ثباتي الانفعالي مرات ومرات قبل ذلك، وأثق تمامًا فيه؛ يكفي أن تستيقظ من حلم فتكتشف أنك ما زلت تحلم... لكي تتأكد من قدرتك على الثبات. هذه المرة كنت بالكاد قادرًا على التماسك. فقدتُ تقريبًا قدرتي على الحركة أو اتخاذ قرار. أسمعُ لعقلي صوتًا وهو يجتهد للخروج من ورطته كآلة حفر عَلِقَ سنُّها الهائل بحَجَرٍ عصي فراحت محركاتها تئز صارفة كل طاقتها في محاولة التخلص من الورطة. رغم ذلك، بدا لي أزيزه أليفًا؛ مزيجًا من وشيش مصباح الغاز ونقيق الضفادع في سكون الليل.

لا أعرف كم من الوقت استغرقتني هذه الحالة. عدت من غيبة لم أسمع خلالها سوى ذلك الصوت العتيق لأنتبه إلى شرخ عميق بدا شديدَ الوضوح في الجدار خلف اللوحة فوق السرير، التي أسقطتها الهزاتُ العنيفة المتلاحقة. كيف لم أنتبه إلى شرخٍ بهذا الاتساع فوق سريري مباشرة؟ كيف لم يُثر النورُ المتسلل منه ريبتي؟ هل كان هذا الشرخ موجودًا قبل دقائق؟

بدت اختياراتي جِدّ محدودة؛ أن أستسلم للخوف فأركض خارج الغرفة تاركًا المصعد مجتازًا الأدوار الثلاثة عبر السلم وصولًا إلى مكتب الاستقبال حيث الفتاة التركية الودود التي أصرت يوم وصولي على أنني أشبه ممثلًا تذكره من الفيلم المصري الوحيد الذي شاهدته ولا تعرف اسم الممثل ولم تتذكر اسم الفيلم وأصرت بإنجليزيتها الضعيفة ومساعدة خطيبها الشاب الذي يعمل معها في المكان نفسه على أن تحدثني عن القصة المقتبسة من السينما الأمريكية حول شباب تورطوا في سحر أسود يخرج من لوحة حروف! هتفتُ لها سعيدًا بأن الموقف سينتهي: «ويجا»، فابتسمتْ ورددت الكلمة وهي تتبادل نظرة انتصار مع خطيبها كأنما كانا في رهان.

تُرى أي أبطال «ويجا» تقصد؟ تساءلتُ قبل أن أنتبه إلى خطورة موقفي؛ هل لحقني سحر الأحرف إلى هنا، وأدخلني إلى لعبة الكلمات الغامضة التي تدور معي في هذه الغرفة؟

قاومت خوفي وزحزحت قدمي تجاه الجدار. صعدتُ على السرير، فصار الشرخ موازيًا لصدري. بدا أكثر اتساعًا عن قرب. دققت النظر. لم يكن هناك سوى ضوء شحيح لا يكشف شيئًا. ضوء رخو يشبه الأضواء التي نراها في لوحات المستشرقين؛ على روعتها وتألقها تبقى مساحات لونية لا تفضي إلى شيء. هذا الضوء بدا مثلها ضوءًا معطلًا لا وظيفة له خارج لوحته.

برفقٍ، مددت يدي. تلمست حوافَّ الشرخ المضيء. أصابتني النعومة البضة بقشعريرة سرت من أطراف أصابعي واهتز لها جذعي وانغرست أشواكًا مؤلمة في أصابع قدميّ، فازداد تشبثهما بلدونة السرير.

ليس شرخًا ما مسته يداي. إنه جرح أوشك على الالتئام! نافذةٌ في جسد حي. وتلك الآهة التي طفت على سطح سمعي، لم تكن بسبب آلام قدميَّ. إنما صدرت عن الجدار، تحديدًا من عمق الجرح النابض بالضوء!

هل مادت بي الأرض مرة أخرى، أم أن اختلال توازني كان نتيجةَ لدونةِ مرتبة السرير حيث أحاول التوازن؟ لا أعرف. ترنح جسدي فخشيت السقوط على ظهري. جدفت بذراعي في الهواء. ثنيت جذعي إلى الأمام متشبثًا بالفراغ. لم يكن أمامي من مهرب سوى الارتطام بالحائط، مباشرة في قلب الشرخ المضيء.

المدهش، أن دهشتي لم تكن عظيمة عندما اتسع الحائط واستقبلني بضوئه الرطب. كأنما توقعت ذلك. خفّ فزعي وحَلَّق معي في غيمة من البياض المشع. كنت أسمع رفيفها وهي تحملني، وأشعر بلسعات رقيقة تدغدغ جسمي، وأكاد أجزم أنني رأيت من ارتفاعي كائنات رقيقةً تبث الضوء من مكامن تتوارى خلف شجيرات صغيرة داكنة الخضرة، وكائنات أخرى سريعةَ التنقل تتابع الضوء المتسرب من بين الشجيرات وتطارده برايات صغيرة فيتوزع وينتشر كأنما هي المسئولة عن اتزان درجته ليظل حليبًا مخفوقًا تُدرك فيه ولا ترى.

على المدى، لمحت امرأة. في بادئ الأمر، رأيت فيها شخصًا أعرفه. فاستأنست واستبشرت. فكرت لو أمكنني التحليق صوبها. وسرعان ما نبت لي جناحان رشيقان. بالكاد ميّزتُ بياضَهما الشمعي. أحسستُ كأنهما جناحاي الأصليان اللذان أفردهما دائمًا في لحظات التحليق المعتادة. رفرفتُ كثيرًا. لكن المرأة ظلت بعيدة عند المدى. أدركت أن جهدي في التحليق، وإن كان لا يُقرِّبني، فإنه لا يذهب

سدى؛ كلما اجتهدت، راقت الرؤية. كانت شخصًا أعرفه. ولما حلّقت صوبها، صارت أمي. اجتهدت في التحليق. عرفت فيها امرأتي. حلقت مشتاقًا صوبها. ولما بلغ التحليق ذروته، تجلت لي كيميا.

كانت واقفة هناك متحدة بالمدى، فأدركت ألا سبيل إليها مهما بلغ الجهد. خامرني اليأس، فانفصل جناحاي. راقبتهما يسقطان، لوحيْن من رصاص يشقان بحرًا من القطن المندوف، فزعتُ؛ إذا كان هذا حال جناحين من ضوء، فما مصير جسدي؟

قاومت فزعي واتخذت قراري بلا تردد. إذا كان لا مفر من السقوط فعش لحظتين كطائر. إذا كان المكتوب أن أسقط، فلأستمتع بكل لحظة تسبق الارتطام. فلألعب كل الأدوار العصية: طائر خانه جناحاه، مظليّ فسدت معداته، طائرة تعطّل محركها. أو حتى نيزك غادر سماءه. تمددتُ مرتاحًا للفكرة. تخلصت من خوفي ولم أنتظر لحظة الارتطام. جاء سقوطي لطيفًا إلى حد تمنيت معه لو أمكنني استعادته مرات ومرات.

عندما رفعت جسدي من رقدته على الأرض قرب المرآة، وجدت اللوحة التي تزين الجدار مستقرة في مكانها. الجبال في خلفية المشهد راسخة لم تتزحزح. البحيرة الصغيرة رائقة كما هي. ليس هناك ما يدعو إلى الدهشة سوى عبارة أفلح كاتبُها في جعلها متسقة مع رجرجة الموج على صفحة ماء البحيرة. أقسم إن تلك الكلمات لم تكن جزءًا من المشهد عندما رأيته أول مرة وتأملته معجبًا بجماله الأسطوري.

عبارة أخرى أضيفت إلى لعبة الكلمات لكنها بالعربية هذه المرة: «انتظرتك طويلًا. ليس أمامنا مزيد من الوقت. كن مستعدًّا».

(٧)

لم أكن خائفًا. على العكس، صحوت مكسوًّا بشعور اطمئنان غريب. كان الحلم جليًّا في ذاكرتي. والأهم أنه استدعى الحلمين اللذين نجحتُ أيضًا في اقتناصهما بلا لبس في الليلة الأولى.

التأمتْ كلماتُ الحلم الأول، التي كانت مكتوبة على سطح المرآة، بكلمات الحلم الثاني، وكونت جملةً واحدة راحت تتردد في ذاكرتي كأنما شخص يهمس بها خلف أذني: «سَن وليد علاء الدين سِن، بَن علاء الدين وَلد تر، سَن بِنم ترستر... انتظرتُكَ طويلا. ليس أمامنا مزيد من الوقت. كن مستعدًّا».

رددت الجملة كأنها قانون جديد من قوانين الفيزياء أستعدُّ لاستظهاره في اختبار قريب. عجزت عن إدراك المغزى من السياق العام. كانت كلمات سَن، سِن، بَن، تر، بِنم، ترستر، تشبه الفراغات في لعبة سودوكو معقدة؛ في السودوكو تكتسب الأرقام أهميتها من أماكنها وليس من قيمها الحسابية.

هذه الكلمات، المكونة من مقاطع صوتية قصيرة مكتوبة بحروف عربية واضحة، المزخرفة بعلامات التشكيل الفارهة، لا معنى لها. تكتنز قيمتَها ومعناها وتغلق عليهما. ولا وصول من دون معرفة. ليست لغة تركية. فكّرتُ: ربما تكون فارسية. ولكن الأقرب أن تكون لغة عثمانية، أو ما يسمونها باللغة التركية القديمة؛

فهي لغة مختلطة تجمع كمًّا هائلًا من المفردات العربية والتركية والفارسية، كتبها العثمانيون بأحرف عربية محدثين تعديلات في الشكل والقواعد.

«ما إلك إلا جوجل» رددتُ لنفسي مازحًا على صيغة اسم برنامج تلفزيوني شهير. جلست أمام اللاب توب ودعكت مصباح العصر السحري. في ثوانٍ، أخبرني العفريت بأن ترجمة اللغة العثمانية ليست في سهولة ترجمة التركية؛ إذ لا بد للمترجم من الإلمام بالكثير من المفردات العربية والفارسية التي يختلف استخدامها في العثمانية قليلًا أو كثيرًا عن استخدامها في اللغتين.

أدرجت العبارة في Google translation. حددت له اللغة: من التركية إلى العربية مرة، ومن الفارسية إلى العربية مرة. لم يفعل في المرتين سوى أن نقل العبارة من خانة إلى الأخرى. تركتُ له مهمة تحديد اللغة، فاعتبرها عربية! أخفق عفريت العصر في حل لغزي اللغوي المريب.

قفز إلى ذهني صديق فلسطيني أردني زاملني في العمل سنوات. له عقلية ناقد مبدع رغم انغماسه في أعمال الحسابات. جمع بيننا العمل واهتمامات مشتركة، منها الميل إلى تفصيص الأمور بدافع الرغبة في معرفة الحقيقة. أشك في أننا اكتشفنا ـ ولو مرة واحدة ـ حقيقة شيء ناقشناه. فقط كنا نسعد باكتشافات صغيرة تضيء في العقل خلال تبادل الأسئلة ومقترحات الإجابة.

عُمر يجيد التركية، درسها كلغة ثانية في جامعة فيلادلفيا الأردنية. حدثني قبل ذلك عن الفرق بينها وبين العثمانية، قال إنه أحد القلة

الذين اهتموا بذلك وقرأ فيه مدفوعًا بفضوله. أثقُ في فضول عمر وإضافاته.

ـ آلو.. مرحبا يا عمر.. إزيك؟

ـ أهلين أبو أحمد.. كيفك؟

ـ تسلم يا بو يامن.. باكلمك من تركيا.. آسف.. الوقت مش مناسب.. بس قاصدك في خدمة ع السريع.

- تؤمر يا زلمى.. خير.. بك شي؟

نقلتُ العبارة لعمر الذي سألني: أين صادفتها؟ فرجوته أن يُعفيني من الخوض في أي تفاصيل إلا ما يخدم فكرة العبارة فقط، مع وعد بلقاء نستحلب فيه الفضول حتى يسلم روحه بين أيدينا.

سألني بريبة إن كانت الكلمات مكتوبة بحروف تشبه الإنجليزية أم العربية. شعرت باقترابي من الهدف الذي هاتفته من أجله. قلت: حروف عربية تشبه الخط المغربي مشكولة بعلامات كالزخارف. قال: «ع السريع أبو أحمد.. هاي عثمانلية.. الترجمة الحرفية ممكن تكون كالتالي: أنت وليد علاء الدين.. وأنا علاء الدين ولد.. فأنت شبيهي».

وكعادته، أضاف بعض الظلال: «ترستر.. أبو أحمد ممكن تترجم كمان بمعنى «القرين».. وممكن يكون معناها إشي تاني متل: المعكوس.. متل ما تقول صورتك في المراية».

التقطتُ ما أريد التأكد بشأنه من عمر.. اعتذرت له عن عدم القدرة على استكمال الحديث أو الدردشة عن أحوال الرحلة. بكرم متأصل فيه تقبّل الأمر، وأعطاني اسم صديق له يدرس في

تركيا. أرسل لي رقمه في رسالة وصلتني فور إغلاق الخط. قال إنني سوف أجد فيه خير معين إن احتجت شيئًا خلال رحلتي.

اتضحت الفكرة في ذهني؛ إنه أحد أحلامي الصافية إذن. لعلها تأثيرات انشغالي الشديد بالرحلة، وقراءاتي المكثفة عن مولانا وتاريخه وحياته وقصصه، والتفكير المستمر في أمر الكتاب الذي يجب أن أنجزه كجزء من اتفاقي مع «ارتياد الآفاق».

«حلم.. حلم صافٍ جديد» رددت بصوت مسموع، دافعًا القلق عن روحي. ولمزيد من الاطمئنان، أقنعتُ نفسي بأن الاختلاف في التجربة كان السبب في اختلاط الأمر عليَّ. وربما فقدت قدرتي مؤقتًا على إدارة الحلم بسبب وجودي في أرض غريبة وإرهاق السفر لساعات طويلة. إلا أن شيئًا بداخلي ينذرني بأنني أحتال على الواقع؛ هناك ما يشبه اليقين يغمرني بأن ما رأيته على مدار الليلتين الماضيتين لم يكن من نوعية أحلامي. اقشعر جسدي لمجرد التفكير في أن ما رأيته لم يكن أحلامًا. حاولت طرد الهاجس من عقلي. نقلت عيني إلى شاشة اللاب توب؛ ما زالت مضيئة، صفحة البحث في جوجول تُظهر نتيجة عن «معركة قونية» يمكن متابعة قراءتها في موسوعة ويكيبيديا. ضغطتُ الرابط وقرأت القليل عن المعركة التي «أذاق المصريون فيها، بقيادة إبراهيم باشا، العثمانيين مرارةَ الهزيمة». لا أفرح كثيرًا بما يُنسب للمصريين من بطولات في تلك الفترة. كنت أقرأ وقلبي معلق بهؤلاء الفلاحين المصريين الذين جندهم إبراهيم باشا وحملهم من حقولهم وأحضان أسرهم للقتال في برد مدينة تبعد عنهم آلاف الأميال. هؤلاء هم المصريون الذين يستحق تاريخُهم

التدوين، فعل الروائي القدير محمد المنسي قنديل شيئًا عظيمًا عندما سلط ضوء الكتابة على أمثال هؤلاء البشر في رائعته «كتيبة سوداء». فكرت: كم من الوقت صرف في تتبع هؤلاء الرجال لغزل كتابته البديعة؟

بالونٌ رشيق من تلك البالونات التي تُبدعها كل يوم شركة مايكروسوفت خطف عيني إلى زاوية الشاشة حين قفز إشعارًا بوصول إيميل جديد. تركت إبراهيم باشا وجيشَه معلقين بين أسطر الصفحة، وأعدت قنديل وكتيبته السوداء إلى ركن الذاكرة، ونقرت البالون. سحبني نوري مرة أخرى إلى أرض الواقع، طموحه من رحلتنا كبير. برسائله المتلاحقة، يشاركني انشغالَه المستمر بكيفية تغطية الرحلات الثلاث إعلاميًّا. لا مفر من بذل بعض الجهد في استكمال المهمة؛ جئت لأنجز كتابًا.

عزيزي نوري

أقدر اهتمامك البالغ بمسار الرحلة، وسعيد بسيل المراسلات على الإيميل والماسينجر، رسائلك تشجعني على الكتابة، هنا استكمال لرحلة الوصول، إلى أن تجود القريحة بالمزيد فأرسله لك على الفور.

مودتي/ وليد

في الطريق إلى مولانا (٣)

حديث صعب مع مجموعة من سائقي سيارات التاكسي خارج محطة القطار. أقل سعر اقترحه أحدُهم لرحلة بسيارته إلى قونية كان ٨٠٠ دولار أمريكي. نصحني أكبرهم سنًّا وأبيضهم لحية، أن أحاول مع الباص. وطلب من سائق إحدى سيارات التاكسي،

يبدو أن هذا هو دوره في التحرك، أن يُقلني إلى موقف الأوتوبيس المتوجه إلى قونية.

كلمات قليلة تبادلتها مع هذا السائق. هو كغيره لا يجيد لغة يمكن أن نتواصل بها معًا. إلا أنه على الأقل يبتسم عندما أوجه إليه سؤالًا لا يفهمه. جميل؛ فالابتسامة ترد لي بعض حقي.

إلى موقف الأوتوبيس، السائق يتوقف ويسأل. ثم يعود ويتحرك. ثم يسأل، وهكذا إلى أن استلمني منه شاب وسيم الطلعة يرتدي معطفًا صوفيًّا وربطة عنق حمراء. حمل حقائبي وركض أمامي خارج محطة الأوتوبيس. وأنا ألحق به وأحاول أن أستفهم منه عن الأمر. يأتي الرد بكلمتين اثنتين لا ثالث لهما: «قونية.. باص». لا أحصل على غيرهما منه. بين الحين والآخر يتوقف ويضع الحقائب على الأرض. يُجري مكالمة سريعة ومتوترة بهاتفه المحمول، ثم يعود ليحمل حقيبتي ويركض. وأنا أتبعه.

بعد مسافة من الركض على حدود موقف الباصات. أشار الشاب إلى سيارة تاكسي. ومن دون أن يُمهلني لحظة، وضع حقيبتي بالخلف وركب في المقعد المجاور للسائق. أشار لي أن أركب. لم يكن أمامي سوى إلقاء نفسي داخل السيارة التي سرعان ما انطلقت. حاولت أن أستفهم من الشاب أو السائق عن الأمر. استخدمت كل تشكيلات العبارات من اللغات التي أجيدها. في كل مرة، كان الشاب يجيبني ضاحكًا: «قورمنجي». ولا أفهم.

قورمنجي، قورمنجي، فليكن. قررت الاسترخاء، وتركته يجري مكالماته الهاتفية، والتاكسي ينهب الطريق نهبًا. لم يطل الوضع، فسرعان ما توقف التاكسي على يمين الطريق خلف

اوتوبيس كبير. نزل القورمنجي الطيب وحمل حقيبتي، فسلمها لموظفي الباص المتوجه إلى قونية والذي غادرَ المحطة منذ فترة. رفع الشاب يده بعلامة الانتصار والبسمة لا تفارق وجهه. هذه فهمتها. رددت له علامة الانتصار بمثيلتها، وأضفت له بيدي علامات أسأله بها: كم من النقود تريد لقاء خدماتك وجهدك؟ وكم أدفع لسائق التاكسي؟ فقال لي بالإنجليزية للمرة الأولى مشيرًا إلى الأوتوبيس: It's included. إنه نداء مولانا جلال الدين الرومي لي إذن لأحضر إلى رحابه. وعلى الجميع تسهيل مهمة من أصابه النداء.

كنا حوالي الواحدة بعد الظهر بتوقيت إستنبول. ألقيتُ نفسي على مقعد في مؤخرة الأوتوبيس الدافئ، وعلقت عينيَّ على الطريق.

(٨)

تسلل ضوء الصباح من ثنايا ستائر الشباك. احترت بين النوم طلبًا للراحة والنزول إلى جولة مبكرة في المدينة. قررت الخوض في عالم جلال الدين المثير. النوم مقدور عليه. يمكن تأجيله. وأظنه لن يكون سهلًا إلا بعد أن أرضي فضولي تجاه ما يحدث معي.

عالجتُ مشاعرَ الغضب التي تسربت إلى نفسي تجاه جلال الدين بسبب مصير كيميا؛ فكّرت: هي، حتى الآن، مجرد شخصية روائية، تعلقتُ بها لأن البريطانية موريل مفروي صَوَّرتها في عذوبة نجح في الاحتفاظ بها الشاعر والمترجم محمد عيد إبراهيم. لا بد أن الأمر كان مختلفًا. لا يمكن لجلال الدين الرومي أن يكون بهذه القسوة. تعاطفت معها كذلك لأنها لم تكن قط شخصية محورية في كل ما قرأتُ عن مولانا من كتب. كثيرون لم يأتوا على ذكرها من الأساس. ثم جاءت مفروي لتضعها في بؤرة الحدث، وتصورها وكأنها ماتت عشقًا في شمس التبريزي. يا له من مصير لطفلة لم تكمل عامها الثاني عشر؛ تهيم عشقًا بشيخ جاوز الستين! مفروي عين استشراقية أعمتها شمس الرومي الساطعة.

لا أذكر تفاصيل نزولي من الغرفة. بآلية شديدة كررت خطوات الليلة الماضية. فتحت بابَ إحدى سيارات الأجرة المتوقفة على مقربة من الفندق. وضعت نفسي على الكنبة الخلفية وأغلقت الباب.

قلت لصورة السائق وهي تطالعني بفضول في مرآة الصالون: Mivlana if you please. عَطَّشتُ حرف الـ«v» بطريقة أثارت سخريتي الشخصية. ولا شك في أن السائق وجدها كذلك؛ إذ لمحته يقاوم ضحكةً تسرب خيالُها إلى طرف فمه واهتز لها طرفا شاربه الكثيف. لم يكن في حاجة لمراجعتي فكل الأمور هنا تدور حول كعبة «ميفلانا»، جلال الدين الرومي. أظنك لو ركبت سيارة أجرة ولم تنطق بكلمة لقادك السائق من دون كلمة أيضًا إلى هناك.

لم أنتبه للطريق ولا للوقت ولا لمعالم المدينة التي عادة تشغلني. توقفت السيارة. نظرتُ خارجها فاستقبلتني قِباب المُتحف بتكوراتها الحميمة التي يُبرز حضورَها ارتفاعُ مآذن المتحف نفسه والمسجد المقابل له. نقدت السائق الأجرة نفسها التي طلبها سائق الليلة السابقة وغادرت قبل أن أعرف إن كانت بالزيادة أم بالنقصان. كنت أحاول تركيز النتيجة التي بلغها عقلي حول الأمر: كيميا مجرد شخصية روائية فلا تجعلها تفسد عليك رحلتك.

مررت ببوابة المتحف وسط حشود من البشر متعددي الأشكال والألوان. ظننت أن حضوري المبكر سوف يعفيني من الزحام. خاب ظني عندما وجدت ساحة المتحف تحولت إلى مراكز تصوير؛ كاميرات ومذيعين ومذيعات من كل تلفزيونات العالم ولغاته تموضعوا في أرجاء المكان. وانطلق المعدون يصطادون من الزوار من يتوسمون فيهم معرفة إحدى اللغات التي يبثون بها. تملصت بصعوبة من أحد هؤلاء، ظن لسبب لا أعرفه أنني أتحدث الفرنسية، وتنازل خائبَ الرجاء عندما قلت له إن معرفتي بالفرنسية لا تتعدى عدة عبارات قصيرة. طلب أن أشارك بعدة

جمل بالإنجليزية عن سبب زيارتي لقونية ولمقام جلال الدين الرومي. جاوبته بالإنجليزية متخابثًا: أتحدث العربية بطلاقة، فاعتذر لأن القناة ليس لديها مترجمون من العربية. ارتحت لذلك وعدت لمراقبة البشر؛ أحب هذا التنوع. في حضرة مولانا رأيت أقوامًا لم أرهم من قبل. كأنهم خرجوا للتو من حكايات ألف ليلة وليلة؛ برانس ملونة بخطوط طولية على سراويل فاقعة الألوان، وأحذية تشبه حذاء جحا بمقدمته المستدقة المقلوبة لأعلى، وأغطية رأس تشبه الطراطير. بعضهم يسيرون في مجموعات، يشبهون الفرق الكرنفالية التي نشاهدها في المولات الحديثة تقدم عروضًا لتسلية الجمهور وجذب الأطفال. لكنهم هنا بشر حقيقيون. أعني ليسوا ممثلين. جاءوا خصيصًا، لا أعلم من أي أرض؛ لزيارة الرومي. راقبت أغرب مجموعة منهم إلى آخر لحظة. أنهوا جولتهم الهادئة في أرجاء المكان، ثم قصدوا مقام مولانا. خلعوا أحذيتهم ووضعوها بهدوء العارف أمام البوابة ودلفوا إلى الداخل. كنت كمن يتابع فيلمًا على شاشة عرض ضخمة. عندما اختفت أذيال عباءاتهم في عمق المشهد، رفعت رأسي لأعلى فتعلقت عيناي بكلمات اللوحة الضخمة المثبتة فوق الباب «يا حضرت مولانا». انزلقتُ بعيني قليلًا إلى الأسفل لأقرأ أبيات الرومي الشهيرة: «يا من تبحث عن مرقدنا بعد شدِّ الرحال، قبرُنا يا هذا في صدور العارفين من الرجال». هل جئتُ باحثًا عن مرقدك يا جلال الدين؟

خطوات قليلة وكنت في المكان نفسه الذي مروا منه. خلعت حذائي. وعندما أردت أن أفعل مثلما فعلوا، قفز أمامي عامل

الأمانات بزيه الغريب. ناولته الحذاء فأعطاني رقمًا على قطعة معدن صفراء. سلمت جسدي لفيضان الداخلين. استلمني صوتُ الناي فانفتح على روحي بحر من التساؤلات: هل يختلف المكان والزمان كثيرًا على عتبات جلال الدين الرومي؟ هل تختلف درجات الضوء والظل؟ هل تختلف الأصوات والنظرات؟ هل للأمر علاقة بهذا الراقد وسط مريديه وأحبابه، سواء الراقدون منهم بجواره أو الواقفون على عتبته داعين أو باكين؟ هل هو صوت الناي الذي يصدح معبئًا أرجاء المكان، مستدعيًا الحزن وملقيًا السكينة والخشوع، وربما الرهبة، في نفوس الزائرين؟

المكان والزمان شريكان لا غنى لأحدهما عن الآخر. كلاهما فاعل وكلاهما مفعول به. نظلم الزمان إن قلنا إنه مضى أو رحل. الزمان لا يرحل. إنما يقيم في المكان. فقط يتوارى بحجاب. ومن يمتلك الموهبة يستعِده، فيتجلى له رؤى وخيالات وأصواتًا وظلالًا.

أمام ضريحه، تلاحقت في ذهني التساؤلات. مَنْ هنا الميت ومَنِ الحي؟ صاحب الصوت الذي ظل صداحًا على مر القرون، أم طلاب السكينة ممن جاءوه يستجيرون بظل صوته؟

مَنْ هنا الميت ومَنِ الحي؟ من أطلق الحمائم البيض من أقفاص أجسادها لتحلّق على صدى رجفات قلوبها دائرةً على محور حنين خفي إلى الانفلات من الأسر، أم من يتلظون شوقًا إلى مجرد انفراجة يمر من خلالها بصيصُ نورٍ يضيء ولو قليلًا عتمةَ القلب والروح؟ من اخترق الزمانَ والمكانَ بزمانٍ ومكانٍ

صنعهما بنفسه، بجنونه، وصاغ جنونَه شعرًا مسّ قلوبَ القاصي والداني، أم هؤلاء الحائرون الذين يغص بهم المزار؟

«يا مفتح الأبواب، يا مسبب الأسباب» نقشٌ بحروف عربية على الجدران. كم شهدت هذه القاعة من خفقات قلوب ورعشات حناجر؟ كم ذابت هنا أفئدة وتاهت عقول واهتدت أرواح؟

«قدسنا الله بأسراره، يا حضرت سلطان ولد، ياحضرت مولانا، يا حضرت سلطان العلماء، بحر بهاء الدين ولد»... النقوش والكتابات والإضاءة الناعمة وصوت الناي ودهشتي.

انزويت في ركن صغير بين جدارين. إلى يميني صندوق بواجهات زجاجية يعرض آلات موسيقية؛ عشرة نايات، دف بصاجات نحاسية، كمان، وعود، وربابات، وآلات وترية لا أعرف لها أسماء. إلى يساري صندوق يعرض أدوات أخرى نحاسية. في المواجهة غطاء للرأس ضخم مكتوب عليه «الله»، كان مولانا يرتديه عند أداء رقصته.

تسلل صوت الناي عبر أذني إلى قلبي. انسحب ضجيج الزوار تدريجيًّا إلى خلفية المشهد. أحسست بدبيب أقدامهم وهم يتجولون حولي، راح يتوافق ويتناغم مع سحبات الناي الحزين إلى أن اتفق وتناغم. همسات السيدات اللائي كن يثرثرن بلغات عديدة بينما يتطلعن إلى جدران المكان ومعروضاته لم تعد نشازًا؛ إنما امتدادات لصوت الناي المنسكب في المكان.

خطر لي أن تلك النغمات الشجية التي ينفثها الناي تستعين بالهواء نفسه الذي يتنفسه البشر، تعيد صياغته بما يعبّر عنهم جميعًا، ليقول عنهم ما لا يستطيعون قوله. هؤلاء السيدات اللائي يبكين

بهدوء الآن، هؤلاء الشيوخ الذين اخضلَّت لحاهم البيضاء بدموعهم منزوين في زوايا المكان، إنما يفعلون ذلك لأنهم يستمعون إلى شكاياتهم الحقيقية يبوح بها الناي.

تتشابه الوجوه عندما تحزن. الحزن لغة مشتركة بين البشر. ليس على المرء أن يجتهد لكي يخبرك أنه حزين، حتى وإن اختلفت اللغات وباعدت بينكما المسافات.

على إيقاعات الناي وتمتمات البشر، غالبني النعاس. تُرى كم واحدًا في هؤلاء اطَّلع على المثنوي؟ كم واحدًا منهم قرأ مقالات شمس؟ كم واحدًا يعرف أصل الحكاية؟ كم واحدًا يفكر في كيميا؟ كم واحدًا فيهم يقدّر كم عانت؟ كم واحدًا فيهم يعرف شيئًا عن كيميا من الأساس؟

(٩)

ارتفع ثُغاءُ العنزة الصغيرة وهي تركض خلف أمها. كلما التقمت ضَرعها المكتنز تفلتت الأم وخطت إلى الأمام. تكررت اللعبة حتى مَلَّت الصغيرة ووقفت بلا حراك. رفعت صوتها بثغاء يجمع بين التوسل والاستغاثة.

بمن تستغيثين أيتها الصغيرة إذا كانت أمك من يقسو عليكِ؟

احترتُ، ماذا أفعل؟ لو أوقفتُ هذه الأمَّ القاسية وربطتُها ثم حملت الصغيرة إليها، فهل ينجح الأمر؟ كيف لي بفعل ذلك وأنا الجاهل بهذا العالم؟

ثغاء العنزة يشبه بكاء طفل رضيع يرتجف له القلب. مددت الخطو تجاهها فوجدت بيني وبينها حاجزًا لا يسمح بالعبور. ليس لي سوى المشاهدة.

«آه، يا بنت، يا بنت»، ناديتُ بصوت مرتفع عندما لمحت تلك الطفلة الصغيرة جالسة قرب صخرة في زاوية المكان. لم تتحرك البنت ولم يبدُ عليها أنها سمعت. «يا بنت، هذه العنزة الصغيرة جائعة، وأمها غاضبة لسبب لا أعرفه».

تقافزت العنزة الصغيرة ثم ركضت متعثرةً صوب الأم التي ابتعدت عنها مسافة كبيرة. تخطو الصغيرة خطوات حذرة. وما إن تقترب من الأم، حتى تدور الأخيرة مبتعدة، مُعيدة المسافة إلى

سابق عهدها. تجمدت البائسة مكانها كأنما أصابتها الصدمةُ من تكرار رد فعل الأم.

«يا بنت»، رفعتُ صوتي إلى أقصى ما تحتمل أحبالي الصوتية. لم يهتز للبنت جفن. كانت كالذاهلة بعينين واسعتين لهما لون العشب المحيط بالمكان. جسدها ضئيل وجميل. بياضها، الذي سبغته الشمس بحمرة تخالطها سمرة، يبدو منيرًا، لولا مسحة شحوب خفيفة تكسو الوجه اللوزي الوسيم.

«يا بنت»، ناديتُ. التفتتْ صوبي. عيناها في عينيَّ. تراني بلا شك. «يا بنت»، لم ترد. «هذه العنزة صغيرة مثلك. جميلة مثلك. لكنها جائعة. والأم ترفض أن تطعمها». تحركت البنت، قفزتْ تمامًا كما تفعل العنزة. قلتُ: ستنتبه الآن إلى المسكينة.

انحنت البنت والتقطت حجرًا من الأرض. فَرَدَتْ قامتها وتفرستْ طويلًا في الفضاء المحيط. رفعت رأسها وقَلَّبت وجهها في السماء. زرقاء كانت. لكنها بدت كالمعدن اللامع. انعكست عليها أضواء من كل صوب. ألوان برتقالية وأخرى ذهبية وثالثة فضية. تتباعد وتتقاطع فتصنع مساحات متداخلة، عندما تمعن النظر فيها، يغشاك خوفٌ مُبهم. سماءٌ جميلة إلى حد الخوف. تفرَّست الطفلةُ فيها، ثم خطت خطوتين إلى الخلف فصارت قرب العنزة الصغيرة. لا بد أنها ستدرك مدى جوعها الآن. سوف تفهم من ثغائها المتواصل، لا شك.

«يا بنت». كَرَّرتُ النداء رغم يقيني بأنه لن يصل. ركعت الطفلة على ركبتيها. بدت أصغر حجمًا وأرقَّ بنيانًا. انسدل رداؤها الفضفاض بلونه النبيذي الغامق على نجيل الأرض حول جسدها

الصغير فبدت وردةً في برعمها. ماذا تفعلين؟ العنزة جائعة. قلتُ في حزن. خَطَّتْ بالحجر في يدها خطًّا على الأرض طوله ثلاثة أشبار، ثم قامت. كررت الفعل نفسه في محيط المكان. كانت ترسم الخط وتقوم تتقافز في فرح. تختار مكانًا آخر وترسم خطًّا جديدًا. بعد قليل، بدا أنها اكتفت. أو أنها تعبت. أو ربما أنهت المخطط الذي أرادت تصميمه. تحركتْ بعيدًا. ركضتْ وراقبت الخطوط على الأرض.

قلت: تلعبُ البنتُ، والعنزةُ جائعة. راح المشهد يدور مع خُطى قدميها الدقيقتين، يدور الهواء، تدور الجبال الرمادية، تدور الأشجار الخضراء المزهرة، تدور التلال المكسوة بالعشب، تدور الأزهار الملونة. وحدها السماء ثابتة. توقفت الطفلة، فتوقف الكون. كان ظهرها لي. رأيت ضفيرتين كثيفتين ناعمتين تنسدلان على كتفيها الناحلتين كغديرين صغيرين. بدت الخطوطُ التي رسمتْها درَجًا صاعدًا إلى ما لا نهاية. يبدأ من موطئ قدميها الصغيرتين في خفيها القماشيين بلونهما الأصفر الزاهي، وينتهي حيث تتداخل أضواء السماء في الأفق.

«يا بنت»، صرختُ. «لا تتركي العنزة جائعة. لا تصعدي قبل أن تطمئني عليها. يا بنت». وضعت البنتُ قدمًا على أول خط. صعدت درجةً. التفتت بعينيها صوبي. في العينين شيء غريب. ابتسمتْ، هل رأتني؟ «يا بنت، العنزة». وضعتْ قدمَها الأخرى. عادت بوجهها صوب الدرج. جاورت القدمين بعضهما إلى بعض. «يا بنت، العنزة». نَكَّستْ رأسها ناظرة إلى موطئ القدمين. رأيتُ زهورًا صغيرة تنبت هناك، دقيقة التكوين ولها ألوان عجيبة.

ظلت البنت ثابتة حتى خِلْتُ أنها لن تتحرك ثانية. ربما تتحول إلى زهرة! ولكن، العنزة! «يا بنت». فَرَدَتِ البنت ذراعيها إلى جانبيها ورفعت وجهها إلى السماء. قفزتْ صاعدة عدَّة درجات أخرى قبل أن تلتفت إليَّ بعينين يملؤهما الفرح. خِلتها رأتني. لوّحتُ لها. أدارت وجهها وصعدت درجة إضافية. «يا بنتُ». قلتُ فاقدًا الأمل: «العنزة». التفتت البنت صوبي، وابتسمت. لوّحت لي. قلت لنفسي: رأتني. وصرختُ لها: «يا بنت، العنزة جائعة وأمها رفضتها». «ليست أمها يا عمُّ». جاءني صوتها عذبًا. وقبل أن أفيق من دهشتي، قالت: «لا لوم عليها؛ حليبُها لصغارها. ولا يجوع أحدٌ في بَلْخ». قلتُ: «والعنزة؟» قالت: «رزقي ورزقها هناك». وأشارت صوب منتهى الدرج الصاعد. قلت: «أحسنتِ». غمرتني بابتسامة رضا من عينين تعكسان خضرة العشب، وقالت: «يقولون عني مجنونة». «من يقول؟» «أبي يخشى أن لا يتزوجني أحد. وأمي تريد إرسالي إلى أخوالي في قونية لتضعني في الدير. لكن أبي لا يحب أن يقول الناسُ: وضع المسلم ابنته في دير. وأنا لم أفعل شيئًا يا عم، فقط أسأل». «عمَّ تسألين؟»، «أليس رزقي ورزق العنزة في السماء؟» لم تنتظر إجابة. ضحكت وأشارت في خفة. في لمح البصر، قفزت العنزةُ الصغيرةُ الدرجات حتى صارت قربها. دارت فَرِحةً كالراقصة حولها، ثم انطلقتا معًا إلى حيث يختفي الدرجُ الصاعد إلى قلب السماء.

أوشكتا على الاختفاء. كنت مرتاحًا لهذا القرار؛ حليب الأم لأبنائها. والرزق في السماء. ولا أعرف عن بَلْخ إلا ما قالته البنتُ.

مِن أقصى يسار المشهد، انبثقت نقطة سوداء. رأيتها تقترب

صوبي وتكبر. راقبتها حتى انقلبت حيوانًا يركض. خلته نَمِرًا. قلت: ربما يكون فهدًا! لونه الأسود أوحى بذلك. اقترب الحيوان. لم يكن نمرًا. لم يكن فهدًا. كان كفًّا سوداء تركض مهتاجة. تنثني فتصير قبضة. وتنفرد فتصير حدًّا. انتزعت القبضةُ حزمةً من عشب الأرض. عرَّتها فبدت التربة سوداء قاحلة. قبضت الكفُّ العشبَ وراحت تتعقب الدرجات التي رسمتها الطفلة. تمسحها درجة درجة في غضب ورعونة. أصابني الفزع؛ هل يهوي السلم الآن؟ وما مصير الطفلة والعنزة؟ مسحت الكفُّ درجةً وراء درجة. وقلبي مُعتَصَرٌ وليس بيدي حيلة.

من حيث لا أدري، انقضت كف قوية. هبطت من علٍ كأنها ابنة الفضاء. كفٌّ فتية عفية بيضاء، اعتصرت الكفَّ السوداء. تصارعتا معًا. رأيتهما تتقلبان على المرج الواسع. وحولهما تتقلب ظلال أضواء السماء. قوتان متقاربتان. لا أظن أن النصر سيكون حليفَ إحداهما. راهنتُ على الوقت. الوقت. الوقت فقط كفيل بأن يسمح للطفلة والعنزة بالوصول إلى الأمان.

أسمع ثغاء العنزة ممتزجًا بضحكات الطفلة يأتي من بعيد، كأنه صوت نبع صغير يتدفق بين الصخور. كلما ابتعد الصوت، ارتحت واطمأن قلبي.

احتدم الصراع بين الكفين. نجحت السوداء في التملص واختفت. راحت الأخرى تراقب المكان. بعد قليل، ظهرت الكف السوداء هناك أعلى الدرج. مسحت درجة وصعدت ملهوفة للتالية. قفزت الكف القوية وأمسكت بها. أسقطتْها إلى الأرض. تصارعتا من جديد. اختفت السوداء مرة أخرى كأنما كانت ظلًّا قتلته

الشمس. تلعب لعبة مخاتلة؛ تنتهز الفرصة لتضرب ضربتها وتطير. من مكاني كنت أراها قبل أن تنتبه إليها الكف البيضاء. صرت أصرخ: هناك على اليسار. انتبهي..إنها متعلقة بالدرج. سريعًا وإلا مسحته. خلفكِ مباشرة. حاذري! انخفضي.

ارتفعَ ثغاء العنزة وجاء صوت البنت كأنما يتنزل من السماء: «ارحل يا علاء الدين... وصلتُ الآن». اختفت الكف السوداء ولم يعد لها أثر. ركضت الكف البيضاء على الدرج إلى أن غابت. قلتُ: تلتقي بالطفلة. لكني لمحتها تتدحرج على الدرجات. تكبر كلما اقتربت إلى أن استوت فتًي شديدَ البهاء. وقف أمامي. بيني وبينه حاجزٌ. عيناه حزينتان وكفّه جريحة وشفتاه ترددان: كيميا.

(١٠)

انتبهتُ على ألم مباغت يضرب أصابع قدمي. لابدّ أن أحدهم دعسها خلال إغفاءتي القصيرة. فتحت عينيَّ فلم أجد أحدًا. كان صوت الناي مستمرًّا في شحن الفراغ. تقطعه تمتمات وهمهمات بشرية تعلو كطنين النحل. يطفو على سطحها نشيجُ امرأة كان ظلُّها الملقى خلفها أولَ ما لمحته عيناي في الركن المقابل؛ تجلس مباشرة في منتصف رقعة الضوء المنسابة من النافذة العالية قرب السقف. تعبرها الإضاءةُ وتعكس صورتَها على الأرض .. أنثى بلا ملامح محددة. راقبتُ العابرين وهم يدخلون بأقدامهم إلى ظلها الممتد طويلًا خلفها، يدهسونه بلا هوادة في طريقهم إلى الضريح الأخضر المكسو بالذهب والمخمل.

للمرة الأولى أجدني غير منشغل بتدوين الحلم. يقيني يزداد بأن وراء هذه الأحلام ما وراءها. «لن أنساه».. قلت لنفسي. وقمت منتويًا الخروج. ألقيت نظرة سريعة على مقتنيات المتحف: رداء مولانا، أقدم نُسخ من أعماله «المثنوي» و«الديوان الكبير» و«فيه ما فيه»، وبعض مقتنيات أخرى لم أجد شغفًا للتدقيق فيها.

عند باب الضريح الخارجي لمحت ثريا زميلة الرحلة، تستعد لبدء جولتها. بصحبتها شيخٌ له لحية رمادية وحاجبان أسودان غليظان. يضع غطاء رأس لافتًا. ألقيت التحية عليهما. عرفت أنه مرشد

سياحي من العاملين بالمكان. تركي يجيد الفرنسية والفارسية ـ كمعظم المرشدين العاملين هنا. لكنه يتحدث ـ إضافة إلى ذلك ـ القليلَ من الإنجليزية.

مدفوعًا بمشاعري المختلطة من زيارة الضريح وببقايا الحلم العالقة بروحي، شرحت فكرتي لثريا. طلبت منها أن تنقلها للمترجم. قلت: خلال جولتي بالداخل الآن، إلى جوار قبر مولانا وابنه سلطان ولد، أحصيت عشرات المقابر لأفراد أسرته ولوالده، بينهم نساء. ومقابر أخرى لخلفائه وبعض المريدين المقربين: جلال الدين شلبي، حسام الدين جلبي، وصلاح الدين زركوبي، وكريم الدين، مظفر الدين أمير عالم شلبي، كيرّا خاتون... عمامات كبيرة بيضاء وخضراء بنقوش أخاذة، ولوحات تكريم وتعظيم، أين قبر كيميا؟

أشعلتْ إجابةُ الرجل غيظي وأزكتْ نارَ تعاطفي مع الفتاة المسكينة رغم مئات السنوات التي تفصل بيني وبينها. كانت برودة كلماته قوية إلى حد لم تفلح معه الترجمة في تخفيفها. في البداية سألني بإنجليزية ذات لكنة بعد أن رمقني بعينين عقد فوقهما حاجبيه الغليظين فجحظتا: من أين لك بمعرفة كيميا؟ استبشرتُ خيرًا رغم انقلاب سحنته؛ فالسؤال يشي بمعرفة بالفتاة. قلت: قرأتُ عنها. فتحول بعينيه إلى ثريا وخاطبها بالفرنسية. استأتُ من لغة جسد الرجل وإشاراته التي بدت لي مستهينة. توقعت السوء من بعض كلمات فرنسية فهمتها. لكنني تشبثت بالأمل إلى أن نقلت مضيفتُنا المعنى بالعربية. سمعت منها الكلمات وعيناي على الرجل الذي كانت عيناه تلمعان بصورة غريبة. تقول كلماته: «لا أحد يعرف

مكانًا لقبرها.. ربما تكون مدفونة هنا أو هناك ضمن القبور المتناثرة خارج البناء.. أو ربما لا.. لم تكن ذات قيمة أو أثر حتى تكون جوار مولانا». ألححت على ثريا أن تسأله عن سر دهشته من سؤالي عن كيميا. سألتْه ونقلتْ معنى الإجابة: «لأنه على طول فترة عمله في الترجمة لزوار مولانا، لم يسأله أحد عنها، وكان يظن أن لا أحد يعرفها أو يهتم بأمرها».

استخدمت إنجليزيتي وسألتُه بغضب اجتهدت في ضبطه: وماذا تعرف أنت عنها؟ فتمتم بالفرنسية جملًا سمعت خلالها اسم «شافاق». ثم قال وهو يتململ في مكانه وعيناه تراقبان مدخل الضريح: «قصصٌ متضاربة». وبعد وقفة صمت قصيرة أضاف: «معظمها ملفق.. لم تكن شيئًا يُذكر». نقلت ثريا الجملتين وأوضحت أنه يلقي اللوم على كُتّاب الروايات الذين لا يفقهون. ثم قالت إنه يطلب منها أن تعتذر لي؛ لأنه يعتبر نفسه في عمل الآن. لم أصافحه متعمدًا. تمنيت لها جولة ممتعة وأخبرتها برغبة نوري في أن نلتقط صورة جماعية أمام الضريح. قلت لها إنني سوف أنسق مع الزميل الثالث ثم أخبرها. عرضتْ أن أصحبهما في الجولة فأجبتها وأنا أرمق المترجم بغيظ: اكتفيت من الرومي اليوم. أفضّل النوم. لم أنم جيدًا منذ وصلت.

استدرت لأغادر. لمحت سيدة تستوقفها قبل خطوة من الباب. قدمتْ لها غطاءً للرأس وكسوة بلاستيكية للحذاء. تناولتهما ثم استدارت. ولما وجدَتني واقفًا قالت: تعرف! إنك أيقظت قلقي تجاه وضع المرأة في المولوية. تقدمت نحوي خطوتين متجاهلة

صبرَ المترجم النافد وأضافت بفضول: هل كانت النساء ترقص أيضًا، أم أن المرأة غابت تمامًا عن هذه الطريقة؟

راقبتُ المترجم بتشفٍّ وفكرت للحظات أن أطيل الحوار لإغاظته، لكنني استشعرت الخجل فقلت: يمكننا أن نناقش هذا لاحقًا، وذكرت لها في عجالة، قبل أن أتركها لجولتها، ما قرأته عن أن الرومي كان في ليالي الجُمع يذهب إلى قصر مسئول الاستيفاء لدى السلطنة السلجوقية ـ بدعوة من زوجة المسئول ـ ليتحدث إلى النساء في مجلسها، ثم يؤدي معهن السماع، وقلت لها إن أفلاكي ذكر في كتابه أن هذه السيدة كانت تضع الورود على رأس مولانا.

انتبهتُ إلى كوني حافي القدمين. أعدتُ الرقمَ المعدني لحارس الأحذية فناولني حذائي. ارتديته بينما تيار من التساؤلات يموج في عقلي؛ كيف لشاعر حقيقي وصوفي عاشق أن يقدم طفلة قربانًا لاستمرار علاقته بمحبوبه؟ وكيف اختفت كيميا هكذا وكأنها لم تكن؟ لماذا لم يتأسف الرومي في أشعاره على موت قربانه الرقيق؟ لماذا عاشت نكرة وماتت مجهولة القبر، وهي الموهوبة التي تبناها وتربّت تحت سقف بيته لتتلقى العلم على يديه؟ لماذا أهداها لشمس رغم علمه بالحب الذي جمعها بابنه علاء الدين ورغبة الأخير في التزوج بها؟ لماذا لم يزوج الرومي شمسًا بابنته الحقيقية «مليكة خاتون» طالما يحبه هذا الحب الكبير؟ ما موقف والدي كيميا من تحويل ابنتهما إلى هِبَة لرجل يكبرها بأكثر من ثمانية وأربعين عامًا؟ صحيح يا ثريا: ما وضع المرأة في عقيدة العاشق الأكبر؟

استوقفني تجمّعٌ للناس أمام نافورة المياه في الساحة الخارجية للمتحف. قرأت عنها من قبل. فسقية «الشاذروان» بناها السلطان سليم. واحدة من ضمن معالم كثيرة كنت أتشوق لرؤيتها والتعرف عليها والكتابة عنها. ولكن لا شيء يشغلني الآن سوى كيميا.

تذكرت إشارة المترجم المستهينة إلى المقابر خارج البناء. درتُ حول المكان. وصلت إلى باب «هاموشان» أو الشفة المغلقة، الذي يُفتح على مقبرة «أوتشلير». شواهد كثيرة لقبور متناثرة. خطوت تجاهها مؤملًا النفس بالعثور على قبر كيميا.

(١١)

في الحديقة الخلفية لمقام جلال الدين الرومي لا توجد زهور؛ فقط مقابر. رغم أن هذا المكان كان حديقة ورد تابعة لقصر السلاجقة أهداها السلطان علاء الدين كيقباد إلى والد جلال الدين؛ سلطان العارفين بهاء الدين ولد، الذي كان أول المدفونين في هذه الأرض.

تتناثر شواهد القبور في كل مكان. أحجار منحوتة ببراعة تحمل كتابات مختلفة. بينما أدقق النظر في الكلمات، تذكرت مُعتَقدًا شعبيًّا طالما خوفونا به ونحن صغار: من يقرأ أسماء الموتى على المقابر تضعف ذاكرته ويصيبه البله. تشابهت الزخارف وتعقدت. استخدمت الكاميرا وصورت كل كتابة وجدتها. هل تكون كيميا بين هؤلاء؟ لو كانت هنا، هل يخفف ذلك بعضَ غضبي وحنقي على مولانا؟ ضعت أكثر من مرة واضطررت إلى إعادة الجولة. فكرت أن أضع علامة على كل شاهدة أنتهي من تدقيقها وتصوير كتابتها. خفت أن أثير شك المحيطين وريبتهم، فعدلتُ عن ذلك رغم ندرة الزوار هنا؛ فالكل منشغل بساكن المقام وآله، ولا يخطر على بال كثيرين المرور بهؤلاء المجهولين المتناثرين خارج أسوار ضريحه. منهم من دُفن تنفيذًا لوصية أوصاها. ومنهم من كان مجرد إشارة ورمز كضريح الشاعر الباكستاني محمد إقبال الذي أقامته بلدية قونية تكريمًا لجهوده في التعريف بالرومي. اتخذ

إقبالُ من الرومي هاديًا ومرشدًا، واستلهم أسلوبه في الكتابة. نظم أشعاره على وزن المثنوي: «لقد حَوَّل الرومي طيني إلى جوهر، ومن غباري شيّد كونًا آخر»، وقفت أمام قبره الرمزي طويلًا كأنما أسأله: أنت أيها الشاعر الكبير حين جعلت من الرومي إمامًا لك في نظم الشّعر وفي «نقد أهل الصورة من علماء الكلام أو الفلسفة أو الفقه، الذين لا يهتمون من العلم سوى بقشوره تاركين اللباب ومتغافلين عن الإنسان المقصود بهذه العلوم والأفكار كافة»، ألم تدرك وأنت تصوغ كلمات كهذه أن إمامك قَدَّم لمرشده الروحي قربانًا بشريًّا اسمه كيميا؟ هنيئًا لك بلقب «رومي هذا العصر»، اهنأ بشاهد ضريحك التكريمي بينما القربان البشري لا قبر له ولا شاهدة تدل عليه.

تصورت قبر كيميا رقيقًا. تخيلت شاهِدَتَه من زجاج أو رخام يضاهي البِلَّلوْر شفافية. تسري بين حبيباته عروق وردية.لا شيء يشبه ذلك هنا؛ رخام أبيض ورمادي وصُفرة عتيقة تكسو الأشياء كلها. عمائم صخرية غليظة ورفيعة. بعض المقابر حظيت برعاية خاصة. وُضِعت داخل غُرف شاهقة البناء لها أبواب وعتبات مرتفعة وقباب مصنوعة بعناية وإن كانت مظلمة وفقيرة من الداخل. هل يمكن أن تكون كيميا في واحدة منها؟ سوف يخفف هذا كثيرًا من غضبي يا مولانا. درت بين الأضرحة كالمكوك. أخرج من واحدة لأدخل أخرى. أدقق الأسماء وألتقط صورًا.. بعض الغرف يحمل لوحة صغيرة برقم ونقش. ألتقط صورة لها وأدون ملاحظات. بعضها يحمل لافتة بها الاسم والتعريف وتفاصيل أخرى: خانوم وأفندي وبك وباشا وحاج. انفرد أحد

الأضرحة بباب مُقفَل، دفعته بهدوء فتحرك تحت يدي، له قفل مكسور وقديم، تكفيه دفعة واحدة صغيرة لينفتح. ولكن حال خوفي دون الإقدام على مثل هذا الفعل.

تراكمت الصور في ذاكرة الكاميرا وتزاحمت الأسماء والأشكال في ذاكرتي. شواهد أسطونية وأخرى مكعبة. بعضها ينتهي بعمامة غليظة والبعض بقلنسوة منقوشة.لا يوجد قبر على شكل فراشة. سلامٌ عليكِ أينما رقد جسدك الهش يا كيميا.

تعبت قدماي وأعلنتْ بطارية الكاميرا أنها لن تصمد أكثر من دقائق أخرى. توقفتُ قليلًا لأحدد مكاني. توجهت صوب بوابة الخروج. مررت في طريقي بشباك يطل على غرفة المقام. من بين أعمدة الشباك الحديدية، رأيت بوضوح التابوتَ الرخامي المنحني في عطفٍ على قبر مولانا والمقربين منه عاكسًا بلمعانه الأضواء الناعسة التي تُغرق المكان في سكينة يدعمها الحرير الأخضر والذهب الأصفر المضيء. قرأت من قبل أنه صُنع بأمر سليمان العظيم. استطعت التدقيق بلا حرج في اللحاف الموشّى بخيوط الذهب الذي يغطي تابوت الرومي. كلها هدايا سلاطين وملوك. وصلني صوت الناي في واحدة من سحباته الشجية. تنعمون بالدفء والموسيقى! ألا تشوش ذكرى كيميا عليكم راحتكم كما تشوش عليَّ إعجابي بهذا الشاعر المجنون؟ تمتصه وتدس مكانه كراهية أشعر بها تنمو بين جوانحي. أقاومها قدر طاقتي عساني أكتشف بين الصور قبرًا للروح المغدورة.

(١٢)

يجاور مسجدُ السليمية متحفَ مولانا من جهة بوابة الدراويش. مبنى جميل على الطراز العثماني القديم. له قبة أسطوانية الشكل مغطاة بالبلاط الأخضر. عاينته سريعًا مساء أمس. وراقبت مندهشًا، أمام إيوانه الخارجي المسقوف، امرأةً تكنس الأرض بمقشة من الزعف الجاف. مُسنّة وممتلئة الجسم، ظهرها منحنٍ بشكل لافت. تربط وسطها بحزام أخضر له لون ضريح مولانا. لا يبدو من ثيابها أنها عاملة نظافة. حدستُ أن المرأة هنا وفاءً لنذر عقدتِ العزم على أدائه إذا تحقق لها مرادُها. تُرى هل هذا صحيح؟ وما طبيعة النذر الذي يضطر امرأة في مثل سنها للقيام بعمل بهذه المشقة؟ هل هو الخوف، أم الإيمان؟ عادةً يضيع الخيط الرفيع الفاصل بين الأمرين. لاحظت المرأةُ انشغالي بها. بمشقة فَرَدَت ظهرها المنحني. أوقفت الكنس ومنحتني ابتسامة عذبة من فم بلا أسنان وعينين مضيئتين رغم التجاعيد. اعتبرتها جوابًا لسؤالي. رددت ابتسامتها الطيبة واستشعرت في نفسي الخجل فمضيت. هل أجدها هناك اليوم تكنس الإيوان، أم أنها أوفت بنذرها ومضت؟

يممتُ صوب السليمية. لم أجد المرأة. قطعت الإيوان مرتين ولم أعثر لها على أثر. ارتفع صوت أذان العصر. دبت في المكان حركة نشيطة. رجال في ملابسهم التقليدية وفدوا من جهة السوق

المجاورة، لا بد أنهم من التجار أصحاب المحال والباعة، يمكن تصنيفهم من مستوى الثياب ومدى العناية بالشوارب واللحى. دخل معظمهم المسجدَ من بوابة ضخمة عتيقة. واستمر البعض في طريقه ليلتف مع نهاية البناء. ظهرتْ نسوة جئن كذلك من جهة السوق، توجهن نحو بوابة أخرى تُجاور البوابة التي دخل منها الرجال، لكنها مغطاة بكسوة قماشية خضراء مزركشة بنقوش ذهبية وبيضاء بدت غاية في القدم.

لحقتُ بالرجال الذين مروا أمامي ولم يدخلوا من بوابة المسجد؛ حدست أنهم في طريقهم للوضوء. توضأت وهرولت مع بعضهم فأدركنا الصلاة في ركعتها الثانية. كانت النساء تصلي خلفنا، يفصلهن عنا حاجز من خشب تغطيه ستائر قماشية خضراء. قصة اللون الأخضر تحتاج إلى دراسة. لا بد أن العثمانيين ابتكروها كما ابتكروا رمز الهلال ثم أضافوا إليه النجمة بعد ذلك. الأتراك، ركبوا ظهر الإسلام وغزوا العالم باسم الخلافة ولم يتنازلوا عن لغتهم ولو لصالح لغة القرآن، ولم يرتدوا الجلاليب القصيرة أو يحملوا السواك.

أطلت النظر إلى نقوش الحوائط الخشبية العتيقة التي زينت جدران المسجد. خلا المكان إلا من بعض نسوة عجائز افترشن المساحة أمام مدخل مصلى النساء. يبدو أنهن يستمتعن بقضاء الوقت هنا. غادر معظم الرجال وظلت مجموعة صغيرة. راقبتهم يستكملون طقوس تعبدهم، ثم تهيئوا للخروج وهم يتبادلون أحاديث ضاحكة. سرت في إثرهم حتى وصلنا السوق الكبيرة. أردت توطيد صلتي بالمدينة وناسها، والابتعادَ عن عالم جلال الدين

للتفكير في طريقة تساعدني على خدش تلك الطبقة التي أحسها تحول بيني وبين التواصل معه.

الغريب أن يحمل أول منتج تقع عيناي عليه في السوق اسم «كيميا». خشيت أن يكون الأمر استمرارًا لسلسلة الأحلام المريبة. دققت في الاسم؛ كيميا...نعم، كيميا. مكتوب بخط عربي لين كبير يشغل معظم مساحة صندوق من الورق المقوى. إلى جواره صورة لبعض حبات البلح الأسود. اقتربتُ ولم تغادرني الخشية بعد. مددت يدي. لمست الصندوق. انتبهت إلى عشرات الصناديق مثله رُصّعت بها واجهة المحل. كلها يحمل اسم كيميا. حملت أحدها. قلبته بين يديّ على وجوهه كافة. كلمات كثيرة بخطوط عربية لكنها لا تعطي معنى. كلمات وأرقام وتواريخ بحروف إنجليزية كُتبت بخط دقيق بالكاد تُمكن قراءته. ها هي أخيرًا كلمة عربية شكلًا ومعنى: منتج إيراني.

كيف لم أنتبه إلى ذلك من قبل؟ مولانا فارسي الأصل والمولد. من مدينة بَلخ التي تقع حاليًّا على حدود أفغانستان. انتقل مع أبيه إلى قونية بدعوة من السلطان علاء الدين. جاء أبوه هربًا من اجتياح التتار لأراضيهم. ويقال بسبب عداوة نشأت بينه وبين فخر الدين الرازي الذي اختلف معه فكريًّا. كيميا كذلك من المدينة ذاتها في أفغانستان؛ هل أرادتْ أن تنبهني إلى ذلك في الحلم: ولا يجوع أحد في بلخ؟

بعد رحيل سلطان العلماء من بلخ يهاجمها التتار ويقتلون أهلها ويحرقون حضارتها. العجيب أن يرى «سلطان ولد»، ابن جلال الدين الرومي، في الأمر انتقامًا إلهيًّا كما يصفه في كتابه «ابتدانامة» الذي

سجل فيه حياة والده ومسيرته! والأعجب أن يرى الرومي في الأمر تدخلًا مباشرًا من الله بنفسه لإنقاذ نسلهم المبارك!

لجأت إلى صديقي الروائي والمترجم الإيراني أحمد حيدري، من أهل الجنوب. يجيد العربية والفارسية ويترجم بينهما. التقينا مرتين. الأولى في الجزائر، والأخرى في قرية «البدية» الأثرية غربي إمارة الفجيرة بالإمارات؛ كنا نزور أرض (داد) التي يظن الشاعر محمد أحمد السويدي أنها المكان الذي كتب عنه طرفة بن العبد في معلقته يقول: كأن حدوج المالكية غدوة/ خلايا سفين بالنواصف من دَدِ. وبين اللقاءين جرت مياه صداقة ومودة كثيرة، أخرجت هاتفي. قفز إلى ذهني اسم شمس التبريزي كما قرأته في واحد من الكتب: «شمس الحق والدين محمد بن علي بن ملك داد تبريزي»، داد أيضًا؟ وفي المولوية درجة اسمها «ده ده ليك» Dedelik، وهي أعلى الدرجات أوالصفات التي يبلغها الدرويش.. ابتسمت لهذه المصادفات الغريبة.

ـ مساء الفل يا بوحميد.

أجاب ضاحكًا كعادته:

ـ هذا صوت وليد علاء الدين.. حتى لو أخفى التلفون الرقم.

تبادلنا المزاح حول أصوات الرجال الغليظة والناعمة، ثم قلت: خليني أدخل في الموضوع مباشرة..أكلمك من تركيا.. تحديدًا من قونية.

ـ آآآه.. أرض الرومي...جميل.

ـ لا مش جميل.. أحمد ما معنى كلمة كيميا بالفارسية؟

ضحك حيدري ضحكته الفخمة، ثم سألني مازحًا إن كنت قد قررت العمل في التجارة بين قونية وطهران؟ قبل أن يضيف مقلدًا لهجتي:

ـ إياك.. كده هتبقى بتبيع الميَّه في حارة السقايين.

لم أنجح في مبادلته المزاح هذه المرة. وهو، بلا شك، استشعر تغير نبرة صوتي فأجاب بجدية مترقِّبة: كيميا هي نفسها كيميا في اللغة العربية.. يعني كيمياء.

– ولكن العرب لا يسمون البنات كيميا يا أحمد!

قلتها بصورة قاطعة مستعجلًا الوصول إلى هدفي، وأضفت:

– هل يظل المعنى نفسه إذا كان اسم فتاة؟

أسهب حيدري في هذه المساحة. من اللطائف التي خرجتُ بها أن اسم كيميا منتشر بكثرة في إيران؛ يطلقه الأهل على بناتهم. ولكنه عند تحوله إلى اسم فتاة لا يعود يقصد مفهوم «الكيمياء» المتفق عليه كما بيّن في بداية الحديث؛ إنما يحمل ظلالَ معانٍ منها «النادرة» من الندرة، أو «القيّمة» بمعنى ذات القيمة العالية.

قال حيدري محاولًا تقريب الأمر إلى أقصى درجة: يمكنك أن تقول إن اسم كيميا في معناه الإجمالي في اللغة الفارسية يحيل إلى معدن الذهب.. وكأنك تسمي ابنتك «ذهب».. أظنكم تسمون «دهب» في مصر؟

طيب يا صديقي.. وتعرف إيه عن «كيميا»؟ قلت متجاهلًا سؤاله. ارتبك صوته على الطرف الآخر من الهاتف، وقال: تقريبًا أخبرتك بكل ما أعرفه. وعندما حددت له أنني أتحدث عن الفتاة

«كيميا» بنت مولانا جلال الدين الرومي. قال: آه.. تقصد كيميا خاتون! وأضاف ضاحكًا: مين اللي حطها في طريقك يا رااااجل؟

- قرأت عنها ومهتم بأمرها فعلًا يا أحمد.

قال ضاحكًا: أكيد «قواعد العشق الأربعون».

- الأهم منها «بنت مولانا» لأن كيميا فيها بطلة الرواية.

- أها.. لا أعرفها.

- هبعتهالك بعدين.. قل لي دلوقت: ما المتبقي من «كيميا» في الذاكرة الشعبية في إيران؟

رميت السؤال بفصحى مخففة درءًا لأي خلط. ظننت أنني سوف أسمع حكايات طويلة عن بنت مولانا؛ كيميا خاتون، كما أسماها حيدري. خططت بعد أن أستمعَ إلى حكاياته أن أطلب منه تدوينها وإرسالها لي في نص عبر الإيميل أستفيد منه في البحث عنها.

النتيجة المؤسفة هي ببساطة أن كيميا خاتون كما ردد حيدري بفصحى قابَل بها فصحاي: لا تمثل للناس في إيران شيئًا. قلت: سقطت كيميا من ثقوب ذاكرتهم تمامًا كما سقطت من ثقوب نصوص مولانا وعباءة شمس.

لم يشأ حيدري أن يتركني حزينًا. أخبرني قرب نهاية المكالمة عن باحث إيراني انشغل لفترة طويلة بالبحث والتنقيب عن قبر كيميا.

- يا الله! وهل وجده؟ صرخت متلهفًا.

- هو يحاول جاهدًا أن يعثر له على أثر.. لكنه لم يستدل على قبر لها حتى الآن.

- للأسف.. ولكن على الأقل يكون قد جمعَ بعض المعلومات عن ذلك.

سألته فقال:

- ليس الكثير.. لكنه يُرجع السبب في عدم وجود قبر لكيميا إلى أنها كانت يتيمة.. ويرى أنها.. لهذا السبب.. عوملت بشدة من قبل مولانا وشمس.

- إيه الكلام اللي يوجع القلب دا يا أحمد؟

- ليس كلامي يا صديقي والله. عمومًا.. أتحدّث من الذاكرة.. لو معنا وقت أرجع لك بمعلومات أدق.

سألته أن يفعل، ورجوته، وقد شعرت أنه انشغل مثلي بهذه الروح المعذبة، أن يهتم بالتنقيب عن أثر كيميا في الذاكرة الشعبية. وأضفت منكسرًا: ربما أنصفها الناس، وإن ظلمها المؤرخون.

أنهيت المكالمة مستاءً. انتبهت إلى صندوق التمر في يدي. طالعني اسمُ كيميا على عشرات الصناديق الباقية كأنه عشرات العيون والآذان التي تراقبني وتنصت إلى حديثي علّها تظفر بشيء عن صاحبتها.

أعدت الصندوق بين زملائه. ومضيت أستكمل جولتي في السوق. لا أعرف لماذا شعرت ببرعم أمل يتفتح بداخلي رغم الانطباع العام السيئ. ربما لمعرفتي أن هناك من يبحث عن قبر كيميا! ولو كان رجلًا وحيدًا لا مؤسسات خلفه ولا مراكز بحوث ولا حكومات كالتي تهتم بالرومي! ربما لثقتي في أن ذاكرة الناس لا بد أنها حفظت لكيميا شيئًا يليق!

ابتلعتني السوق بزحامها وأضوائها ووجوهها المتنوعة. وقررت أن أكرر تجربة اللحم المشوي اللذيذ. أعطيت القيادة لحاسة الشم ومضيت كالأعمى وسط زحام المكان، وكان عليَّ العودة إلى الفندق لكتابة المزيد من اليوميات.

عزيزي نوري

ذكّرني أن أحدثك ـ حين نلتقي ـ عن وجبة اللحم المشوي على الطريقة القونيوية العظيمة. أنصحك بها عندما تزور المدينة.

أرفق لك هنا جزءًا إضافيًا من رحلة السفر والوصول. حجزت تذكرة لحضور العرض الرسمي للمولوية في المركز الثقافي للمدينة. إنه أشبه بختام احتفالات الرومي السنوية. سوف أنام الآن ربما يحمل الصباح جديدًا.

مودتي/ وليد

في الطريق إلى مولانا (٤)

الصعب في السفر إلى قونية لم يكن طول الطريق فحسب؛ بل عدم وجود فرصة لمعرفة أي شيء من الركاب أو موظفي الأوتوبيس. لا أحد يجيد سوى التركية. كان عليَّ قطع أكثر من ١٣ ساعة من دون معرفة في أي وقت سنصل، أو ما المدن التي نمر عليها أو ما أبرز علامات الطريق!

الفرصة الوحيدة أمامك أن تطالع تحول الطبيعة من حولك، وتغير أنواع النباتات، يغيب البحر من المشهد بعد قليل، وتتقلص المساحات المأهولة بالبيوت والمباني، وتتراجع مستويات العمران وفخامته كلما أوغلت في اتجاه قونية، يبدأ الثلج على استحياء شديد في احتلال المشهد، وتتحول المساحات ـ التي كانت قبل قليل خضراء أو حتى جافة وقاحلة ـ إلى ثلوج بيضاء بدأت في الذوبان مع ارتفاع درجات الحرارة، وظلت بقاياها في بعض المساحات وعلى قمم الأشجار وأسطح بعض البنايات والسيارات.

كان الأوتوبيس يتوقف ـ تقريبًا كل ساعة أو أكثر ـ لدقائق قليلة في استراحات محددة على الطريق، وسرعان ما يدور موظفه على الركاب يناشدهم سرعة العودة إلى أماكنهم لمتابعة الرحلة. في بعض الاستراحات سُمح لنا بالنزول في جولة، وغير ذلك لم تفتح الأبواب سوى للمغادرين.

مع دخول الليل اختفت معالم الطريق. ذات وقفة، لمحت على قمة مبنى، مجسمًا لعمامة ضخمة فظننت أننا وصلنا إلى قونية. حاولت النزول فأشار لي موظف الباص بالجلوس، وسرعان ما تحركنا بعد أن غادر رجل وامرأة، يبدو أن هذه بلدتهما.

مع تغير زاوية النظر ظهر أن العمامة الكبيرة تعلو تمثالًا لجحا الراكب على حماره بالمقلوب. أذنا الحمار طويلتان وحجمه أصغر من راكبه بعمامته الضخمة. جحا يعطي ظهره لحماره ولإستنبول موجهًا بصره تجاه قونية، أو هكذا افترضت وفقًا لاتجاه السير.

هل يكون هذا هو قبر جحا الذي أشار إليه المكناسي في رحلته «إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والرسول الحبيب»؟ يقول المكناسي: «وبعد قرى بلودم، تاي ـ سقلي، سافرنا في بلاد منفسحة وفجاج ومياه وطيور وأزهار على أنواع متعددة. ما رأيت مثل هذه الأرض مياهًا عذبة، حتى وصلنا «آق شهر»، ويقول أهل البلد إنها مدينة «جحا» صاحب الحكايات المعروفة، وأرونا قبره. ومررنا على «اللاذق» شمال «قونية» وأهلها يصنعون الزرابي الكثيرة، وجاء أهلها إلينا يعرضون بيعها، ومنها إلى «قُنية» الشهيرة بين عمورية وأنطاكية، وقبل وصولنا

إليها مررنا بفجاج وصحارٍ كثيرة الغبار والعجاج قليلة النبات، وقُنية هي بداية المرحلة الثانية من مراحل قافلة الحج العثمانية إلى الشام، وأقمنا فيها يومين للراحة، وفيها شيخٌ من عادة العثمانيين أن يذهب للسلطان الجديد ليبايعه ويأخذ عليه العهد في أن يسير بالمسلمين بالعدل، ويقلده السيف علامة على تمام البيعة والانقياد لحكمه وأمره ونهيه، وبعده يبايع السلطانَ الجديد الأعيانُ والناس».

هل تكون هذه المحطة مدينة «آق شهر» حيث يرقد جحا التركي؟ هل يكون الشيخ الذي يذهب ليأخذ العهد بالعدل على السلطان هو مولانا جلال الدين الرومي الذي نقصد، أو أحد خلفائه في الطريقة؟ للرومي مؤلف اسمه «مكتوبات» يضم ١٤٥ رسالة موجهة إلى كبار المسئولين في السلطة السلجوقية، وبالذات إلى السلطان والوزراء والأمراء، يخاطب فيه ـ في أسلوب وصفه المعنيون بالرائق ـ هؤلاء الحكام «مستهلًّا الرسائل بما يليق بهم من إطراء ثم يوجه إليهم نصائح في كيف يكون الأمير عادلًا».

لا بد من زيارة لمدينة جحا، والوقوف بضريحه. ولكن متى تنتهي هذه الرحلة؟

أشرت لموظف الباص بيدي إشارات محاولًا أن أحصل منه على إجابة: متى نصل؟ جاءني بكوب ماء. جيد، لا بأس. تناولت الماء وكررت المحاولة بالعربية مرة وبالإنجليزية مرة. فهم من المحاولتين كلمة قونية ورددها ورائي في المرتين. ضحك وضحكت. فرد كفه مبينًا أصابعه الخمس. خمس ساعات، أم خمس ليالٍ في هذا الجحيم؟

أظن هذا الأوتوبيس يشبه أوتوبيسات الأرياف والنقل الداخلي

في مصر، ليست خدمة سياحية. هؤلاء بشر من أهالي القرى والمدن الواقعة على خط إستنبول ـ قونية، فلا لوم على أحد بمن فيهم السائق والكمساري إن لم يكن يعرف غير لغته. لذت بالصمت. تخيلت ماذا كان جحا ليفعل لو وجد نفسه في باص طويل عريض مكتظ بالبشر يسير على طريق يجهلها ولمدة لا يعلمها ولا أحد يفهم من كلماته شيئًا!

في آق شهر، جلس جحا على المنبر وقال: أيها المؤمنون، هل تعلمون ما سأقول لكم؟ فأجابوا: لا نعلم. قال: فما الفائدة من التكلم؟ ثم نزل. في يوم آخر، سأل السؤال نفسه. قالوا: نعلم. فقال: لا فائدة من الكلام إذن؟ ونزل. في المرة الثالثة اختلفت الإجابات بين لا ونعم، فقال: من يَعلَم يُعلِم من لا يَعلَم. ونزل.

الحقيقة كنت لا أعلم كم تبقى على مدينة قونية. وأعلم أنه لا أحد في الباص سوف يخبرني. ومع ذلك وقفت في منتصف الباص وسألت بالإنجليزية بصوت مرتفع إذا كان أحد هنا يتحدث الإنجليزية. فلم أتلقَّ ردًّا، فقلت بالعربية الفصحى: هل يتحدث أحد هنا العربية؟ لم أتلقَّ إلا نظرات؛ بعضُها مندهش وبعضها متعاطف. شعرت كما يقول الرومي في المثنوي: «كل من افترق عمن يتحدثون لغته، ظل بلا لسان، وإن كان لديه ألف صوت».

عدت بصوتي إلى مقعدي منتظرًا الفرج من عند الله، داعيًا أن يكون نداء الزيارة قاربَ التحقق؛ لأنني بصراحة تعبت.

(١٣)

ـ لا يمكن لكيميا أن تكون قد أحبّت هذا الظل الأسود!

ترددت العبارة مهموسة كأنها فحيح. تلفتّ محاولًا تتبع مصدر الصوت. الظلال الكثيرة المتناثرة في الغرفة استدعت الرهبة من أعماقي.

لماذا يُعقّدون الإضاءة في غرف الفنادق بهذه الطريقة؟ ليس هناك مصدر واحد للضوء يُسعفك في قتل العتمة. أضواء عقيمة متناثرة هنا وهناك؛ ضوءان فوق السرير يمينًا ويسارًا؛ ضوء عند المدخل؛ ضوء إلى جوار المكتب الممتد ببراعة من طاولة الزينة، ومصباح قراءة في زاويته. أباجورة تشبه النخلة في الركن إلى جوار مقعد ضخامتُه لا دفء فيها ولونه من درجة لون ستارة النافذة المحايد. الضوء الكاشف اليتيم يتسرب من باب الحمام المفتوح؛ كأن الحقيقة لا تُرى إلا هناك!

ـ كيميا لم تحبّ هذا الظل!

الصوت ينبع من الركن إلى جوار النافذة. جرّبت أن أفتحها أول يوم في عادةٍ لازمتني ولم يخلصني منها التكرار. في معظم الفنادق يحرصون على إغلاق النوافذ تمامًا أو بالكثير جعلها صالحة فقط للتهوية. هل يخشون أن يقفز النزلاء من غرفهم؟

يتردد الصوت في الزاوية كأنه خرير ماء. هل أتوهم ذلك؟ ظللت

لشهور طويلة، بعدما انتقلت للدراسة في الجامعة، أسمع صوت أمي يناديني باسمي؛ فور أن يحط السكون أجنحته على ليل المدينة، يتجلى صوتها نفسه الذي كانت تناديني به وأنا في الجانب الآخر من البيت، أو في الشارع ألعب. صوت يجمع بين القلق والحنان والقسوة في خليط لا يمكنني عدم تمييزه.

لكن ما الصلة التي تجمعني بهذا الصوت ليزورني في هدأة الليل؟ ألم يجد سواي بين زوار قونية الذين يُعدّون بالآلاف هذه الأيام؟ لا شك أن أقلهم إيمانًا أكثر مني تصديقًا في كرامات مولانا. جئت عاشقًا للشعر مهووسًا بالتاريخ؛ لا مريدًا ولا مجذوبًا. صرخت: عليك أن تجد غيري لكي تفُحَّ في هدأة ليله هذا الفحيح.

ـ وحدكَ جئت لزيارة كيميا.

يا لجرأة هذا الصوت؛ يقرأ أفكاري ويحاصرني بلهجة العارف الواثق. ركزت انتباهي تجاه نقطة انطلاقه وقلت ضاغطًا حروف كلماتي مظهرًا له فراغَ صبري: جئتُ لكتابة رحلتي إلى جلال الدين الرومي في مئويته الثامنة. وأضفت كمن يرفع تعويذة في وجه عفريت: أنا صحفي.

لم يَبْدُ على رنة صوته أنه يخشى مثل هذه التعاويذ. استطرد كالمنتصر: أنت شاعر.

شاعر، شاعر... وكأنها تهمة! صرخت في وجهه الذي تخيلته في تلك اللحظة بعينين ماكرتين على اتساعهما، وابتسامة مائلة تلمع من خلالها بعض أسنانه وتختفي الأخرى.

ارتحت لصمته الذي أعقب صراخي. لكنه سرعان ما عاجلني بما يشبه الطعنة: قلبك معلق بكيميا. قاومتُ: كيميا مجرد شخصية روائية.. فضولٌ أثارته القراءة.

أظنني شعرت بحركته في الغرفة. كأنما قطٌّ عَبَرَ مساحات الضوء المتشابكة بالعتمة فخلط للحظات بياضَ تلك بسواد هذه. نبعَ الصوتُ من نقطة أقرب إلى سريري. كان انفعاله أشد ولهجته أكثر وضوحًا:

ـ هل رأيتَ وجهَكَ عندما أجاب المرشد السياحي بفتور يشبه القرف سؤالك عن قبر كيميا؟

جاوبت كمن يخضع لسيطرة محقق ضبطه متلبسًا ولا مجال للإنكار، فقط محاولة التعليل والتبرير: نعم.. نعم.. كان سخيفًا في إجابته.

ضغط الكلمات معيدًا جوهر التساؤل إلى السطح: هل رأيتَ وجهك؟

بادلته انفعالًا بثورة. قذفت بالكلمات في وجهه راجيًا أن تصيبه بكدمات تُخرسه: كيف لي أن أرى وجهي يا رجل؟

تلقى لكمتي المتخيلةَ كمن يستقبل تهنئة بالنجاح، وقال بهدوء المستمتع بترديد أبيات شِعر يعرف مسبقًا تأثيرها المدهش على الجميع: إن لم تره أنت، فقد رأيته أنا.

صمتَ قليلًا مستدعيًا فضولي من مكامنه، ثم أضاف:

ـ كنتُ في الدم الذي ضرب أوداجك فانتفخت، وطرقَ أذنيك فالتهبتا، واحتشد في قبضتك فتمنت لو تصفع عنكَ وجهَ هذا اللئيم.

من أين تحفر هذه الكلمات يا بن الـ...؟ هكذا فكرتُ. ولكنني نطقت بشيء آخر أردته منطقيًّا ودامغًا: هو لا يعرف عن قبرها شيئًا.

عاجلني كمن توقع إجابتي المراوغة: هو يخشى كسادَ تجارته.

بدأتَ تُثرثر. قلتها وأعقبتُها بضحكة أردت تلوينها بطعم الظَّفَر فظللت أمط في ذيلها وأنغمها وأشد حروفها من جوفي إلى أن ظننت أنه غاب؛ فأوقفتها. لكن صوته انطلق، كما لو أنه لم يصمت للحظة، في أداء بالغَ هو الآخر في تلوينه مؤكدًا على سكتاته وانطلاقاته:

ـ وهل هناك تجارة مربحة كتجارة الحجيج؟ ألوف مؤلفة.. ملايين.. نقود.. نفوذ.. بشر يأتون أفواجًا من كل بقاع الأرض إلى مولانا.. صورة العشق الكبرى.. فمن، بحق ما تؤمن به، تكون كيميا ليسمحوا لها بخدش هذا الصنم؟

أخذني العطف للحظة أمام هذا الصوت المرتجف.

تململ صوتي. لكن شيئًا كان يدفعني نحو العناد والمقاومة إلى آخر لحظة: كيميا قصة لم يؤكدها أحد.

نطقتها ببرود مصطنع وشعرت بكذبي فور أن انتهيت من قذف الكلمات. لكن الصوت الثائر لم يمهلني لتذوق طعم الكذبة. صرخ: كيميا روحٌ ذبحها مولاهم بسيف شمسه.

تمنيت لو أن للآذان جفونًا كالعيون لأغمضها عن هذا الحوار المجهِد. تمتمتُ: أنت تقودني في طريق لم أفكر فيها.

– فكّرتَ.. ولكنك تخشى المضي قدمًا.

أخشى! ماذا أخشى؟ لا مصلحة تربطني بالأمر... قلت مدفوعًا بحلاوة الروح وقد نزع القشرة الأخيرة عن صلابتي المدعاة.

– الخشية وسيلة للدعة.

صمتَ قليلًا ربما ليمهلني فرصة لفضّ غلاف هذه الفكرة المغلقة قبل أن يضيف: يُرهقك السؤال.

- أي سؤال؟ صرختُ: أنا لا أخشى شيئًا.

- يكسر السؤالُ الصنمَ.. ولن تكتب.

- جئت أدون رحلة.. كتبت بالفعل.. وما زلت أكتـ...آ...آ... أعني أخطط للكتابة.

- لن تكتب.. وستظل لعنة كيميا تطاردك إن لم تنصت لها.

- أنصت لمن؟ من أنت؟ ولماذا تخاطبني من خلف حجاب؟

- أنا أقرب إليك من أي حجاب.. فقط تذكّر؛ كيميا لم تحب هذا الظل.. كيميا نور.

ضغط حروف كلماته الأخيرة مستنفدًا فيها طاقتَه. تحشرج الصوت كغرغرةٍ في حلق. أغاظتني حدته وهجومه. هذا المدعي يريد أن يقنعني بأنه أعلمُ مني بما يدور في ذهني. ركضتْ فورةُ غضب في شراييني. ارتجف جسدي الممدد في السرير. استجمعتُ كلَّ شجاعتي لأصرخ تجاه الركن الذي يتسلل منه الصوت.

انحشرت الكلمةُ في حلقي وارتدّت إلى جسدي في نوبة من التشنج المؤلم. قاومتُ آلامي وأعدت الصرخة: اسـ...

لم يَجُدْ حلقي سوى بغرغرة مقيتة تشبه إيقاعَ صوته المتردد من الزاوية نفسها: كيميا نور... كيميا نور.

اختنقتُ ببقية حروف الكلمة: ... «سمع».

رفرفتُ بجسدي كذبيحٍ. انتفضت جالسًا. حدقتُ مشدوهًا في الركن. رأيته ساطعًا بضوء الصبح المتسلل من خلف ستائر النافذة.

(١٤)

«شفاءُ العليل لقاءُ الخليل» ترددت العبارة داخل عقلي، بوضوح وبصوت يختلف عن صوتي؛ كأنما هناك من يهمسها في أذني. تلفتُّ إلى يميني في قلق. بدا الرجل الجالس إلى جواري مُستغرِقًا بتمامه في متابعة فرقة الموسيقى التي تشغل الغرفة يمين المدرجات حيث نجلس. كان العازفون والمنشدون مخلصين في تقديم وصلة «الإلهي ـ ilahi» وهو فن مديح يستخدم أشعارًا تُعظِّم صفات الله تمهيدًا لعرض المولوية الذي تأخر في انتظار ضيوف رسميين.

تكررت الجملة في أذني الأخرى. خشيتُ أن ألتفت هذه المرة. تشاغلت بتأمل أرضية العرض الخشبية الفارغة. المسرح مبنيٌّ على الطريقة الرومانية. مدرجات تلتف في دائرة مكتملة حول ساحة كبيرة تلمع بلاطاتها البنية تحت الأضواء الكاشفة. الساحة مكشوفة وفارغة إلا من سجادة تتوسط المدخل من اليسار، على شكل فروة كبش، مصبوغة بلون أحمر شفقي.

وفقًا لفلسفة «السماع»، هذه الفروة هي الفاصل الذي يوصل الدراويش إلى الحقيقة والتوحيد. يجلس عليها الشيخ الذي يمثل مولانا فيقسم العالم إلى قسمين: مرئي ولامرئي.

اللون الأحمر رمزٌ لتجلي الله وتوحده بكائناته؛ فاليومُ يبتدئ

بحمرة الشفق في الفجر وينتهي بها عند الغروب. وهكذا كانت السماء لحظة رحيل الرومي «ليلة العُرس» حين تحقق لقاؤه السعيد بمحبوبه.

«هذا عرض رسمي تقدمه فرقة ممثلين. إذا أردت أن تستمتع بالمولوية فعليك حضور عرض الدراويش»، أخبرتنا بذلك راقصة إيرانية تعيش في فرنسا. عرّفتني بها ثريا في مطعم الفندق. تتحدث العربية بلكنة عراقية. قالت إنها أدت رقصات تعبيرية على مختارات من أشعار الرومي بالفارسية، ومن أشعار المتنبي وأبي فراس والمعري بالعربية، اختارتها بنفسها بمساعدة أصدقاء. جاءت من باريس خصيصًا للمشاركة في وقفة احتفالية بالشموع في ذكرى سلطان العاشقين.

«ثمانمائة شمعة» قالت، وأضافت: «شمعة لكل سنة تفصلنا عنه؛ علّ العشق يعود». لم أعلق. قلت لنفسي: الناس فيما يعشقون مذاهب. هل أحكي لها حكاية كيميا؟ أضافت بحماس منعني من ذلك: «نشعل الشمع ونسجد سجدة طويلة للعشق»، قلت لنفسي ضاحكًا: كل شيخ وله طريقة. ليت السجدات تعيد المفقودات. هل أطلب منهم سجدة إضافية لروح كيميا؟ تحدثتْ عن تلكؤ الجهات الرسمية في منحهم الموافقة حتى الآن. وبحماس لا يليق إلا بثائر، اختلطت بسببه لغاتُها الثلاث: الفرنسية والعربية والفارسية، قالت ما معناه إن عشاق مولانا جاءوا من كل مكان في الأرض وسوف يرغمونهم على الموافقة.

صهللت الموسيقى، وارتفع جواب المغني إلى طبقة مذهلة. أخذتني رعشة ركضت من أسفل عنقي وألهبت عمودي الفقري،

كأنهم نخسني أحدهم بشوكة وأنا لاهٍ عن كل شيء مستغرق في لعب الذاكرة. شعور جميل رغم قسوته. هل يشبه ما يشعر به دراويش الحقيقيون وهم يدورون على صيحات الناي؟

في متحف مولانا أخبرني أحد الزوار، أفغاني يعمل أستاذًا للفلسفة الإسلامية في جامعة يابانية، أن دراويش المولوية الحقيقيين يقيمون جلسات سماع... «تكاد تشعر بأجنحة تنبت من كتفيك عندما تحضرها». نطقها بثقة شديدة وهو يعدني بأن يصحبني إلى واحدة منها بعد يومين من الاحتفال الرسمي. أضاف بأسى عكسته ملامحُ وجهه ونبرة صوته: «الرسميون يُفسدون كلَّ شيء»، ثم ابتسم وهو يعطيني بطاقته التعريفية وقال: «بعد رحيلهم تعود قونية إلى روحها». أجّلتُ إثارة قضية كيميا معه حتى نلتقي. أفغاني وأستاذ للفلسفة الإسلامية، لا بد أن الحوار معه سيكون مفيدًا.

«شفاءُ العليل لقاءُ الخليل»، تكررت العبارة. أخرجتني من زحام الأفكار. صوت قوي. ظننته مُذاعًا عبر المكبرات التي تنقل لنا موسيقى الفرقة وأناشيدها. تلفتُّ حولي. لا أحد غيري منتبه للصوت. قفزت العبارةُ إلى ذهني. قرأتُها منقوشة بخيوط من ذهب على خلفية خضراء فوق مقبرة كيرا خاتون،..زوجة مولانا الثانية.. نعم.. هناك في الضريح.

ارتفع تصفيق الحضور. انتبهتُ على رجل يقف في منتصف المسرح. رحب باللغة التركية ثم الإنجليزية بوصول ضيوف كبار معلنًا بدء الحفل خلال دقائق. تغيرتْ إضاءة المكان. كنت قد نصبت كاميرا الفيديو على الحامل بالقرب من بداية الصف الذي أجلس فيه وضبطتها لكي تغطي المسرح بالكامل. قمت وضغطت

زر التسجيل وعدت إلى مقعدي. همس الصوت في أذني للمرة الثالثة «شفاءُ العليل لقاءُ الخليل». إنه الصوت نفسه الذي زارني في الغرفة. همهمت بلا وعي: علاء الدين؟

- «نعم.. أهلا بك».

امتدت صوبي من المقعد المجاور يدُ رجل.

قال الصوت: «قريبًا يمكننا أن نلتقي».

لم تنتظرني اليد. أخذت كفي بكفها، شديدة البرودة، يلتف حول معصمها إسار من جلد بني عتيق. التفتُّ بكامل جسدي لأتمكن من رؤية صاحبها. صدمني أن الجالس إلى جواري امرأة، على ركبتيها تجلس طفلة صغيرة تلهو بما يشبه الميدالية الجلدية، بنية اللون كالإسار الذي لمحته في اليد التي صافحتني، ما زالت برودتها في أصابعي. ارتبكت المرأةُ لالتفاتتي المباغتةِ نحوها بكامل جسدي. رمقتني بقلقٍ انقلب إلى عجب غاضب. ابتسمت الطفلة بعذوبة، مدت يدها نحوي بالقطعة الجلدية، ألقتها في حجري. التقطتُها ومددتها نحوها. ابتسمتْ وأغمضت عينيها في دلال ولم تمد يدها. رمقتني المرأة بغضب. مددتُ يدي بالقطعة الجلدية نحوها؛ ظننت أنها لعبة تخص الطفلة، لوحت المرأة بيدها رافضة، ثم أشاحت بوجهها بعد أن قلبت شفتيها بامتعاض. نظرتُ إلى طفلتها مستغيثًا بها من الخجل فوجدتها نائمة كقطة بملامح تنز بالدفء!

بدأ العرض. دخل الدراويش من جانب المسرح ملتفين بعباءات سوداء، ومغطين رءوسَهم بقلنسوات من اللباد ترابية اللون. توجهوا صوب مركز الساحة الخشبية الفسيحة. تعلقت العيون بهم.

في الوقت نفسه انطلق من زاوية في أقصى المدرجات طائرٌ،

حمامة بيضاء راحت تطير بحماس شديد دفعني إلى القلق بشأنها. تابعتُها بعيني. لم يلتفت لها أحد غيري. تركزت الأبصار على الرجال. أين تهبط هذه الحمامة المسكينة، ومن أين دخلت؟

يتحرك الدراويش برشاقة تأخذ الأبصار. سريعًا أخذ كل منهم موضعه. صمتٌ بليغٌ أطبق على المسرح والمدرجات. من عمق الصمت ارتفع صوتٌ شجي بتلاوة آيات من القرآن الكريم بلكنة واضحة تسقط معها بعض المفردات: «ولله المشرق والمغرب، وأينما تولوا فثم وجه الله، إن الله واسع عليم». عيناي تتابعان الطائر الغريب. بدا معلّقًا في الهواء تتأرجح رقبته ويرتعش جناحاه. أي طائر هذا القادر على الثبات في الجو؟ «وقالوا اتخذ الله ولدًا سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون، صدق الله العظيم».

أحد الدراويش انهمك في تلاوة أدعية وابتهالات ترددت خلالها عدة كلمات عربية نطقها بإمالات وتلوينات صوتية جعلتها مثيرة للانتباه: «سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمدلله رب العالمين، بارك الله، ببركاتك يا الله» أعقبه دعاء بالفارسية أو ربما بالتركية نطقه الدرويش بسرعة فائقة، بنبرة خنفاء ترددت خلاله هذه الأسماء والكلمات: «الحسن علي، الحسين علي، أولاد الرسول، شهداء كربلاء، حضرة سلطان، الترمذي قطب العارفين، شمس الدين تبريزي، سلطان بن سلطان، حضرة سلطان، حضرة جلبي، مشايخ وإخوان درويشان، والسلام على حضرة جلبي» أعقبه بدعاء للجمهورية التركية ورئيسها. ثم طلب من الحضور قراءة الفاتحة. وحين تحقق له ما طلب بدأ بالتكبير والتهليل والصلاة على الرسول «حبيب الله، وأبراشي

الله» وختم بـ«السلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين»، ثم طلب الفاتحة مرة أخرى. انتظر قليلًا ثم قال بطبقة عالية فخيمة يمدد حروفَ كلماتها كمن يفتتح عرضًا مسرحيًّا: «حضرة مولانا جلال الدين وشمس تبريزي وعلي، بشفاعة النبي محمد». ثم توجه للسلام على الراقصين: السلام عليكم، فيرد كل منهم: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وعلى العازفين فيرد كل منهم السلام. وكان كل واحد يرد مع تمديد كلمة «بركاته» بشكل لافت. راقبتُ الحمامة. كانت تحلق فوقهم في دوائر تتسع وتضيق.

بدأت النايات في عزف نغمة «التقسيم»؛ أنفاس الخالق التي وهبت الحياة لكل شيء. نهض الدراويش وتبادلوا التحية بينما النايات تتحول إلى نغمات «البشرف». نزع الدراويش عباءاتهم السوداء. تألقت الأردية البيضاء الفضفاضة. بدءوا في الدوران. دوران الأفلاك حول الشمس. انتفخت العباءات بالهواء صارت زهورًا بيضاء متفتحة.

انشغلتُ بروعة مشهدهم وهم يدورون في تناغم مذهل. تنعكس الأضواء على بياض ملابسهم. نسيت الحمامة ثم تذكرتها. رفعت رأسي فوجدتها تدور كما يدورون. فردتْ أرياش ذيلها في انسيابية كأنها طاووس ناصع البياض.. زادت سرعةُ الدراويش في الدوران وارتفع صوت الناي. اندمجتُ في مراقبة الكيفية التي يزيدون بها سرعتهم بلا عناء. تأملت ملامح وجوههم المسترخية كأنهم لا يبذلون جهدًا. صعدتُ بعيني إلى أعلى. رأيت الحمامة تكبر وتمتد كأنها طيف من نور ساطع. تجلّى الطيف في صورة فتاة رقيقة. هبطت الفتاة بعذوبة وسط الراقصين. راحت تدور كما

يدورون. لا ترتدي غطاء رأس مثلهم. شعرها المفرود على ظهرها يدور حولها كشلال. فكرت: أزياء الدراويش الراقصين رموز؛ الأبيض رمز الكفن، الأسود رمز القبر، الكولاه فوق الرأس ترمز إلى شاهدة القبر. كيميا لا شاهدة لقبرها، همست لنفسي: كيميا! سمعتُ ضحكة البنت على حِجر المرأة جواري. أعدت النظر. مِن صدر كيميا تتدلى قلادةٌ جلدية تشبه الميدالية التي أعطتني إياها الطفلة. ضحكتِ الطفلة مرة أخرى. نظرت فوجدتها نائمة. رمقتني المرأة في تهديد واضح. أعدت النظر إلى الراقصين. لم تكن كيميا هناك. صرختُ بصوتٍ عالٍ: كيميا. فحّت المرأة جواري بحدة: «شششششش». لكزني الرجل الجالس إلى يميني بكوعه. كالمنوم، قفزتُ من مكاني. تذكرت القلادة. فتحتها. بدت الكلمات المكتوبة بداخلها داكنة كأنها آثار حريق. مشوشة وغامضة. شعرت بثقة في إمكانية قراءتها. رغم استياء المرأة الواضح وإشارة رجل الأمن الذي رأيته يغادر مكانه متحركًا صوبي، لم أعد إلى مقعدي. مررتُ من أمام المرأة قاصدًا نهاية الصف. لملمت الكاميرا في الحقيبة. ألقيتها على كتفي ويممت صوب باب الخروج قابضًا بعنف على الميدالية الجلدية. لا أسمع شيئًا سوى دقات قلبي يعاكسها نحيب الناي.

(١٥)

يجب أن أعود إلى الفندق، هذا أول هاجس خطر لي عندما وقفت وحيدًا في ساحة الواسعة أمام المركز الثقافي لمدينة قونية. السماء دكناء تتسرب من بين غماماتها الرمادية شراراتُ ضوءٍ كشروخ في جدار قديم. بشرٌ يركضون للَحاق بعرض السماع. أنا الوحيد الذي نفر خروجًا مضحيًا بمقعد يتصارع الناس من أجل الحصول عليه في هذا الموسم الكبير؛ مولد سيدي الرومي.

لا بد من وجود تاكسي في هذا المكان، همهمت لنفسي كاظمًا شوقي للانقضاض بالميدالية الجلدية. وسعت من خطواتي نحو الشارع الرئيس. لا بد أن أحد هؤلاء الراكضين وصل بتاكسي! تداخلت في ذهني المشاهد: الكف التي صافحتني. الطفلة التي منحتني الميدالية. صوت علاء الدين. الحمامة التي رقصت لي وحدي. الميدالية التي تألقت في رقبتها. توقفت كالملدوغ. تذكرت البطاقة التي منحني إياها الرجل الأفغاني. التقطتُ حقيبتي من فوق كتفي. قلبت جيوبها جميعًا إلى أن خرجت بالبطاقة. على أحد الجانبين كُتب بحروف عربية واضحة: «علاء الدين جلبي». قلبتُ البطاقة. على الجهة الأخرى رسمٌ طِبق الأصل من الميدالية التي منحتني إياها الطفلة. صرختُ: الميدالية! كانت في يدي. أغلقت قبضتي

عليها بعنف إلى حد أني فقدت شعوري بها. لم أجد لها أثرًا. فتشت جيوبي وقلبت زوايا الحقيبة. لا شيء هناك. عدت أدراجي حتى باب الخروج. استخدمت فلاش الكاميرا لإضاءة الأرض المعتمة. رمقني الجنود بنظرات مرتابة. لم يتحرك أحدهم نحوي أو يوجه لي كلمة. لكنهم بلا شك تساءلوا فيما بينهم عن هذا المختل المنشغل بتصوير الأرض! قلت لنفسي: لا بأس، لا بد أن يكون هذا الخلل مقبولًا لديكم، اعتدتم على من يكنسون الأضرحة ويُقبّلون العتبات ويتمسحون بالجدران، فلا بأس ببعض الإضافات. لم أجد للميدالية أثرًا. أعدت النظر إلى البطاقة، النقوش ذاتها التي ظننتها كلمات. إنها الدليل المادي الوحيد الذي يمكنني اتباعه. خاطبني الصوت بالداخل: «قريبًا يمكننا أن نلتقي». الأفغاني صاحب البطاقة وعدني بلقاء «بعد يومين، حين يغادر الرسميون». هل يكون هذا اللقاء المقصود؟

لمحتُ أضواءَ سيارة تدخل الرحبة المحيطة بالمركز. ركضت صوبها. تاكسي. انتظرت إلى أن غادر راكباه من الباب الخلفي. فتحت الباب الأمامي وألقيت بنفسي إلى جوار السائق. لم أنطق بكلمة. أعطيته البطاقة. أضاء نورَ الصالون. دقق النظر فيها، ثم قال وهو يرفع إصبعين: iki gün sonra، هززت رأسي في إشارة لعدم الفهم. حرك البطاقة بين يديه وقال: two days. أعقب جملَته بابتسامة صغيرة ولم يضف حرفًا. سألته إن كان يتحدث الإنجليزية، قال: çok küçük، هذه أعرفها منذ كنت هاويًا لتربية الحمام. «الكوچوك» نوع من الحمام صغير الحجم. تعجبت للطريقة التي يستدعي بها

العقلُ معارفَه. رددت ابتسامته ولذت بالصمت وأنا أتخيل زوج الحمام «الكوچوك»، كانا زوجين بديعين، جسد أبيض ناصع بأكتاف سوداء وفيونكة في الصدر الأبيض العريض مقارنة بالجسم القصير، أحببتهما كثيرًا، قضيت ساعات في مراقبتهما إلى أن اعتادا وجودي وراحا يمارسان الحب أمامي بمنقارين صغيرين لا يكادان يبينان من وجهيهما اللذين تشغلهما العيون الواسعة.

أطفأ السائق نور الصالون وأشار بيده صوب الباب المجاور لي؛ كان إلى لحظتنا هذه مفتوحًا، أغلقته واسترخيت في مقعدي قائلًا: دندر هوتيل. استسلمت سريعًا لنعاس داعب جفوني. لم أشعر إلا ويد السائق تهز كتفي وصوته يردد: «دندر هوتيل». فتحت عيني. لمحت في معصمه إسارًا يشبه الميدالية التي منحتني إياها طفلة السماع، يشبه الإسار الذي لمحته في الكفّ التي صافحتني هناك، يشبه القلادة التي تدلت في صدر كيميا، أو الحمامة التي رقصت لي. هل سقطتُ في الحلم من جديد؟

تمنيت لو أستطيع التحدث معك، قلتها بالإنجليزية بكل ما في قلبي من فضول ورغبة في فهم ما يحدث. ابتسم السائق ورفع إصبعيه مرة أخرى، ثم مد يده نحوي بالبطاقة. التقطتها وفتحت الباب ونزلت. مال بجسده وسحب الباب ناحيته ليغلقه مجيلًا النظر في وجهي. بدا لي وجهُه على نور واجهة الفندق كوجه أستاذ الفلسفة، البروفسور الأفغاني. لم أملك قولَ كلمة. اتسعت ابتسامتُه التي ظلت راسخة في ذهني بينما أراقب ـ بلا إرادة ـ حركة التاكسي حتى اختفى عند المنحنى نهاية الشارع.

لسعني البرد فجأة. انتبهت إلى وقوفي بلا مبرر أمام الفندق. اطمأننت إلى وجود البطاقة في كفي. لمست حقيبتي كأنما أتأكد من كونها حقيقية. دسست البطاقة بداخلها. تلمست كعادتي محفظتي في جيبي الخلفي. اطمأننت لوجودها. استدرت عابرًا باب الفندق مباشرة صوب المصعد الذي كان موجودًا في الطابق الأرضي. فتحت الباب ودفعت نفسي داخل الصندوق الأحمر. كبست الزر (٣). دققت النظر إلى وجهي في المرآة. هذا أنا. لا شيء مختلف في ملامحي سوى تلك النظرة الذاهلة التي ظننت لوهلة أنها عينا شخص يراقبني من خلف زجاج مضبب.

(١٦)

في الغرفة أعدت الحياة إلى التلفزيون. فتحت اللاب توب. كنت متلهفًا على مشاهدة ما سجلته الكاميرا. هل أرى الحمامة التي تحولت إلى فتاة؟ هل كنت بالفعل أقبض على شيء في يدي وأنا ألملم الكاميرا قبل الخروج من العرض؟ أوصلت السلك وضغطت مفتاح تشغيل الكاميرا. انتشرت على الشاشة لوحة الأوامر. طلبت جلبَ الصور والفيديو من دون حذف الأصل. راقبت الأوراق التي تتطاير بين ملفين مستمتعًا بلباقة مايكروسوفت التي جعلت لكل شيء صورة متحركة تُغني عن الكلام والكتابة.

في انتظار تحميل الفيديو والصور فتحت صندوق البريد: رسالتان من العمل. رسالة من نوري الجراح. رسائل إعلانية ونشرات أخبار. ورسالة من أحمد حيدري. «هات ما عندك يا بوحميد»، ضغطت إشارة رسالته وركضت بعيني بين سطورها في انتظار انتهاء الكاميرا من نقل الصور.

صديقي «أبا كيميا» الطيب.

تحيات طيبات من بلاد فارس محمولة على أثير المحبة إلى عندك في بلاد الأناضول.

أما بعد.

يؤسفني أن حظ كيميا في المصادر الفارسية المعاصرة لم يكن أفضل من حظها الشعبي!

غابت كيميا يا صديقي عن المصادر كافة تقريبًا، ما عدا رواية «كريم زماني» المعروف بـ«مولوي شناس»، وهو لقبٌ يُطلَق على من يتخصص في دراسة شخصية والكتابة عنه، كما يقال في العربية «اختصاصي أو مختص في مولانا».

و«زماني» مترجم ومفسر للقرآن، انشغل بشرح كتب جلال الدين الرومي كالمثنوي المعنوي، وكتاب «فيه ما فيه»، وغزليات ديوان شمس.

له رأي لافت حول «كيميا خاتون» ورد ضمن مدونته الإلكترونية ردًّا على زائر سأله توضيح قصة شمس وكيميا. كانت إجابته كالتالي، أنقلها لك من الفارسية بتصرفات طفيفة لضمان وصول المعنى:

«الروايات التي تتعلق بحياة شمس وكيميا خاتون تخرج من مصدرين أصليين؛ الأول رسالة فريدون بن أحمد المعروف بـ«سبهسالار»؛ والآخر مناقب العارفين لشمس الدين أفلاكي.

رسالة سبهسالار قصيرة، وهو من المقربين من مولانا. شهد أكثر الوقائع بنفسه. ما نقله عن كيميا خاتون لا يتجاوز الأسطر الستة، تحكي عن تقدم شمس للزواج بها، ثم زواجه بها ومجاورته لمولانا، ولا تتطرق أبدًا لا لموتها، ولا لحب علاء الدين لها».

«أفلاكي» هو الوحيد الذي كتب عن موت كيميا في «مناقب العارفين»، لكن كريم زماني يرى أنها رواية تكتنفها الخرافة؛ لأن أفلاكي كتبها بعد ١١٠ سنوات من اختفاء شمس!

وهو يرى أن كتاب أفلاكي كتاب لعوام الناس، يتمتع

بمخيلة أسطورية وخيالية. ومع ذلك يعجب من كونه لم يكتب أكثر من تسعة أسطر عن موت كيميا خاتون!

هذا مضمونها:

«في أحد الأيام خرجت كيميا خاتون، في يوم مشمس، مع جمع من النساء. وكانت بينهن جدة سلطان ولد «الابن الأكبر لمولانا» إلى بستان يقع خارج قونية، وقد غضب شمس من هذا الخروج، وحين عادت كيميا خاتون إلى البيت أصابها فورًا ألمٌ في رقبتها وماتت بعد ثلاثة أيام. (مناقب العارفين، ج٢، ص ٦٤١).

ويرفض كريم زماني هذه الحكاية مستندًا إلى أن أم مولانا وجدة سلطان ولد مؤمنة خاتون المعروفة بـ«بي بي علوي» ماتت قبل سنوات من زواج كيميا. وجدّته عن أمه، يعني كراي الكبيرة، أيضًا ماتت قبل سنوات من دخول شمس إلى قونية.

ويختتم كريم زماني رده على السائل عن كيميا بعبارات ذات مغزى، إذ يقول:

«ما نحصل عليه من شمس نفسه أنه تعامل مع كيميا بشهامة، وأنه، رغم حبه لها، وافق على طلب الطلاق وسلّمها مهرها كاملًا» (مقالات شمس ص ٣٣٦). ليس في المصادر القديمة نصوص شافية حول شمس التبريزي، وتحيط حياته هالة من الإيهام والإبهام وصل إلى حد قول بعض النقاد إن شمس مخلوق مخيلة مولانا، هذا الرأي غير مصيب بالطبع، ونحن في انتظار من يزيح الستار عن حياة شمس».

هذا ما أحببت مشاركته معك، بعد أن أيقظتَ بداخلي رغبة الاطمئنان على مصير هذه الفتاة.

تقبل محباتي.

أحمد

(١٧)

طالعت مؤشر نقل الصور من الكاميرا. أمامنا بعض الوقت. تم نسخ ٢٧١ من ٣٢١٥ صورة، ما كل هذه الصور؟ يااه، لم أقم بتفريغ الكاميرا من صور شواهد المقابر ولا جولات اليومين الماضيين. ضغطت Replay وقررت الكتابة لأحمد حيدري إلى أن يكتمل نقل الصور:

عزيزي أحمد

أشكرك أولًا على اهتمامك وسرعة تجاوبك. وأحييك على دعابة «أبا كيميا»؛ وجدتها معبرة عن حالتي مع تلك الفتاة التي تكبرني بثمانمائة عام.☺

أنا مطارَد يا صديقي.

بدأ الأمر بعلاء الدين، والآن... كيميا.

أكتب لك ولا أعرف إن كان الأمر مجرد حلم عجيب، أم أنه كابوس واقعي.

لست خائفًا يا أحمد! ولا أعرف سببًا لشعوري بالاطمئنان. إنه شعور غريب. ربما هو ما يدفعني في لحظات إلى القلق. يجعلني أتحسس رأسي لأتأكد إن كنت واعيًا!

شعور غامض لن أنجح في نقله إليك.

إذا حدث وكان الأمر حقيقيًا، فسوف تصلك رسالتي هذه لتصبح الشاهد الوحيد على ما أنا فيه.

أحمد.. أعرف أن تواصلنا ليس منتظمًا.. ولكن إذا اختفيتُ من الحياة، فأنا في قونية، تطاردني أشباح يقودها علاء الدين بن جلال الدين الرومي... لم يجد غيري ليدله على قبر كيميا حتى تهدأ روحه.

لأضعك في الصورة؛ سوف أشرح لك هنا كل التفاصيل، وتجد في المرفقات حصيلة الأحلام المكتوبة- أو ما أظنها أحلامًا حتى الآن. لا أعرف كيف يساعد ذلك!

لم يعد الأمر مقتصرًا على الأحلام والأطياف؛ بالأمس صافحتني كفُّ رجل حدثني بصوت علاء الدين، وحين استدرت وجدت امرأة أوربية تحتضن طفلتها على حجرها. لك أن تتصور مدى خجلي وفزعي وارتباكي.

سائق التاكسي الذي أوصلني إلى الفندق كان شريكًا في اللعبة؛ تقمص بمهارة وجهَ بروفسور أفغاني يعمل في اليابان وعدني بحضور جلسة سماع بعد يومين.

كتبت كل التفاصيل في المرفقات.. اقرأها بعناية.. أحتاج إلى شخص يعرف ما يحدث أولًا بأول. على الأقل يمكنني الحديث معك من دون حاجة إلى سرد البدايات.

قرأتُ رسالتك بخصوص كيميا أكثر من مرة. جهد مشكور يا صديقي. ولكن هذا الـ«كريم زماني» أعمى، لا يرى من الفيل إلا ما تقع عليه يداه. لن يرى بالطبع في عالم جلال الدين- وعلى عينيه غشاوة تقديسه ـ طيفَ كيميا الضعيفة التي سقطت وسط زحام وضجيج العربات المطهمة وهي تصعد بجلال وشمسه إلى فضاء الشهرة والخلود.

أرجوك.. استمر في البحث وسط الناس.. لا شك في أنهم يحتفظون في قلوبهم وقصصهم بشيء عن هذه المسكينة، فهي واحدة منهم.

تقبل مودتي واعتزازي، وقبلاتي لأميرتيك الصغيريتين.

وليد

راجعت سريعًا ما كتبته. تجاهلت الصرامة ونبرة الغضب الواضحة. ضغطت زر الإرسال قبل ثوانٍ من إشارة الكمبيوتر باكتمال تحميل الصور. فتحت الملف بلهفة. قلّبت المحتويات سريعًا قبل أن أنتبه إلى أن كل الصور في أماكن أخرى؛ الطريق ومحطات التوقف، الضريح، المقبرة، السوق ومسجد السليمية. آخر الصور كانت أمام واجهة المركز الثقافي. تذكرت؛ لم ألتقط صورًا داخل المسرح. فقط أدرت كاميرا الفيديو.

قفزت بين ملفات الفيديو إلى أن وصلت لأحدثها. أدرت الملف وراقبت بشغف. التصوير واضح. العدسة ثابتة. الزاوية ممتازة تكشف الساحة كلها. الصوت نقي. لم ألمح ظلًّا لما شاهدته بعيني هناك؛ لا وجود للحمامة ولا للفتاة الراقصة. رأيت نفسي ـ قبل ثوانٍ من توقف التصوير ـ أهجم على الكاميرا لأنتزعها من مكانها بوجه متجهم يعلوه القلق والعبوس. لم تظهر قبضة يدي لأعرف إن كانت الميدالية بها أم لا. سمعت بوضوح أصوات استياء واعتراض كثيرة. ميزت من بينها الـ«شششششش» القوية حين فحّت بها المرأة التي كانت تجلس في المقعد المجاور. لا طريقة لرؤية المرأة نفسها ولا الطفلة ولا الميدالية. هل كانت الميدالية جزءًا من هذا الوهم الكبير؟

فتحتُ الحقيبة. مددت كفي داخلها. اطمأننت عندما خرجت بالبطاقة. إنها الدليل الوحيد على أنني لست مجنونًا. على الأقل يبقى الاحتمال قائمًا؛ إنه أحد أحلامي الصافية.

قلّبت البطاقة بين أصابعي. لا رقم هاتف ولا معنى للحروف التي تحملها. همهمت مطمئنًا نفسي: لا بأس؛ موعدنا بعد يومين.

يا أحمد...

لا أعرف أي الرسالتين ستقرأ أولًا. هذه الرسالة تابعة. لا تقرأها قبل أن تُنهي السابقة.

عاطفتي تجاه كيميا مستمدة من كتابات أدبية. الروائيون كعادتهم يزيفون التاريخ ويتلاعبون بمشاعرنا تجاهه. لذا دعني أشاركك مصادري.

شرارة اهتمامي بهذه المخلوقة المسكينة كانت في رواية «بنت مولانا» التي كتبتها الإنجليزية مورل مفروي ـ قبل سنوات من رواية التركية إليف شافاق «قواعد العشق الأربعون» ـ أخبرتَني أنك قرأت الأخيرة.

كيميا عند شافاق شخصية ثانوية لا قيمة لها في ذاتها. عاملَتها كما عاملها جلال الدين؛ أداة لاستكمال الدراما. ادّعت أنها وقعت في حب شمس. ولكي تبرر عشق طفلة لرجل جاوز الستين، ماذا فعلتْ؟ صورت التبريزي رجلًا «يجمع بين السحر والعذوبة، يمنحه شَعرهُ الكثيف المتهدل فوق عينيه وسمرة بشرته وسواد عينيه جاذبية تضاف إلى جاذبية نظرته الغامضة»، زِفْت.. نظرة نسوية سخيفة وخيالية للمتصوف الأسطوري، مهدت لانجذاب كيميا إليه «كما تنجذب الفراشة إلى النور»!

ولمزيد من البهارات جعلت شافاق «جوهر خاتون»،

زوجة الرومي المتوفاة، روحًا تتجلى لكيميا وتحادثها. هي من أخبرتها أن الرومي يتساءل إن كانت ترغب في الزواج بشمس؛ لأنه يخشى أن يغادر هذه المرة بلا عودة. وعليه، سعت كيميا بنفسها إلى جلال الدين وفاتحته في أمر الزواج!

الرومي ـ الذي لم يكن يعرف أن جوهر خاتون باحت بسرّه ـ ظن في البداية أن كيميا راغبة في الزواج بعلاء الدين لأنه طلب الزواج بها من قبل.

إلا أن «العاشقة الصغيرة» تفاجئه برغبتها في الزواج بشمس، الذي وصفته بأنه «قدرها»!

تخشى «كيرا»، امرأة الرومي الحالية من ذلك الزواج غير المتكافئ، وتحذر كيميا قائلة: «شمس درويش متجول، رجل جموح، والرجال أمثاله غير معتادين على الحياة البيتية ولا يصبحون أزواجًا جيدين»، لكن الصغيرة تراهن على منحه «الكثير من الحب»؛ لتجعله سعيدًا و«يتعلم كيف يمكن أن يكون زوجًا وأبًا صالحًا».

إنه خطأ كيميا إذن! وهو كذلك خطأ نساء كثيرات تصفه شافاق بـ«الاعتقاد بسذاجة بأنهن يستطعن بحبهن تغيير الرجال الذين يحبونهم».

بعد زواجها لم تحصل كيميا من شمس إلا على: «أنا آسف يا كيميا، لا أستطيع فعل ذلك»؛ تحاول لفتَ انتباه الذكر بداخله، تلجأ إلى «مومس» في المدينة لتعلمها فنون اجتذاب الرجال، ينفر منها شمس ويغادرها؛ فتسقط مريضة وتموت!

لا تترك لنا شافاق حتى فرصة للغضب من جلال الدين الذي قَدَّم كيميا قربانًا لشمس، أو من الأخير الذي قبل القربان

وهو يعرف أنه لا يجيد ملامسة النساء؛ فالذنب كله في اختيار العاشقة الساذجة الصغيرة!

سقطت شافاق في سحر رواية «بنت مولانا»؛ لم تبذل جهدًا في البحث عن حقيقة ما جرى لكيميا، أو إنصافها، استخدمتها كما فعلت موفروي، رغم فارق التكوين الثقافي المفترض بين امرأة إنجليزية وأخرى تركية متخصصة في الدراسات النسوية!

ما أغرب خيالات النساء! صارت كيميا شهيدة حبها النادر لشمس، وليست ضحية رجلين، ذبحها الأول ولم يذكرها في بيت واحد على الأقل من آلاف الأبيات التي كتبها في عشق الآخر!

في المصادر التي تناولت حياة الرومي وشمس لم تُذكر كيميا إلا بما يكرس أسطورة الرومي: طفلة صغيرة تحلم بالصوفي الكبير وتخاطبه، هي في بلخ وهو في قونية، بينهما مسافات طويلة، لم يلتقيا من قبل.

مصادر أخرى لم تذكرها، إمعانًا في تنصيبها أيقونة لكل من يتعذبون ويرحلون في صمت وسط ضجيج مواكب العظماء.

انصبت كل الروايات على أسباب غياب شمس؛ هل رحل؟ ولماذا؟ أم اغتيل؟ ومن اغتاله؟ لم يتساءل أحد لماذا وافق على التزوج بكيميا وهو موقن من موقفه درويشًا جوالًا؟ لماذا مرضت كيميا بعد الزواج بقليل مرضًا تركها جسدًا بلا روح؟

كيميا مثال لكل روح تدهسها أقدام خيل التاريخ بينما تجتهد في جَرّ عربات المشاهير.

لم يفترض أحد ـ ولو بحسن نية ـ أن يكون غياب شمس

نتيجة تأنيب الضمير لأنه أفسد حياة تلك المخلوقة! الجميع متفقون على براءة الرومي وشمس من ذنب تلك الروح التي قدمها الأول قربانًا على مذبح الأخير.

يا أحمد...

أؤمل النفس بأن تجد بين الناس ما يريح القلب حول كيميا خاتون. وقد انتبهتُ إلى إمكانية وجود ذكر شعبي لها في تركيا كذلك؛ فطلبت من صديق البحث باللغة التركية. وكلي أمل في أن ننتزع حق المخلوقة الضعيفة من أنياب الاستبداد باسم الدين والتصوف والشهرة، وعلى أقل تقدير إنقاذها من تلطيخ السمعة على أيدي الروائيات.

أنتظر لقاء البروفيسور الأفغاني بلهفة، أسافر غدًا إلى أنقرة. وبعد غد إلى آق شهر لزيارة جحا. أريد لهذين اليومين أن ينقضيا سريعًا.

تقبل تحياتي

وليد

(١٨)

حايلت النوم. رجوته أن يسحبني إلى عالمه. إحساسي بأن اليوم ربما يكون الموعد المحدد يكاد يدفعني للجنون. حِرتُ طويلًا هل أحسب اليومين بحساب الليل والنهار، أم بحساب عدد الساعات؟ قررت أن أكون مستعدًّا للاحتمالين. ولكن سواء كان الموعد وفق هذه الحسبة أم تلك، ما المطلوب مني؟ هل ينبغي أن أبادر بفعلٍ ما؟

حسب التوقيت الأول يبدأ الموعد بعد اكتمال ليلين ونهارين، أي في الثانية الأولى بعد منتصف الليلة. معي بعض الوقت. وبما أن كل محاولاتي للنوم فشلت رغم تعبي الشديد من رحلة اليوم الواحد التي قمت بها إلى أنقرة، صرفت ساعات في صياغة الرحلة وأرفقتُها لنوري في بريد إلكتروني.

قبل الموعد بنصف ساعة اتصلت بالاستقبال. رجوتهم إبلاغي فورًا إذا جاءني زائر. سألني الشاب وهو يغالب النعاس: هل تنتظر أحدًا بعينه؟ قلت: ليس بالتحديد. وأضفت: لكن ربما يسأل عني صديق. فقط.. أرجوك أخبرني فور وصوله.

وضعت سماعة التلفون وجلست قرب نافذة الغرفة. لا أملك سوى التحديق في ساعة اللاب توب الرقمية التي استحضرتها لتظل طافية على الشاشة. عيناي لا تبرحان النقطتين اللتين تقفزان مع مرور كل جزء من الثانية قبل أن يتغير الرقم.

قبيل الثانية عشرة بخمس دقائق شعرت بدوار غريب، وتوترت عضلاتُ وجهي. أخرجت بطاقة البروفيسور الأفغاني من جيب الجاكت ودققت فيها كأنها ستقوم بمعجزة. استمر الدوار وغامت الرؤية.

سمعت وقع خطوات تقترب إلى أن توقفتْ قرب باب الغرفة. تنبهت حواسي. وصلني صوت أنفاس تتردد. أصغيت. ثَبتَ إيقاعُ الأنفاس وانتظم. نظرتُ إلى الساعة. أفزعني أنها متوقفة قبل ثانية واحدة من موعد انتصاف الليل ١١:٥٩:٥٩.

بصعوبة أخرجت الموبايل من جيب الجاكت المعلق على ظهر الكرسي حيث أجلس. ضغطت مفتاحه فأضاءت الشاشة. ساعته متوقفة كذلك عند التوقيت نفسه. ألقيت الموبايل على السرير. قررت أن أبادر بالخطوة الأولى. تمتمت كأنما أضع خطة: أقفزُ فجأة نحو الباب.أفتحه وأجذب الواقف خلفه إلى داخل الغرفة، وليكن بعد ذلك ما يكون. لم أجد الشجاعة اللازمة لفعل ذلك. فكرت بطريقة أخرى: أتصلُ بالاستقبال وأسألهم إن كانوا قد سمحوا لأحد بالصعود إلى غرفتي. خشيت أن يسمع الرجل المحادثة من مكانه خلف الباب فيتغير الموقف. قلت: أقوم. أدخل الحمام. أفتح الحنفية وأدندن. أستعمل السيفون ليعلو صوت الماء. يظن الواقف أنني لاهٍ عن وجوده. أخرج من الحمام وأفتح باب غرفتي بهدوء وأستقبله. هكذا لن يظن أنه أخافني. وهكذا أيضًا لا أخيفه فتتغير خطته. قرار سليم. همست مشجعًا نفسي، وهممت بالنهوض.

لم يطاوعني جسمي. لم أكن خائفًا. أقسم لم أكن، وهل يفكر الخائف بمثل هذا المنطق؟ كل ما حدث أنني لم أستطع القيام من

موضعي. ما عدا ذلك كنت قادرًا على تحريك كل قطعة من جسمي. جربت الأمر: حركت قدميّ وساقيّ وذراعيّ، هززت خصري، تمايلت بنصفي الأعلي ذات اليمين وذات اليسار، حركت رأسي دائريًا، أغمضت عينيّ وفتحتهما، حركت أذنيّ وفروة رأسي؛ وهي خصيصة نادرة لا يملكها الكثيرون من البشر... فعلت كل ذلك لكن لم أنجح في القيام من موضعي.

لم أكن خائفًا. أقسم. حتى إن روح الفكاهة غلبتني فرحت أتراقص في مكاني. أطوح ذراعيّ في الهواء كالطائر. اندمجت بعد قليل في تلك الحركة؛ سبّبتْ لي راحة عظيمة سرت من ذراعيّ إلى بقية جسدي. ومن دون قصد وجدتني أضبط الذراعين في موضعيهما كما يفعل راقص المولوية: الكفان مسترخيتان. باطن الكف اليمنى إلى أعلى يواجه السماء. وباطن اليسرى يواجه الأرض. استرخى جسدي وشعرت بخدر لذيذ. أغمضت عينيّ. انطلقتْ في الغرفة همهمةٌ خافتة. سَرَت في جسدي طاقةٌ شعرت بها كومضة تسللت إلى داخلي عبر أطراف أصابع كفي العليا. يقول أصحاب المولوية: اليمنى تقطف ثمار النعمة من السماء وتوزعها اليسرى على الأرض.

«يمكنك النهوض الآن» استسلمت للصوت؛ عرفتُ أنه موجود، سمعت صوت أنفاسه واعتدت انتظامها.

نهضت خفيفًا كفراشة. استعدتُ الوصفَ من الذاكرة «رفرفة طائر نصف مذبوح ملطخ بدمه يتمرغ في الوحل». أملت الرأس المعلقة برقبةٍ نصفِ ذبيحةٍ إلى جهة اليمين، وبدأتُ في الدوران.

قال الصوت: «القدم اليمنى محورك.. ادفع باليسرى عكس عقارب الساعة».

إنه التخلص والتحرر من قيود الزمن؛ لتعود إلى مصدر انبعاثك. تدور حول نفسك. تدور في مكانك. تدور حول الآخرين. يدور الآخرون حولك. إنه انجذاب البعض إلى البعض، كدوران الكواكب حول ذاتها وحول الشمس.

درت مغمض العينين. أصابني دوار لكنني لم أترنح. أشعر بصرير قدمي على الأرض. أسمع حفيف أقدام أخرى كثيرة ويلفحني هواء يدور حولي من كل صوب. أنتمي بكامل كياني إلى الحركة والصوت؛ إيقاعات طبول يقودها ناي، صاجات خفيفة تعبئ الفراغ، رنين أوتار... إنه عود؛ أسمع ذلك الضجيج المحبب لاحتكاك الأوتار بالخشب. وربما هي أنغام قانون! أو كليْهما معًا! اتحاد النغم وتناسقه جعلا التفرقة أمرًا عصيًّا. يأخذني الدوران ولا أترنح. أغوص في عمق سحيق. الغناء المصاحب للعزف شجي متبتل ذائب. كلُّه رجاء. همس لي الصوت:

استمع إلى الناي، وكيف يئن ويشكو، وكيف يشرح الفراق!

ناح الناي متجليًا ثم صمتت الموسيقى. انفرد العودُ بالفراغ. عبّأه بعزفٍ تعاركت فيه النغمات مع صرير الخشب؛ يُصرّ الشجر على إثبات حضوره. أحب هذا المزيج. العزف الهادئ منح صريرَ الأقدام حضورًا أسطوريًّا.

«هل أفتح عيني وأشاهد؟» جال السؤال بخاطري. أجابني الصوت: «وما حاجتك للعينين؟» رقّت نغمة العود. تعالت رفرفات الدوّارين حوالي. ارتفعت هسهسات أنفاسهم وتصاعد حفيف أقدامهم، وعلت أصوات مويجات الهواء التي يصنعونها بدورانهم.

«مُحرّمة هذه الحكمة على من لا عقل له» همس الصوت ثم صرخ: «فمن يشري بضاعة اللسان سوى الآذان؟»

ارتجّ المكان بالموسيقى. لم أفقد صلتي بكل صوتٍ سمعته في الهدأة السابقة. سمعت كأنني أرى. في الغرفة رجال بسترات وتنانير بيضاء تدور حول أجسادهم كالنواقيس. واحدٌ خالطَ سوادَ لحيته الكثيفة بياضٌ. وآخر حليق الوجه له شامة سوداء في خده الأيمن. وثالث ممتلئ الجسم له رقبة تتصل من فرط السمنة بذقنه. ورابع ضئيل كأنه ولد.

في الغرفة نساءٌ؛ لدورانهن إيقاع مختلف. ارتدين الزي نفسه ولكن بألوان عذبة ورقيقة؛ واحدة ارتدت لونَ السماء الشفيفة في صبيحة صيف رائق. وأخرى اختارت لون البنفسج في مستهل معانقته للبياض. ثالثة بدت حمراء كشفق ذائب في كأس حليب. الرابعة صفراء كأصغر وريقة في قلب نبتة خسّ يانعة.

صاحبة لون السماء فتاة صغيرة، رشيقة القدّ، بيضاء، لها شعر قصير بالكاد يداعب كتفيها، لعرقها رائحة توابل حِرِّيفة.

البنفسجية امرأة، صدرها عامر بثديين مكتنزين يثقلان ذراعيها في تعلقهما فيسري فيهما خدر تنساه بعد قليل.

الحمراء الشفقية خمسينية غادرت ألقَها منذ زمن قريب، عنيدة تتشبث ولا تتخلى.

الصفراء طفلة... أو هي... ولد، غلبني الفضول؛ كدت أفتح عينيّ لأتحقق، ارتفع الصوت: «السماعُ قوتُ العاشقين، من خلاله يتحقق الوصال، وبه تقوى خيالات الضمير، وتتحول إلى صور».

تراجعت أصوات الآلات إلى الخلفية وعاد الناي يقود الموسيقى.

جاء باكيًا ملتاعًا. خفق قلبي. سقط في قدمي اليسرى ودار معها. غالبتني نفسي. سمعت صوتي يصرخ في أذني: الصفراء طفلة.. الصفراء ولد.. الصفراء... كيميا. فتحت عينيَّ على اتساعهما.

الغرفة شديدة العتمة. الضوء الوحيد صادر عن ساعة اللاب توب الفوسفورية وهي تطفو على سطح الشاشة المعتمة. دققت النظر: ٠١:٠٠:٠٠. لا شك في أن حسابي للموعد لم يكن صحيحًا. ينبغي أن أنتظر وصول البروفيسور الأفغاني وفقًا للحسبة الثانية. معي يوم كامل. إنها فرصتي لزيارة جحا العظيم.

عزيزي نوري

زرت اليوم جحا. عدت من هناك للتو. لا تندهش من تحمسي لزيارته. يكفي أنه جحا☺

هنا ما دونته خلال الرحلة. هي أحد أهم الأمور التي قمت بها. أرجو أن تشاركني الرأي وألا تتأثر بغضبك لعدم نجاحي- حتى الآن - في تقديم كتابة محلقة في سماوات مولانا. فلم ينبت جناحاي بما يسمح لي بالتحليق في سمائه. ولكني - في الحقيقة - سعدت بالركض على أرض جحا الرائع.

كن بخير/ وليد

في الطريق إلى مولانا (٥)

أول اسمين لفتا انتباهي على الطريق من قونية إلى آق شهر: إسبرطة، وشير مركز. الاهتمام بالمساجد يفوق الوصف؛ كأنها قصور فخمة. تبدو إلى جوارها المنازل على فخامتها عشًّا متواضعة. بدت أمامنا جبال داغ، وتركيا من الناحية الجيولوجية جزء من حزام جبال الألب الكبير الذي يمتد من المحيط الأطلسي

إلى جبال همالايا قال السائق: هذه داغ يقدم القارب. هل فهمت الأولى لأيام الثلاثة؟ أشعر كأنني «أليس» في بلاد العجائب. كل الأشياء غير طبيعية. تستوقفني هذه الفكرة: لا شيء في الكون طبيعي من الأساس، الطبيعة نفسها ليست طبيعية. إلا أننا اعتدناها فتوقفنا عن التفكير فيها ثم في ما أدهشنا! السفر يعيدنا إلى دهشتنا الطفولية. تصبح كل خطوة جديدة. كل صخرة جديدة. كل شجرة جديدة. كل مبنى صالحاً لأن نطالعه بعين جديدة. في السفر نتأمل ونتعجب وندرك أننا ما زلنا قادرين على الاندهاش. نخرج من قوقعتنا التي سبكتها العادة حولنا؛ ننظر ولا نرى. نشم ولا نتساءل. نلمس ولا نشعر. في السفر تعود الحواس للعمل من جديد. تتحرك الطاقات المعطلة وتصحو الغرائز الفطرية التي اعتقدنا أنها ماتت.

بدت الغيوم في السماء وكأنها دخان رمادي كثيف. يا إلهي! لا شك في أن الغيوم فوق منزلي «تكثفت كالدخان الرمادي» أكثر من مرة. لا بد أنني اندهشت لها وأشرت إلى ولديّ ليطالعاها ذات مرة من زمن طويل. ولكني هنا الآن أراها بعين الغريب وأندهش.

قباب المساجد باللون الفضي اللامع، والجدران بالأزرق الملكي والرمادي أو الرصاصي. طراز القباب ثلاثي؛ ثلاث سماوات مقلوبة متجاورة. لماذا أزرق ملكي؟ لماذا رمادي ورصاصي؟ لماذا القباب باللون الفضي؟ ولماذا ثلاث قباب؟ تتوالد الأسئلة في العقل. تذكرت عادتي في السفر وأنا صغير.. أقاوم وَشيشَ التساؤلات في عقلي بالعدّ؛ كنت أحصي أعمدة الإنارة التي تتراكض على الطريق عكس اتجاه السيارة، أدخل في تحدٍّ صامت أختبر فيه قدرة عينيَّ ومخي على ملاحقة الأعمدة،

وأحيانًا الأشجار التي تركض سريعًا على الطرق الزراعية. في الليل كنت أعد المطبات سرًّا. داخل المدن.. أعد علامات الطريق البيضاء المتقطعة، وفي النهاية، يصمد سؤال ـ وأحيانًا أكثر ـ أمام الحيلة الفطرية ويظل يؤرقني.

في دبي وفي أبوظبي؛ حيث أعيش منذ عشرين سنة، مساجد كثيرة متعددة الأشكال والألوان، معظمها فاره ومميز. لم أتوقف أمام أي منها بالتساؤل؛ لأنها في العادة مجرد انعكاس لرغبات بسيطة في تنويع الأشكال المعمارية، تساعدها الوفرة المالية، أو رغبة في التميز أو المباهاة. هنا في تركيا، وفي مصر كذلك، الأمر مختلف؛ وراء كل تنويعة حدوتة وتفسير ثقافي أو ديني أو حضاري. كل لون، كل انحناءة، كل ارتفاع أو انخفاض، لا بد يطوي خلفه حكاية بطعم البشر. لذا وجدتني أعود لطفولتي وأحصي المساجد بدلًا من أعمدة الإنارة أو الأشجار على الطريق. هنا يمكنك أن تقضي عمرك في تدوين قصص ما وراء الأشكال والأحجار ولن تنجح في طرد التساؤلات ولو صرفت عمرك في العد.

مررنا بمكان أشار السائق إليه وقال: «بوسنة هرسك»، في اللحظة ذاتها لمحت لوحة تحمل الاسم نفسه. لم يُفلح في تفسير الاسم ولا سر اهتمامه به. تبدو الكثير من الأماكن ضواحي حديثة البناء بعمارات جديدة متشابهة وبألوان فاقعة بين الأحمر والأصفر والأخضر. الأسماء على الطريق: «أفيون، شارايون».. إيحاءات غريبة. الطريق يتواصل بموازاة سلسلة جبال تحتل المشهد بأكمله على يسارنا. ينتهي العمران بالجامعة السلجوقية بالقرب من فندق ديكسوس. تتناثر بعد ذلك بعض التجمعات السكنية يتصدرها

عادة مسجد رائع في عمارته. تختلف عمارة المساجد باختلاف المناطق، أو هكذا بدا لي؛ إذ اختفت بعد قليل القباب الثلاثية ذات اللون الفضي الباهر والجدران ذات اللونين الأزق الملكي والرصاصي لتتخذ المساجد أشكالًا أخرى، راحت تختلف مع كل مسافة نقطعها على الطريق.

«داغ» كما أسماه السائق يبدو لي مجموعة مترابطة من التلال أو الهضاب الضخمة. من فرط ضخامته وبُعده، يكاد المشاهد ينخدع فيظنه غيرَ مرتفع. إلا أن الثلوج التي تكلل هاماته تؤكد أنه يطاول السحاب بارتفاعه الشاهق.

مروج خضراء بها أشجار متناثرة تشكل سفح «داغ» أصبحت الآن على اليمين واليسار. علامات على الطريق: لاذقش، سارايوني، خضني هني، إلقن، آق شهر ثم أفيون وبعد ذلك إستنبول وإزمير.

على الطريق يتكرر وجود شجر العاج، «سعودي عاجي، وتشامي عاجي» كما قال السائق مفرقًا بين نوعين أحدهما يحتفظ بكامل خضرته، بينما الآخر شجراته جرداء وجافة.

لم يعرف السائق أي شيء عن «جحا». يعرف أن الشخص الذي نقصده هو نصر الدين خوجة. اجتهدَ ليشرح لي كيف أن خوجة هذا كان يركب «حيوانًا»، يقصد حمارًا؛ نظرًا إلى عدم وجود سيارات في ذلك العصر. وأن له «تربة» في ذلك المكان يزورها الناس «زيارات» ويعتقدون في بركتها «بيرام». ظهرت على يسارنا غابةٌ كثيفة من الـ«تشام عاجي» تكسو تلال الجبل قبل مدينة «لاذق» LADIK مباشرة.

يتفرع الطريق من هنا إلى فرعين؛ على اليمين أنقرة، بينما

«داغ» المهول يحتل بسطوته الجانب الأيسر من الطريق. تبدو على الجانب الأيمن أرض منبسطة يبدو أنها مزروعة بشكل نظامي. يلتقط السائق أفكاري ويخبرني بأن النباتات المزروعة هنا هي «بوادي» أو «بوداي» مجتهدًا في أن يشرح لي أنها «أكل». بدت لي حشائش قصيرة، ربما هي قمح في طور النمو! انتبهت على زمارة طويلة من السائق ارتفعت على أثرها مجموعة كبيرة من الطيور السوداء كانت تمرح أمامه لاهية على الطريق، قال باسمًا: «قوش».

بالقرب من مدينة أو قرية «خضني هني»، توقفنا لالتقاط بعض الصور. أدركت كم أن الطقس خارج السيارة شديد البرودة حين لفحتني نسمةٌ كأنها سهم ينغرز في وجهي بمجرد أن أطللت خارج باب التاكسي؛ فارق الحرارة بين مكيف السيارة والطقس في الخارج كان كفيلًا بفعل ذلك. لازمني بعدها صداع شديد. أحسست بألم في بداية الفك تحت أذني اليسرى كأنه قادم من داخل الأذن. راح ينبض ويؤلمني.

تبدو الجبال على يميني الآن من بعيد وكأنها قطع من البِلُّوْر عكست تيجانُها الثلجية أشعةَ الشمس التي تخايل باستحياء عبر عمامات الغمام الرمادية. كأنما نداء من ضوء يأتيك من عمق المشهد الذي تُكمل بهاءه الخضرةُ في السهول. ضوء سماوي لكنه صاعد من عمق الأرض راسمًا علاقة حميمة بين السماوي والأرضي، لا يشبهها شيء سوى العلاقة التي تشكلت عبر التاريخ بين السماء بمعناها الروحي، وأرض الأناضول.

إلغن: مصنع السكر؛ دخان كثيف يتصاعد من مداخن تفسد

المشهد. زاوية صلاة صغيرة بقبّة متقنة ومئذنة رشيقة. لكل تجمع سكاني إصبع تشير نحو السماء، وقبة تتشبه بها.

بداية من إلفن شهير مركزي، عادت المساجد ذات القباب المفضضة مرة أخرى. هل لهذا الطراز من العمارة علاقة بالمدن والحضر، بينما المئذنة الرفيعة والقبة الخضراء من نصيب الريف، أم أن للأمر علاقة بطوائف دينية تتوزع جغرافيًّا في هذه الأماكن؟ لم أفلح في انتزاع إجابة شافية من سائقي الفَخور بفترة عمله في السعودية وإجادته التواصل بالعربية!

آق شهر «Akšehir» ٤٢ كيلو. كثافة السحب تحجب الشمس. تبدو الأرض ظليلة كأنها صالة ضخمة مغطاة. تنجح الشمس أحيانًا في اختراق مساحة رقيقة من السحب لتسلط ضوءها على بقعة محددة فتبدو من بعيد كأنها مضاءة بنظام البقع الضوئية «spot lights» المستعمل في المسرح.

«كيرازاج» اسم آخر لمكانٍ على الطريق. تبدو السماء هنا رائقة للغاية؛ بُقع اللون الأزرق في السماء المكسوة بالسحب البيضاء الحليبية تبدو وكأنها فصوص فيروز في قطعة من الحلي العاجي أو الفضي. ليس غريبًا إذن أن تكون النقوش في المساجد الكثيرة والكنائس القليلة التي مررتُ بها مستوحاة من هذين اللونين ومعهما الأخضر المقدس.

توقفنا في محطة لتعبئة الغاز. تعمل سيارة الأجرة على نظام الغاز المضغوط. كان للبخار المتصاعد من كوب الشاي في يد عامل المحطة تأثير السحر. ارتبكت وهو يعرض عليَّ بإشارات من يديه أن يُضيّفني بكوب شاي؛ كيف أشرح له أني أشربه بلا

سكر؟ قلت: «بدون سكر». هزّ رأسه وابتسم بشكل لا يدع مجالًا للشك في أنه لم يفهم. حاولت بالإنجليزية: No sugar please. حصلت على الهزة نفسها مع ابتسامة أعرض اشترك فيها «يسّار» السائق الذي تدخل محاولًا مساعدتي. بدا أنه هو الآخر لم يدرك مقصدي. كررت لهما بلغات متعاقبة: «من غير سكر، نو شوجار، شُكَر نيه... نو شاكار». في النهاية وجدت أن الحل الأفضل أن أصحب الرجل إلى حيث يعد الشاي فأشير إلى السكر مستخدمًا لغة الإشارة أو أن أرفع علبته وأبعدها مثلًا. أخذت ذراعه في ذراعي ومضينا. كانت ابتساماته تخفف من وطأة الموقف، وكنت في حاجة إلى كوب الشاي الساخن. قررت أنني لن أتنازل عنه حتى لو جاءني متخمًا بالسكر. بعد خطوتين فقط مع العامل اللطيف، سمعت صيحة يسّار. قال من دون أي مقدمات وهو يهلل: «شوكار نو»، ثم قفز أمامنا كقرد سعيد. نقل المعنى الذي وصله متأخرًا إلى عامل المحطة بكلام كثير. كان يشير نحوي خلال حديثه مرددًا كلمة «مسافر»، بدت لي الكلمة كأن يسّار بالعامية المصرية «بيشحت عليَّ». دخلت في نوبة ضحك أفقتُ منها على إحساس غريب بوقع الكلمة على أذني. بدا غريبًا كأنه خارج للتو من روايات ألف ليلة وليلة. لم تعد تلك الكلمة «مسافر» التي نستعملها في عربيتنا اليومية. في هذه اللحظة بدت طِلْسمًا غامضًا يلفه إيقاع ساحر. المسافر هو الغريب الذي لا يعرف لغة القوم. المسافر هو ذلك الكائن الذي يبذل جهدًا كبيرًا في أشياء تبدو بسيطة وعادية. هو الذي يحتاج إلى العون والمساعدة والصبر من أهل المكان. هو ذلك التائه والجوال الذي يقصد شيئًا فينال غيره. هو أنا السعيد والمندهش

والمنبسط بهذه الحال. هو أنا في رحلتي إلى الرومي في بلد لا يجيد أهله سوى تركيتهم. هو أنا في رحلتي إلى آق شهر، تربة الصالحين ومدينة جحا الذي ملأ الدنيا سواء كان هو نصر الدين خوجه الذي يرقد هنا، أو جحا العربي أو الفارسي، أو أيًا من كان. إنه رمز واضح لقدرة الإنسان على الحياة.

بدت لي الأشجار في الطريق الموصل إلى مدينة جحا مختلفة: جذع رشيق فاتح اللون ينطلق من الأرض بانسيابية، ثم ينفرج إلى غصنين اثنين لا أكثر، أحدهما إلى اليمين والآخر إلى اليسار. كأنهما ذراعا إنسان مبتهج يهلل معبرًا عن فرحه، أو عابد يبتهل بشوق إلى إلهه. أو كأنهما ذراعا راقص مولويّة منهمك في نفي علاقته بالأرض وتأكيد صلته بالسماء. إنه بالتأكيد خيالات زائر سعيد بزيارته لجحا. لكن هذه الأشجار التي تشبه «السعودي عاجي» التي أخبرني عنها السائق منذ قليل، بالفعل مختلفة. ليست هي. حتى إن السائق نفسه قال إنه لا يعرف لها اسمًا. إنها: «بس عاجي»، يعني مجرد أشجار.

للسماء، هنا قبل سبعة كيلومترات فقط من تربة مولانا نصر الدين خوجه «جحا»، لون الفيروز المضيء. السحب أكثر كرَمًا. تسمح للشمس بمزيد من الحرية ليخايلك الفيروزي والأزرق الملكي من بين الفُرجات مضيفًا إلى المشهد قدرًا أعلى من الضوء والبهجة.

في الثانية عشرة والربع كنا ندلف إلى مدينة آق شهر. اكتشفت أن التمثال الذي شاهدته من نافذة الباص خلال رحلة القدوم لم يكن فوق قبر جحا، إنما يعلو مبنى محطة الباصات. قبر جحا داخل «قبرستان»، أي مقبرة المدينة العمومية التي ترقد في حضن جبل «داغ».

تتوسط «تربةُ» جحا المقبرة، محاطة بسياج بسيط من الحديد المشغول، تُغطّيه قبة هرمية فيروزية اللون تشبه القبعة الصينية. يرقد الرجل في هدوء من دون مبالغة. أمامه لوحة تعريفية باللغتين التركية والإنجليزية. حين سئل جحا عن مركز الدنيا، قال: «حيث يقف حماري». ومكان حماره محدد جوار قبره بقرص معدني كُتبت عليه بالتركية جملة تعني «مركز الدنيا» Dünyanın Ortası burasdir. وقفتُ مكان حمار جحا. شعرت أنني في مركز الدنيا؛ ما أجمله من إحساس حتى لو كنت حمارًا!

بينما أنا واقف، منتشيًا باللحظة، وسلمان يلتقط صورتي، مرت جنازة. انتبهتُ إلى أن وقفتي صارت محل اهتمام كل المشاركين. معظمهم رجال، كبار في العمر. لفتني أنني الكائن الحي الوحيد الذي يرتدي الجينز؛ الجميع يرتدون بنطلونات صوفية رمادية اللون ومعاطف طويلة أو جواكت قصيرة من اللون نفسه وإن اختلفت الدرجات؛ كأنه زي موحد! ارتبكتُ. رفعت إصبع التشهد في ردِّ فعلٍ آلي كنوع من مشاركة أهل المتوفى وأصحابه العزاء، كما جرت العادة في أرياف مصر وأحيائها الشعبية. لا بد أن شكلي كان مسخرة؛ أقف بالجينز وسط مقبرة المدينة، مكان حمار جحا، محاولًا التوازن على قرص معدني صغير، رافعًا إصبع التشهد بينما جنازة تمر أمامي! كوميديا متكاملة الأركان. حَلّت بركات جحا! أجَّلت الضحك على نفسي إلى أن اختفت الجنازة في عمق المقابر. التفتُّ إلى يسَّار وسلمان وأشرتُ إلى نفسي وقلت: «مسافر.. مسافر»، واشتركنا في نوبة ضحك مكتوم.

من أغرب المصادفات أن نتفق، جحا وأنا، في يوم الميلاد؛

فالخوجه نصر الدين ـ مثلي ـ من مواليد ١٥ أكتوبر. وفي هذا اليوم من كل عام يحتفل أهل المدينة ويقيمون طقوسًا احتفائية به. إنه مولد سيدي «جحا». نشترك؛ نصر الدين خوجه وأنا في يوم الميلاد ويشاركنا الرومي ـ مواليد ٣٠ سبتمبر ـ البرجَ نفسه؛ برج الميزان!

آق شهر بلد رائع الجمال. بساطة ونظافة. الشوارع ضيقة مرصوفة بالحجارة السوداء. تبدو المدينة للناظر إليها كأنها فناء أو حديقة بيت ضخمة. أسوارها جبل داغ العظيم. بالقرب من الجبل تتراجع الدهشة، ويختفي الجلال. مجرد كتل حجرية يمكن تسلقها. شقَّ البشر فيه طرقهم وزينوا عظمته بدرجات متناسقة ليصنعوا جلسات ويبنوا استراحات وبيوتًا ومطاعم تحيطها أشجار الصنوبر التي تحولت بدورها إلى مادة بناء خام أبدعت اليد البشرية في استخدامها.

في واحدة من هذه الإبداعات، جلسنا فوق الجبل؛ مطعم ضخم الحجم دقيق البناء مصنوع كله من أشجار الصنوبر بطريقة التعشيق. يمكنك أن تراقب زوايا التقاء الأخشاب وتتأكد بنفسك أنها تحتضن بعضها البعض من دون عون مسمار أو حبل. درجات السلم مصنوعة من الخشب بالطريقة نفسها. كذلك الأرضيات، والسقف، والطاولات، والمقاعد، والثريات المدلاة من جذوع خشبية منحوتة بمهارة. ابتسمتُ ومازحتُ يسّار بتخوفي من أن يكون الطعام أيضًا خشبيًّا! اللطيف في يسار أنه لا يعترف بأن ما يتحدثه ليس لغة عربية، ولا يقر بأنه يعتمد على «الفهلوة» أكثر من الفهم. وهو ما يتسبب أحيانًا في كوارث أتعامل معها بمنطق «المسافر». ولكن كيف يستقبلها الآخرون؟ أستمتع مثلًا بأن

نضيع في الطرقات لساعة أو أكثر وهو يدّعي أن هذه هي الطريق الوحيدة. أو أن يخبرني بشيء ثم نكتشف عندما نصل إلى المكان أن الحقيقة على العكس تمامًا مما يقول. إجابة يسّار على مزحتي بأن الطعام سيكون من الخشب خرجت من مساحة فهلوته تلك؛ صاح مؤكدًا: «لازم.. لازم..زاروري». يقصد ضروري. هذه المرة لم أدَّعِ الجدية تجنبًا لإحراجه. بل سقطتُ في ضحك خفتُ ألا أنجح في الخروج منه أو تفسيره باللغة شبيهة العربية التي نتبادلها. ولكنني سرعان ما خرجت عندما وصل النادل تصحبه موسيقى صياح الأرض الخشبية تحت وطأة ثقله. نادلٌ من الحجم العثماني المهيب. له شارب شديد الكثافة على وجه أحمر شديد الطفولة. هذا المشهد كان كفيلًا بتحويل طُرفة يسّار إلى ماضٍ باهت الظل.

المطعم دافئ. له رائحة الخشب. الإضاءة موزعة بطريقة تعزز هذا الشعور. كنا ثلاثتنا ـ يسّار السائق، وسلمان المرشد، وحضرة شخصي المندهش من كل شيء ـ اخترنا طاولة قرب نافذة تطل على الجبل وأشجاره مثلثة القمم.

ابتسم النادل ونقل نظراته بين الوجوه الثلاثة، واختار-للعجب- أن يوجه حديثه لي! أنقذني سلمان الذي شرح له الموقف وتبادلا الحوار. وسرعان ما شاركهما يسّار الذي بدأ يُغريني بعربيته «المدهشة» بمشاوي آق شهر العظيمة. ويقترح أن نطلب «شواية». في الواقع لم أكن في حاجة لإغراء أو إغواء. وافقت وطلبت كميةً ضِعْفَيْ ما اقترحه. اتسعت حدقتا عينيه وتبادل نظرة غريبة مع سلمان الذي تلون وجهه بخجل واضح. لم أفكر في فهم ما يحدث؛ كنت

مرتاحًا للأجواء راغبًا في إرضاء نفسي والرجلين بوجبة شهية حتى لو كان سعرها هو ما أربكهما.

مستغرقة في تأمل المنظر من النافذة؛ طبيعة صامتة. كأنك تتطلع في لوحة مهيبة. نسمات الهواء ضعيفة للغاية. السماء صافية إلا من عدة سحابات بدت كأنها مثبتة في أماكنها. لا يقطع هذا الثبات سوى طائر قرر أن ينتقل فجأة بين شجرتين ليختفي سريعًا كما ظهر، أو حشرة-وربما ثمرة جافة-تهوي من غصن إحدى الأشجار.

تقترب أحد الجرسونات. وضع على الطاولة أمامنا زجاجات عصير نيئية اللون. ظننتها للوهلة الأولى عصير عنب أحمر أو توت أو ربما كركديه. التقط يسّار واحدة. فتحها بشوق. وسرعان ما أتى على محتوياتها. التقطتُ زجاجة. قرأت الاسم على الورقة الخارجية «شراب الشلجم». أما المكونات، فهي: ماء صافٍ، جزر أحمر، فجل الشلجم «شمندر»، ملح، برغل، فلفل حار. فتحت الغطاء وتذوقت المزيج. إنه ما نطلق عليه في مصر «الويسكي البلدي»، أو بعبارة أخرى «ماء الطُّرشي»، فاتح شرعي للشهية.

وجاء موكب المشاوي. صاحبُنا النادل العثمانلي الفخيم يقود العزف بقدميه على أخشاب المطعم. يتبعه ثلاثة جرسونات يستكملون النغمة الرئيسية. ظلوا مختفين خلفه-وكذلك نغماتهم - إلى آخر لحظة. اثنان منهما يحملان «منقل» فحم نحاسيًا مزخرفًا تتصاعد منه الأدخنة. تتوسطه شعلة نار يتراقص لهيبها بمزيج من اللونين الأحمر والأزرق. ترتاح بين الأدخنة

وحول النار قطع اللحم والدجاج تتوسطها ثلاثة طيور مشوية وبعض الخضراوات.

توقف النادل وأفسح المجال لحاملي الشواء. أنزلاه بحرص على الطاولة. وتبعهما الثالث بعدد من أطباق السَّلطات والخضراوات. كانت يد يسّار أول يد امتدت وافتتحت الطعام. بدا جائعا وسعيدًا. طلبت من سلمان أن يبدأ الأكل. خفت أن يمنعه خجله فلا يترك له يسّار شيئًا. نقلت له ذلك بالإنجليزية فابتسم وتشجّع. كانت الوجبة عظيمة بحق؛ ليضاف الشواء على الطريقة الأقشهيرية إلى قائمة ما استمتعت به من أكلات.

جاء لقاؤنا بسلمان مصادفة في قبرستان. فبينما أدور حول ضريح سيدي جحا، توجه ناحيتي مباشرة. مد يده لمصافحتي، شاب لا يتجاوز عمره التاسعة عشرة. بدا مرتبكًا. صافحته. قال اسمه ثم شرح لي بإنجليزية متهالكة أنه يدرس السياحة في جامعة آق شهر. قال إنه يتعلم الألمانية لكنه لا يجيدها. وأوضح أن إنجليزيته كذلك أقل من متواضعة، وهو يرغب في أن يصحبني في جولة سياحية في المدينة يطور خلالها إنجليزيته ويكسر حاجز الحياء الذي يقيده. قال إنه تردد وأحجم عن خطوته هذه أكثر من مرة ولكن شيئًا ما في هيئتي شجعه. أهلا يا سلمان، قلت له، سوف نتحدث الإنجليزية وما يستعصي علينا فلنكمله بلغة الإشارة. وصرت، حين أفشل في فهم الوجهة التي يود أن يصحبني إليها، أُهوّن عليه وأطلب منه أن يسير ونحن وراءه، وهناك لا بد سنجد طريقة للتواصل.

قبل وجبة المشاوي الفاخرة، زرنا عدة تماثيل لجحا موزعة

في ميدان يخصه. تماثيل برونزية ضخمة متقنة الصنع تمثل بعض حكاياته وطرائفه الشهيرة: قصة الوعاء الذي يلد، تمثال له وهو على حماره بالمقلوب، وآخر وهو يقطع جذع شجرة بينما يجلس على طرفه. وغيرها. مررنا بعد ذلك بجامع «الأبلكجي» في ميدان أقشهير الرئيسي حيث ينتصب تمثال ضخم لأتاتورك.

بعد المطعم أكملنا «الزيارات» بصحبة سلمان. زرنا الكنيسة الأرمينية. اصطحبنا إلى زاوية صغيرة قديمة قال إنها لدرويش Darvish اسمه (أيوب) يزوره الناس لالتماس البركة. الضريح وسط البيوت. يذكرني بأضرحة أولياء الله التي تتناثر بين البيوت في أرياف مصر وأحيائها الشعبية. قمت كذلك بجولة داخل بيت أقشهيري تقليدي يمثل نمط الحياة في آق شهر قديمًا.

التجول مع سلمان مدهش؛ لأنك لا تعرف إلى أين تذهب إلا بعد وصولك. فاجأنا مرة بعد جولة في الحواري الضيقة بالتوقف أمام ضريح مبنيّ من الطوب الأحمر. بعض جوانبه متهالكة وقيد الترميم. أمامه جمّع إنجليزيته وقال إنه تربة سيدي محمود، أستاذ نصر الدين خوجه الذي تفقه على يديه.

الغريب أن معظم المنتجات السياحية التي تباع هنا مصنوعة في الصين. بالكاد نجحت بمساعدة سلمان ويسّار في أن أشرح للباعة أني مهتم بالمنتجات محلية الصنع واليدوية منها تحديدًا. كانت قليلة للغاية وغير متقنة. اخترت منها ما يناسب ميزانيتي وذوقي.

بإلحاح شديد، وافق سلمان على قبول مبلغ ١٥ ليرة. قبلها بخجل حقيقي احمرت له وجنتاه. اجتهد كي يشرح لي أنه هو من كان يتعلم. قلت له: تعلّم أيضًا أن لوقتك ثمنًا. ابتسم وقال إن هذا

أول أجر له كمرشد سياحي. صدقته وودعته. وانطلقنا عائدَيْن ـ يسار وأنا ـ إلى قونية مرة أخرى. من رحاب سيدي جحا إلى رحاب مولانا الرومي.

لحظة خروجنا من المدينة كان الأفق يرتدى لباسًا من النحاس المصهور. وبدأت العتمة تفترش الطرقات رغم أن الساعة لم تتجاوز الرابعة عصرًا.

لم أرَ من قبل الضوءَ في درجات كتلك التي شاهدتها على طريق العودة من آق شهر؛ فُرجات السماء التي تتسلل منها الشمس تمنحك شعورًا بأنك تتنقل على الطريق بين الصباح والمساء. مساحة معتمة يظللها غمام كثيف لا يسمح للشمس بالمرور، تعقبها مساحة أطلقت الشمسُ فيها أشعتها بكثافة مبهرة كأنما تنتقم من الغمام. تكسرات الشمس على زوايا الجبال والهضاب وانعكاساتها على تيجان الجليد تصنع خليطًا رائعًا من الضوء، تشكلاته تمنحك شعورًا بأنك داخل عالم من صنع الخيال. عالم خرافي، يفسر روعة الأساطير التي أبدع هؤلاء الأقوام في تفسير الكون من خلالها، ويفسر لماذا كانت هذه الأساطير أقوى حتى من الأديان.

هل تهاجمني الآن جنياتٌ صغيرة مخلوقة من نور وثلج؟هل يهبطن من مرتفعات «داغ» وينفخن في وجهي مسحوقًا جلبنه من كهف النور السحيق، فأتحول إلى جني، أو ربما إله... يختطفنني ويرتقين بي قمَّة جبل لا أعود منها أبدًا؟

(١٩)

ببطء أنزلتني الجنية الصغيرة فوق صخرة ملساء، ترفقت بي وضمتني بجناحيها إلى أن تمكنت من التوازن، الجبالُ هي كل ما يمكن رؤيته من أي صوب. السماء مجرد أضواء ملونة منسكبة على حواف صخور غسلتها وبعثرت أطيافَها قبل السماح لها بالمرور.

في حضن أكثر الجبال ألفةً، يرقد ـ كعملاقٍ مهيب ـ كوخٌ خشبي عريض، لا تتكشف للرائي ضخامته إلا حين يصير بجواره، فيشعر كم هو ضئيل قرب بيت يبدو من بعيد وضيعًا كنملة ضلّت الطريق بين أجرام الجبال الباسقة.

هناك، خلف ظِلّ كيميا، رحتُ أعدو متقطع الأنفاس، مأخوذًا بتغيرات الضوء المفاجئة والسريعة.

مرقت كيميا برشاقة عبْر باب الكوخ الخشبي الشاهق. تبعتْها عنزتُها. كيف زحزحت هذا البابَ المهيب بجسمها الرقيق؟ انزلق بنعومة تاركًا لها شَقًّا صغيرًا بالكاد سمح لها بالمرور إلى الداخل، فغابت عن عينيّ.

وقفتُ أغالب ترددي. طالعت المكان من حولي؛ خمس نساء يركضن كالنحلات في الساحة الصخرية الواسعة، منهمكات في أعمال تبدو شاقة. من مكاني، بدت هيئاتهن كأشباح راقصة، يرحن ويجئن، يسحبن أشياء ويلقين أشياء، ينحنين ويستقمن،

يُظلّلن أعينهن من ضوء الشمس، يمسحن جباههن، لا يشغلهن سوى العمل.

الكوخ من طابقين تعلوهما ثلاث مداخن حجرية، لا بد أنها بُنيت قبل بناء الكوخ نفسه. أتخيلها بأساسات ضخمة في الأرض تعلوها مدافئ ومواقد. النار أساس الحياة في هذا المكان البارد. أعمدة الدخان الثلاثة تنطلق كأنها حبال مشدودة إلى السماء. لفحتني رائحة دماء خفيفة فرضت حضورها على أنفي أكثر من مرة. نبهتني الرائحة إلى مصدرها حيث تتجاور أكوام من جلود حيوانات، في الغالب أبقار.

أكوام حمراء من جلود البقر، محاطة ببحيرات صغيرة من سوائل فقدت لونها من كثرة ما تخلطت فيها الألوان: دماء متخثرة، دهون صهرتها حبيبات الملح الحجرية القاسية، عرق بشري، قطرات ندى، ومياه غسيل.

راقبت النسوةَ يسحبن من الأكوام القطعة وراء الأخرى. ينشرنها عبر الساحة الصخرية الوسيعة. تبدو الساحة سجادة ضخمة من جلود البقر. تنعكس أضواء الشمس على بياض ما تبقى من دهون، وتترقرق على أسطحها دماء وردية مزجتها الحرارة بعصارات حيوانية لزجة.

سمعت صريرَ الباب. خطوت مدفوعًا بالفضول. دفعته قليلًا وعيناي منشغلتان بنقوشه الملونة الزاهية، فانفتح. غمرتني روائح توابل وزهور. لا بد أنهن يستعملن هذه الأعشاب العطرية لكسر روائح العفونة والدماء. يحتاج الأمر إلى خلطات منضبطة المقادير. يحتاج كذلك إلى مراقبة صارمة لمواقيت التمليح والتقليب

والتنشير في الشمس. رأيتهن يتحركن بالجلود صوب البقع التي تنيرها الشمس، متبعاتٍ إشارات امرأة بدت أطولهن.

سمعت ثغاء العنزة في الداخل. تحركتُ صوبه. همستُ بشغف: كيميا! تردد ثغاء العنزة. اقتربتُ من مصدر الصوت خلف باب غرفة تزينه نقوش دقيقة التكوين وبهيجة الألوان. دفعتُ الباب بخوف، فانفتح.

عينا المرأة العجوز المتكومة تحت النافذة في عمق الغرفة كانتا تعكسان ضوءًا يتسلل عبر فتحات تهوية ضيقة في أعلى الجدار. جسدها الضئيل يشبه جسد كيميا الجالسة قربها.

رأتني كيميا. أشارت بيدها أن قف حيث أنت. همستْ في أذن المرأة بكلمات فتألقت عيناها ورقصت ابتسامة عذبة على شفتيها الجعدتين. وضعت كفًا رقشته الحناء على رأس كيميا فابتسمت وبدأت الكلام؛ الصوت واهن وبعيد. لكني أسمعه. اللغة غريبة. لكنني أفهم.

«أخبرتني أمي أنها من أسرة زرادشتية. قالت إنها واحدة من عائلات قلائل احتفظت بدين الأجداد رغم تغير الأزمنة. لم تخبرني مطلقًا كيف تحولت هي إلى المسيحية ثم تزوجت بعد ذلك مسلمًا! نحب الحكايات ولا تنتبه إلى الأسئلة. تبدأ كل مرة من عند القصة الأولى».

خطوتْ صوب مجلسهما فاستوقفتني كيميا بإشارة من يدها وتحوّلِ في بريق عينيها. توقفتُ بساق إلى الأمام وأخرى علقت قبل اللحاق بها. وضعت كيميا كفها على ركبة العجوز واستكملت حكايتها.

«وأنا طفلة سمعتُ جدَّتي الكبرى، وقد أزالَ العمرُ الخوفَ من قلبها، تخبر النسوة أنها لم تكن يومًا إلا زرادشتية. لا تترك أمي خيوط الصوف من يديها. تحكي بإيقاع سريع. أشعر أن كلماتها رقصة تؤديها على إيقاع مغزلها بين كفيها الدقيقتين. ظلت جدتي حتى آخر لحظة في عمرها الطويل الذي جاوز مائة وعشرين سنة بقليل تحفظ صلوات «الأفيستا». وحين يسمح لها المستمعون، فإنها ترتل على أسماعهم مختارات منها تبدو كالسحر. ثم تحكي لهم عن نسل أسرتها التي نقشَ رجالُها هذا الكتاب بماء الذهب على جلود اثني عشر ألف بقرة».

صمتتْ كيميا. أطالت النظر إلى عيني. كنت أقاوم فضولي وأفكر في الانسحاب. قالت برنة فرح نبتت فجأة في حنايا صوتها: *«لا بد أن أريك أمي وهي مندمجة في الغزل والحكي معًا، مدهشة، لن تستطيع مقاومة حكاياتها».*

ركضتِ العنزةُ عندما ضحكتْ كيميا وانحنت قربها على ساقيها الأماميتين، وهدأت كأنما تنصت للحكاية. تذكرتُ النسوة خارج الكوخ وهن يُجهزن الجلود؛ خمس نساء. خمسة أجيال. حضرت في ذهني صورة أطولهن وهي مندمجة تراقب حركة الشمس بين رءوس الجبال. على وقع أشعتها، تحدد للباقيات بإشارات رشيقة من ذراعيها مواضع نشر الجلود على امتداد المكان. أعادني ثغاء العنزة الحنون إلى كيميا التي ما إن انتبهتْ إلى عودتي، حتى راحت تستكمل الحكاية.

«سوف أحاول تقليد نبرة صوت أمي وهي تستحضر صوت جدتها الذي تصر أنه يتردد في أذنيها حتى اليوم، وهي تقول: ليست

مجرد صنعة دباغين.. ينبغي أن تليق الجلود بما يسطره الرجال عليها من حكمة».

بالنسبة لي لم يتغير الصوت. لكنني لمحت ظل ابتسامة على شفتي الجدة العجوز قبل أن تقترب بفمها من أذن كيميا وتهمس لها. ارتفع صوتٌ غريب بكلمات غامضة لم أفهمها. ركضت العنزة ودارت دورة في الغرفة وعادت. قالت كيميا: *«هذا صوت أمي وهي تحاكي جدتها»*. أضافت ضاحكةً: *«أرأيت كم هو مثير؟»* لم تنتظر جوابًا وراحت تستكمل الحكاية.

«حرص كل رجل في العائلة على تلقين ابن من أبنائه سرَّ الصناعة المقدسة. جدتي لم يكن لأبيها ولد سواها. حظيتْ بما لم تحظَ به غيرها من البنات. تنظر الجدة في وجوه النسوة وتقول في ثقة من اطّلعت على ما لا تعرفه الأخريات: لو أردتم.. علّمتكم صناعةَ ماء الذهب وأفشيت لكم سرَّ ضبط ميزانه حتى يقاوم الزمن.. ولو كنتن مهتمات، للقنتكن الآن فن دباغة جلود البقر حتى تصبح في خفة الحرير وقوة الحديد. *تلوي الجدة شفتيها في استياء وتتمتم:* لكنكن كزمانكن بلا طعم. *تحكي جدتي لأمي:* قال أبي إن العرب أحرقوا ما وقعت عليه أيديهم من جلود البقر. *وفي كل مرة تُصحّح:* أو إنه قال الإسكندر. المهم.. لم يبقَ منها سوى بضعة آلاف هرَّبها المؤمنون فيما بينهم. *وبحزن من فقدت وحيدها تكرر كل مرة عبارتها الأثيرة:* من أحرق الجلودَ هدمَ كعبةً بناها الأجداد.. ارتفاعها ثلاثمائة متر.. يراها المؤمنون وهم قادمون على طريق الحج من ترميز في أوزبكستان. *يرتعش صوتها كعادتها حين تخشى أن تظلم أحدًا بكلامها:* أم أن البوذيين فعلوا ذلك؟ لا أعرف، *ثم تستطرد:* جاءتنا

البوذية من الهند.. ولم يطلب منا بوذا تركَ ألسنتنا، *وتلوذ بصمت تعرف الأخريات أنه لن يطول»*.

بأطراف أصابعها، مسدت كيميا رأس عنزتها فاستراحت بكامل جسدها على الأرض. لفّت عنقها تجاه المرأة العجوز. أغمضت كيميا عينيها وصمتت برهةً عدّلتُ خلالها من وقفتي وقررتُ الاسترخاء محاولًا تهدئة آلام بدأت تتصاعد أسفل ظهري.

«تُغمض أمي عينيها. تُوقف الغزلَ. تضغط قبضة يدٍ في كف الأخرى المفرودة، وتهمس كلمات الجدة مستحضرة يقينها: لم يكن بوذا نبيًّا.. كان ابنَ ملك الهند. *تصمت الجدة. يكاد اليأس يمسك بنفوس سامعيها قبل أن تقول:* بنى بوذا معبده هنا في بلخ.. اسمه نوبهار.. لكنه لم يهدم كعبة زرادشت. *وتهمس في يقين مشوب بالعزة:* أما زرادشت، فنبي. *وكأنما تردّ على جاحد استنكر عليه النبوة. تندفع في سرد شواهدها:* لم يصرخ عند ولادته كما يفعل الأطفال.. ضحك بصوت عالٍ اهتز له البيت؛ كان مليئًا بالأرواح الشريرة، رآها زرادشت وهي تهرب فضحك لذعرها. *ثم تطيل النظر في عيون الجالسات كأنما تنتظر أن تجرؤ إحداهن فتكذّبها»*.

سحبت كيميا كفَّ السيدة من فوق رأسها، قبلتها ثم قامت من جلستها. قفزت العنزة بين قدميها وهي تتحرك نحوي. آلام ظهري تتصاعد. أخذت كيميا كفي وتحركت بي صوب السيدة العجوز. وهي تستكمل الحكاية: *«تعرف الجدة الكبرى أن سليلة رحمها صارت مسيحية. اعتنقت ديانة جاءت بعد ألف ومائتي سنة من رحيل زرادشت. لم تنكر عليها رغبتها ولم تناقش شيئًا معها. فقط سألت:* مَن المسيحُ عيسى؟ *وأنصتت طويلًا إلى قصص ابنتها عنه.*

تأثرت وبكت وضحكت واستأنست، ثم قالت لها: قليلٌ مما جرى لزرادشت. *سألتها مرة إن كان هذا الدين غير دين اليهود؟ جَمُد وجهها عندما أخبروها أنه الدين الذي ورث اليهودية. همست:* أخذ اليهود دينهم عن زرادشت. *صمتت لثوانٍ ثم قالت:* لم يأتوا بجديد. *لكنها لم تشغل نفسها كثيرًا بالأمر بعد ذلك. ابنتُها ظلت ابنَتها، وزوجها رجل طيب الروح يحترمهما ويظلل عليهما».*

قرب مجلس المرأة، وقفت كيميا فوقفتُ. قفزت العنزة إلى حجر المرأة التي استقبلتها بحنان وتكومت هناك. هبطت كيميا على ركبتيها وما زالت كفها الصغيرة متعلقة بأصابع كفي. شعرتُ كم أنا ضخم الجثة إلى جوار هذه الكيانات الهشة الضعيفة. انحنيت قليلًا لأكون بقربهم.

«بعد سنين، عندما تزوجت أمي بأبي المسلم؛ همست أُمها في أذن الجدة التي كانت تغيب آنذاك كثيرًا عن الوعي. استأذنتْها أن يدخل الرجل الذي اختارته حفيدتُها للسلام عليها. أخبرتها أنه يتبع دينًا، نبيه أكثر شبهًا من عيسى بزرادشت. رفعت صوتها وسألت الجدة إن كانت تذكر عيسى. أفاقت الجدة فجلست. أصرت أن تحكي لها الابنة قصة هذا النبي الجديد. بكت وهي تستمع إلى الرؤيا التي بشرت آمنة بأن في بطنها نبيًا. وعلى غير المتوقع، عادت لها قدرة الحكي. كررت عليهم قصة زرادشت التي حلمت أمه ـ وهي حبلى به ـ بسحابة سوداء أحاطت ببيتها وانتزعت طفلها من رحمها وأرادت قتله. قالت بحماس: صرختْ أمُّ النبي فجاء شعاعٌ من السماء مزَّق السحابة فاختفت. وظهر من الشعاع شاب نوراني أعاد الطفل إلى أمه.. ونبأها بأنه سيكون نبيًا. *بكت الجدة طويلًا*

حينما سمعت ما يقوله الزوجُ عن نبّيه اليتيم، وكيف انتزع مَلَكان نقطة سوداء من صدره وغسلا قلبه بالماء والبرد. اختلط عليها الأمر حينما عرفت أنه ـ لما صار رجلًا ـ اعتكف طويلًا في الجبل حتى نزل عليه الوحي. سألتهم عن اسم الجبل. قال الزوج: غار حراء في جبل النور. *سألت عن اسم الملاك فقال:* جبريل. *قالت الجدة:* اعتكف زرادشت في جبل «سابلان»..ظل شهورًا هناك.. عزم ألا يعود لبيته حتى يكتسب الحكمة.. إلى أن تجلى له «فاهومانا» كبير الملائكة.. وقاده إلى السماء ليحظى بشرف لقاء الرب.. ويستمع إلى تكليفه بأمر النبوة.. فصدع بالأمر. ثم قال بعدها: سأنزل إلى الناس.. وأقود شعبي باسم «أهورامازدا» من الظلام إلى النور.. ومن الشقاء إلى السعادة.. ومن الشر إلى الخير. *وسألت زوجَ الابنة*: هل فعل نبيك هذا؟ *قال:* صعد كذلك إلى السماء.. التقى بالرب وحمل الرسالة.. وعانى في سبيل ذلك الكثير.. أهانه الناس وطردوه هو وأصحابه.. فهاجروا إلى مدينة أخرى. *كفكفت الجدة دموعها بظاهر يدها وسألت:* ما اسمه؟ *قال الزوج:* محمد عليه الصلاة والسلام. *نقلت الجدة عينيها إلى ابنتها وقالت:* هكذا حدث مع زرادشت. *صمتت قليلًا ثم مست كتف البنت وقالت بوقار شديد:* ينصحنا زرادشت بالانسجام مع المجتمعات التي نعيش فيها. *ابتسمت عن فم نظيف من الأسنان وأضافت:* زرادشت أو محمد.. أيًّا كان اسم زوج ابنتكِ، عليه أن يحبها ويحترم أهلها. *سألت:* هل يعرف أننا أبناء الأسرة التي كتبت الأفيستا بماء الذهب على جلود ١٢ ألف بقرة؟ *لم تنتظر إجابة. نقلت عينيها إلى زوج الحفيدة قائلةً:* في أرحام بناتنا بركة تميز الطيب من الخبيث. *ثم*

خاطبت الابنة وكأن الرجل ليس في المكان: «قولي له أمُّنا الكبيرة توصيك بابنتنا خيرًا. *وأراحت ظهرها وأغمضت عينيها*».

صمتت كيميا. كان صوتها يصبّرني على أوجاع ظهري المنحني. هممت بسؤالها أن تستكمل الحكاية، أريد معرفة ما فعل أبوها. جذبتني من كفي فنزلتُ على ركبتي إلى جوارهما.

«خشيت أمي أن يغضب أبي أو يندفع في عروقه دمُ الشباب الحار فينثر من المكان؛ تحبه. اكتفى أبي بابتسامة حنون. التقط كفّ الجدة وقبلها وقال كلامًا لم تفهمه أمي وقتها؛ آية من القرآن شرحها لها عندما جمعهما بيت واحد. حفظتها وصارت ترددها عن ظهر قلب: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ (غافر: ١٨)».

تركتْ كيميا كفي. قفزتْ في سرعة فلحقتها عنزتُها الرشيقة. في ثوانٍ كانتا قرب باب الغرفة. وأنا جالس إلى جوار المرأة العجوز. تراها ولا تراني. ضحكت كيميا وهي تشير تجاهي وتفتح الباب: *«لا تتوقف أمي عن الحكي.. قصص زرادشت كما نقلتها لها الجدة.. قصص عيسى التي سمعتها لها أمها.. وقصص محمد التي أحبتها من أبي»*.

خرجت بجسدها من الغرفة فسابقتها العنزة دالفة من بين ساقيها. لمحتْ ظلها يكسر أعمدة النور المتداخلة في الصالة. جاءني صوتها بينما كان بصري منشغلًا بملاحقة تكسرات الظل داخل النور.

«سألتُ أبي عن تلك الكلمات الغامضة التي طالما رددتها

أمي.. ضمني إلى صدره.. قبّل رأسي قائلا: لا شيء يمنع أن يكون زرادشت رسولًا من الله».

ركضت كيميا خلف عنزتها. هممتُ بملاحقتهما فارتطمت رأسي بسقف السيارة. رمقتُ السائق يراقبني بعينيه في مرآة الصالون. لا أعرف إن كان يود الاعتذار عن المطب الذي تسبب في ارتطام رأسي أم لأسباب أخرى! تحسست ظهري، كان ينبض بعنف من كثرة المشي في شوارع آق شهر. عدلت جلستي في مقعد السيارة الدافئ وتركتُ عينيَّ لمشاهد الطريق. بينما صوت كيميا الخارج من الحلم يتردد في أذني.

(٢٠)

وضعتُ ملابسي. تجنبتُ النظر إلى أي من مرايا الغرفة. خوفٌ يتنبسني كلّما نظرتُ إليها. أشعر أنها ليست مرايا. إنما بوابات سحرية بين عالمي وعوالم أخرى سحيقة لا تشبه أبدًا رشاقة أشعار مولانا التي يعيد فيها صياغة حكايات شمس ومقولاته. إن هذه الأشعار ليست سوى القشرة الذهبية لكرة حديدية تغلي وتُذيب البشر والجمادات. أشعار مولانا هي نفسها القصص التي يعيدها على مسامعنا خطباء المساجد ووعاظ الكنائس؛ إنها لعبة تبسيط الأشياء وتذويبها في سوائل لغوية تتسرب إلى النفوس، فيسري فيها خوف مغلف بخدر لذيذ. ولكن لصالح من هذا التخدير والتخويف؟

بدأ عقلي في الطنين. رغم عودتي منهكًا منذ قليل من زيارة جحا، هاجسٌ قوي دعاني إلى أن أكون أمام باب الفندق في هذه اللحظة. وبلا أي دافع منطقي تركت ملاحظة مكتوبة لدى موظفة الاستقبال:

«خرجتُ للقاء صديق. رقم هاتفي ٩٧١٥٥٦٩٢٩١٩٠+.

لو لم أجبك لأكثر من ساعة، فأنا في مأزق».

أمام البوابة، توقفتْ سيارة أجرة. فتحتُ الباب ودلفت إلى جوار السائق. تحرَّك بالسيارة في بطء بالغ. لم أحدد له وجهة. لم أندهش حين طالعني وجهُ التركي ابن الإسكندروني والكردية. وددت لو

سألته إن كان قد قرر الحجّ إلى مقام مولانا هذه «الكرّة»! لكن ابتسامته العريضة وشت بدلالات كثيرة، منها: لا أظنك تصدق في هذا الحج!

بت على يقين بأنني أشهد الجزء الأهم في اللعبة. استسلمت للسائق الذي بدأ حديثًا لم ينقطع منذ أن تحركت بنا السيارة وحتى وصولنا.

من الطريق الرئيسية، دلف بي إلى شارعٍ صاعد بمنحدر مرصوف بحجارة بازلتية صغيرة. سمعت زعيق محرك السيارة. خشيت أن تفشل في المضي بنا حتى النهاية. نجحتِ السيارة في الصعود، وارتاح صوت محركها حتى اختفى وهي تنزلق بقوة الدفع في الجهة المقابلة، عبر شارع طويل منحدر، منحوت في حجارة جبل جيري، تبدو البيوت الصغيرة في نهايته المنخفضة على امتداد البصر كأنها بثور ملونة في جسد ناصع البياض.

فكرت في سؤاله عن اسم المكان. فاجأني بكلام غريب لم أفهم سر اختياره له في هذا التوقيت؛ راح يشرح كيف أن الديدان تعتمد في تواصلها مع بعضها على الذبذبات! قال إنها تهز وريقات الأشجار بطريقة تجعل الرسائل مفهومة عند الديدان الأخرى. وبفضل هذه الاهتزازات، تفتح النقاشات المهمة وتجد الأصدقاء. سألني مبتسمًا: هل تعتقد أن دودة من هؤلاء يمكنها إخبارك بالأمر؟ ابتسامته صادقة أو ساذجة. اخترت مواصلة الصمت.

تخيلت السيارة في حركتها المنزلقة إلى الأسفل دودة ضخمة تسعى للقاء ديدان أخرى تنتظرنا هناك. اقشعر جسمي وقاومت شعورًا بالقيء.

من دون سابق إنذار، بادرني بحكاية أخرى عن حيوان يسمونه «البيركات»: نصف قط ونصف دب، له رائحة بول مميزة. قال: تشبه إلى حد بعيد رائحة «الذرة المفرقعة بالحرارة». شغلني هذا الوصف وبحثت في رأسي عن اسم له. قاطعَ تفكيري قائلًا بنبرة حادة: البوشار. نطقها كالشوام، ثم سأل: هل تحب الفيشار؟ نطقها كالمصريين ولم ينتظر إجابتي. قال: داخل كل بذرة من بذور الذرة توجد كمية صغيرة من الماء، والذي يسبب الانفجار أن نواة البذرة تتمدد فتصبح قشرتُها غير قادرة على استيعاب حجمها الجديد، فتنفجر متخذة شكلًا عشوائيًّا ولونًا أبيضَ وملمسًا رقيقًا. صمتَ قليلًا ثم أضاف: ولكنها هي بذرة الذُّرة.

بدأت أصوات المنطقة السكنية التي بلغناها بانتهاء المنحدر تتسلل إلى داخل سيارة الأجرة. وازنتُ بين محاولة استقبال مزيج الأصوات، وما راح السائق يصبه في أذني من حكايات بعربيته المثيرة للضحك. أظنه حدثني عن قصة قط أسود وصفها بالمثيرة للإعجاب. قال: استعان هذا القط بفطرته ليبقى على قيد الحياة، على الرغم من احتجازه في حاوية معدنية مدة ٣٤ يومًا من دون ماء أو غذاء. سأل كأي حكواتي ماهر يقود فضولَ مستمعيه: هل تتصور ماذا يمكن لقطٍّ أن يفعل ليبقى على قيد الحياة لمدة ٣٤ يومًا داخل حاوية معدنية مغلقة؟

في الواقع كنت منشغلًا بسر اختياره رقم ٣٤ تحديدًا، ولماذا لون القط أسود. ظننت أنه يحمل رسالة ما. هو، من جانبه، لاذ بالصمت ربما ليرفع درجة فضولي، ثم قال: قام القط بلعق جدران الحاوية للحصول على الرطوبة، فتمكن من البقاء حيًّا. صحيح أنهم

عثروا عليه في حالة مزرية بعد أن فَقَدَ نصف وزنه، إلا أنه ظل على قيد الحياة.

لم أفهم إن كان السائق يقصد بحكاياته تسليتي وإلهائي عن الأفكار المتصارعة في رأسي، أو أنه يرسل لي رسائل يجب أن أفهمها، أو أنه يحضّرني لشيء ما!

كالمنوم استمعت إلى حكاياته. صوته يأتيني من زاوية مختلفة، كأنما ينبع من داخلي أو من خلف أذني. هذه ليست حكايات الرومي. المنطق نفسه. لكنها ليست من كتبه. جملة السائق الأخيرة كانت غريبة إلى حد دار له رأسي؛ لم تكن حكاية، كانت سؤالًا من تلك النوعية التي تقدم معلومة ولا تسعى لإجابة. أوقف السيارة في شارع شديد الضيق. سحب المفتاح ووضعه في جيب معطفه، ثم قال: هل تعرف أن وضعية عيني الحمار في رأسه تجعله الكائن الوحيد المنشغل برؤية حوافره الأربعة بشكل دائم في الوقت نفسه؟

أنهى سؤاله. فتح البابَ وهبط إلى الشارع. راقبته من زجاج السيارة وهو يمر أمامي طويلًا عريض الجثة محتقن الوجه بعينين واسعتين لهما أجفان متورمة بشكل لا يثير النفور، ولكن لا يمكنك تجاهل ملاحظتها، خاصة مع ما تحمله من رموش طويلة إلى حد لافت. قطع المسافة أمام السيارة في خطوتين، وفتح الباب المجاور لي منحنيًا بأدب شديد، طالبًا مني النزول.

تبعته، ودلفنا من باب خشبي اضطررت ـ وهو قبلي ـ للانحناء بقسوة لكي نمر منه. سرت خلفه في ممر طويل معتم، أرضيته خشنة وجدرانه تخمش أنسجة الثياب إذا احتكت بها. لم نستخدم درجًا، ولكننا كنا نهبط. اصطدمت عدة مرات بجدران كنتُ أُفاجأ بها تغلق

الممر لأكتشف أنها مجرد انحناءة بزاوية قائمة تغير اتجاه السير، فأستمرُّ في متابعة صوت خشخشة ملابس السائق الذي يسبقني بخطوات.

بعد فترة وجيزة، اعتادت عيناي العتمة، وبت قادرًا على ملاحظة ألوان الممر التي تجمع بين الأخضر القاني والذهبي المتوهج. شعرت أننا اقتربنا من النهاية حينما بدأت الإضاءة ترتفع مع كل انحناءة، إلى أن أبهرني ضوءٌ تسبب في ألم حاد في حدقتي عيني؛ فاضطررت إلى إغلاقهما بعنف.

خطوات قليلة سرتها مغمض العينين قبل أن يغمرني نسيم لطيف محمل بخليط من روائح زهور وتوابل. بحرص فككت أجفاني المتوترةَ عن حدقتي عيني. شاهدت ظلالًا وخيالات لبشرٍ يملئون ساحة فسيحة تضيئها أشعة شمس بيضاء ناصعة كأنما مرت عبر فلاتر ومرشحات.

الكل يضع عباءات سوداء، وفوق الرءوس لبادات المولوية. راقبتُ البشر. أعرف هؤلاء الناس: الشاب القورمنجي الذي ركض حاملًا حقيبتي خلف الباص المتحرك إلى قونية. موظف الباص الذي كان كلما سألته عن الطريق منحني كأس ماء وابتسامة. الرجل ذو اللحية البيضاء الذي ساعدني في محطة الباصات. السيدة التي تأثرتْ لوحدتي حين صرختُ بلغات ثلاث متسائلًا إن كان أحد في الباص يمكنه التحدث معي، ورمقتني بنظرة ملؤها العطف قبل نزولها في محطة جحا. عاملة الفندق الشابة وخطيبها الوسيم. الرجال ذوو الملابس العجيبة، الذين راقبتهم في ضريح مولانا وتاهوا مني. السيدة صاحبة النذر التي راقبتها أمام مسجد السليمية وأخجلتني

ابتسامتها. يسّار، سائق التاكسي التركي الذي عمل بورشة ميكانيكا في السعودية وعاد بعد سنوات ببضع كلمات عربية وثروة اشترى بها التاكسي. سلمان الشاب طالب الألمانية في معهد السياحة الذي تبرع بمصاحبتي في جولة بمدينة جحا. نادل المطعم البدين الذي قدم لي بفخر وجبة المشاوي على الطريقة الإقشهيرية الشهيرة... كلهم هنا، إلا البروفيسور الأفغاني صاحب الدعوة. ذكرته في ذهني، فارتفع صوت ربابة شجي. تحرك الناس. ضمّ كل واحد عباءته حول جسده. شعرت بيدين تكسواانني بعباءة من الخلف. سحبتُ أطرافها بتلقائية حول جسدي بينما صوت يهمس: «ادخُل في السماع، فإن الذي تنشده سيزداد».

مرق الرجل الذي منحني العباءة بقربي سريعًا. «بروفيسور» تمتمت وهممت بمناداته. لكنه عبر رشيقًا سريعًا بين الأجساد، وغاب عني عندما تعلقت عيناي بالطفلة وأمها اللتين كانتا جالستين إلى جواري في عرض المولوية في قونية.

وصلَ إلى وسط الجموع، عيناه في عيني. هممتُ مرة أخرى بمناداته. رفع ذراعيه إلى الفضاء وقال: «غيّر النغمةَ واعزف لحنًا جديدًا، فقد وصل من الفَلَك صوتٌ جديد»، ارتفعت نغمات ناي شفافة تُحاور صوتَ الرباب. بدأت الأجساد في الدوران. درتُ كما يدورون. تغيرت سحبات الناي ومازجتها صهللات نحاسية ودقات دفوف وأوتار. أسقط الناسُ عباءاتهم فازدهرت الساحة بتنانير مصبوغة بألوان الزهور، حمراء وخضراء وصفراء وبيضاء وسماوية وبرتقالية... مهرجان من الألوان والموسيقى وحفيف الأقدام على البلاطات الحجرية الكبيرة. حالات من الانتشاء. البعض مندهش

والبعض خجلان. آخرون اكتست وجوههم بحزن وصل إلى حد البكاء والنشيج. في وسط الدائرة كان البروفيسور يدور حرًّا كأنما لا شيء يربطه بالأرض. تلاشت ملامحه من فرط سرعته. الكل يدور. له لون وسَمْتٌ واتجاه. أغطية الرأس صارت العامل المشترك الوحيد بينهم؛ شاهدة القبر التي تحتضن الجميع مهما تعددت مشاربهم وألوانهم وروائحهم وأشكالهم. وحدي كنت أدور بملابسي، برأس مكشوف للسماء، عندما لمحتها هناك، وحيدةً مثلي بلا لبادة رأس، بلا شاهدة قبر... تدور بشعرها الأسود الطويل غزيرًا حول رأسها وكتفيها، يدور كشلال مع دورات جسدها الرقيق، تنورتها وردية شفافة يكاد جسدها ـ الضئيل كجسد غلام ـ يضيء من خلفها: «كيميا»، هتفتُ فتوقف الجميع عن الرقص. نزع السائق العباءة السوداء عن كتفيّ. دفعني برفق نحو الممر الذي قطعته هذه المرة هادئًا إلى أن اتخذت مكاني بقربه في السيارة. أظنني سمعته يردد ـ ما زال ـ حكاية الحمار الذي ينظر طوال الوقت إلى حوافره. ابتسمتُ مطمئنًّا. قلت بإلحاح: «فندق دندرة» وأضفتُ مُصرًّا على أنني من يحدد الطريق: «في شارع الاستقلال من فضلك».

رنّ هاتفي، سحبته من جيبي، وخاطبت المتصل بلا مقدمات: «اطلب لنفسك فنجان قهوة.. أصِلُ الفندقَ خلال عشر دقائق».

(٢١)

لمحته من خلف زجاج المدخل. في الركن القصي لصالة الفندق. اختار كرسيًّا وجلس موليًا ظهره للداخلين. عرفته من اللمحة الأولى رغم أن لقاءنا السابق كان سريعًا. خطوت مستعجلًا لقاءه. كدت أعلَقُ في الباب الزجاجي الدوار عتيق الطراز؛ جميل ولكنه قديم.

عبرتُ إلى الناحية الأخرى مصحوبًا بزعيق مفصلات الباب الخشنة. نادتني فتاة الاستقبال فلم أعرها اهتمامًا، ومضيت صوب الجهة التي يجلس فيها البروفيسور، ولكن الفتاة ألحت في ندائها فاضطررت للوقوف. راقبتها مغتاظًا وهي تخرج من خلف المكتب الرخامي وتخطو نحوي بجسد رشيق ويَدٍ ممدودة بعلبة صغيرة خضراء اللون.

تركتِ العلبةَ بين يديّ وهي تشير بذقنها وعينين محتارتين إلى حيث يجلس ضيفي، وقالت: «تركها لك. طلب أن تفتحها قبل أن تخاطبه».

دققت النظر في العلبة، صغيرة في حجم صندوق خاتم نسائي، مكسوة بقطيفة خضراء لامعة، في جانبها ملصق-لا يسمح بفتحها من دون تمزيقه؛ قطعة ورق بيضاء مستديرة بداخلها دائرة خضراء دكناء، عندما دققت النظر فيها بدت لي مجموعةً من الدوائر

المتناسخة والمتداخلة، تبدو صغراها كالنقطة الصماء، لكنها على الفور ـ بمجرد أن تقع عليها عيناك ـ تدور لتكشف عن دائرة أصغر بداخلها، وتمنحك الأخيرةُ الشعورَ ذاته حين تدقق النظر فيها.

شعرت بالدوار. رفعت عينيّ عن العلبة ودوائرها. كانت فتاة الاستقبال تراقبني بدهشة من دون أن تغادر مكانها. قالت وكأنها تبرر وقوفها: «طلبَ لك فنجان قهوتك».

تابعتُ نظرتَها إلى حيث يجلس البروفيسور، وهززت رأسي بشكل أردت أن يبدو كالتحية لتنصرف. لكنها لم تتحرك، بل أضافت كطفلة تعابث أباها: «افتح العلبة».

احمر خدّاها عندما نظرتْ إليها متعجبًا من هذا الفضول، فأردفتْ كأنما تنفي عن نفسها التهمة: «أقصد أنه... أوصاني أن تفتحها قبل لقائه».

أدارت ظهرها واتجهت صوب مجلسها. راقبتها إلى أن استدارت لتجلس خلف المكتب الرخامي واتخذت مكانها وراحت تعبث بالأوراق وأزرار الهاتف لتبدو منشغلة عن أمري. رأيت فيها ملامح الفتاة التي كانت في غرفتي ليلة الرقص. كنت مغمض العينين، ولكنني رأيتها بوضوح. كيف لم أنتبه لذلك من قبل؟ إنها المرة الأولى التي أرى فيها جسد فتاة الاستقبال كاملًا. كانت بالنسبة لي طوال الفترة الماضية بورتريه نصفيًّا لفتاة تطل بوجهها من خلف حاجزٍ رخامي. اليوم رأيتها وهي تتحرك مقبلة ومدبرة. رأيتها وهي تقف أمامي كطفلة، أو كولد يافع... طفلة أو ولد! تمامًا كما كانت الفتاة في غرفتي. وكما كانت في حفلة البيت الغريب منذ قليل. تمامًا مثل كيميا. يا إلهي! هل لهذه الفتاة دور في اللعبة؟

ألقيت بنظري صوب البروفيسور. جالس كالتمثال. لم تتحرك فيه شعرة أو يهتز جسده مجرد اهتزازة تشي بأنه كائن حي. راقبته صامتًا. كيف يمكن لبشريٍّ أن يبقى جامدًا على هذا النحو!

خطوت تجاهه. همس صوتٌ في أذني «افتح العلبة». نظرت إلى الفتاة؛ منشغلةً كانت في أوراقها والهاتف. سوف أفتحها، ماذا يمكن أن يكون خطيرًا في علبة بهذا الحجم؟

ارتجّ البابُ الزجاجي الدوار، وارتفعت مع ارتجاجته صرخةُ ألم كبيرة أعقبها بكاءُ طفل وصياحُ امرأة مرعوبة. استدرت لأرى ما هناك. امرأة بدينة محشورة في أحد أقسام الباب الثلاثة، وأمامها في القسم الآخر طفلٌ يده عالقة بين القائمة الثابتة والضلفة المتحركة. يبدو أنه ابنها. حين ظنت أنه عبر إلى الجهة الأخرى دفعت جسدها الضخم فسمحت للباب أن يبتلع كفّ الصغير.

هرولتْ فتاةُ الاستقبال تجاه الباب. وظهر فجأةً من خارج الفندق رجلان في زي رسمي. بدا أن الأمر عصي على الحل؛ كل محاولة من المرأة بجسدها الضخم للحركة إلى الأمام أو الخلف تهدد ببتر أصابع الطفل المسكين.

في أقل من دقيقة أحيط البابُ بحشد من البشر جاءوا من حيث لا يدري أحد. من داخل الفندق ومن خارجه. ولم تعد متابعة الموقف ممكنة لي من مكاني.

نظرت صوب الركن المنعزل. الرجل كما هو على جلسته الجامدة. خطوت تجاهه فتكرر الهمس في أذني ليذكرني بما أوشكت على نسيانه في غمرة انشغالي بالمرأة البدينة والطفل المسكين: «افتح العلبة».

لم أعد قادرًا على ضبط فضولي أكثر من ذلك. أمسكت بطرف الملصق الورقي الذي راحت دوائره تتداخل في عيني. نزعته فبدت كبسة فتحٍ صغيرة كرأس برغمٍ اختفى أسفل غصن.

ارتفع صوتُ صافرة إسعاف وضجّ المكان بهمهمات الحشد المحيط بالباب الدوار محاولين إنقاذ الولد. ضجيجٌ بلغات شتى وطبقات أصوات مختلفة، وبكاء طفل وصراخ امرأة مرعوبة... لم يعد يشغلني سوى سؤال واحد: هل فتحُ الأبواب خطير إلى هذا الحد؟

(٢٢)

ـ لن أفتح العلبة إن كان ذلك شرطًا للقائنا.

همستُ في أذن البروفيسور الجالس في صمته. لم يهتزَّ له رمشٌ وسط هذا الضجيج والعويل والبكاء وصافرة الإسعاف. ظلّ جامدًا حتى خلته ميتًا أو استغرقته جذبة.

بدا لي أن هذه الدنيا بكل ما فيها غير قادرة على إزعاجه. فهل يُزعجه أنني لم أفتح علبة؟

ـ عرفتُ أنك لن تفعل.

خرج صوته هادئًا عميقًا. فجاوبته بسرعة متشبثًا بإشارة الحياة الأولى التي تصدر عنه: أريد أن أفهم.

ـ وإنْ كنتَ رفعتَ الملصق!

أضاف كمن يوبخ صديقًا يحبه. لم أضف جديدًا؛ كررت:

ـ أريد أن أفهم.

ـ كلنا نريد ذلك. اجلس واشرب قهوتك.

جلست على الكرسي المواجه له. وجهه جامدًا لايزال، حتى تكاد تشعر أن الحياة بالفعل غادرته. فنجان قهوته فارغ، وبقايا البن متيبسة على حافته عند موضع شفتيه. فنجان القهوة الآخر يتصاعد من بين حبيبات وجهه البني الكثيف بخارٌ، خلته خداعًا بصريًّا،

فمددت يدي ورفعت الفنجان؛ شديدَ الحرارة كان، كأنما أفرغه البرسون من الكنكة حالًا!

ابتسم البروفيسور وقال: إنها حرارة رغبتك، وعاد إلى صمته فترة قبل أن يضيف: اشرب. أفرغ فنجانك ثم اقبضه بكفٍّ، واقبض فنجاني بالأخرى ليسمح لك بالتواصل.

قررت ألا أتورط مرة أخرى في لعبة الانجذاب عبر إثارة الفضول تلك. كفاني ما سبق. فلم أمنحه إجابة ولا سؤالًا. وأرحت ظهري إلى ظهر الكرسي ومددت ساقيَّ على قدر ما سمحت لهما الطاولة بيننا، محاولًا الاسترخاء وتفريغ ما أشعر به من توتر في جسدي. أبقيت عيني على وجهه الجامد وعينيه المفتوحتين على لا شيء كأنهما عينا ضرير.

رشفت القهوة. رشفة وراء الأخرى. تراجع ضجيج المكان، ولم يبقَ منه في أذني سوى صرخة الطفل الأولى وأول نداء استغاثة أطلقته الأم. لا شيء قبل ذلك... ولا بعده.

أغمضت عيني مرتاحًا لانسحاب الضجيج. تجسدت لي أصابعُ الطفل المحشورةُ بين قائمتي الباب، كيف تدفعه أمه إلى هذا المصير المؤلم؟ مسكينة؛ بدانتها المفرطة هي السبب، يستحيل أن تكون قد فعلت ذلك عن نية أو رغبة! ولكن لماذا كانت توبخه؟ الباب، الباب هو السبب. الباب جماد، هل نلوم الجماد؟! عامل الصيانة...صاحب الفندق... فتاة الاستقبال... رئيس الحي... مشرف السياحة... رئيس المدينة... رئيس تركيا...أنا، أنا الفاعل؛ لم أحذّر فتاة الاستقبال عندما سمعتُ الصرير الخشن للمفصلات

التي بدت كأنها تتهاوى، الصوت أنذر بتحطم محور الدوران ووقوع مصيبة. كنتُ مندفعًا للقاء الرجل، كما أنني لست خبيرًا بهذه الأمور، ولا أفهم في الأبواب أو في الميكانيكا. خطر لي في أثناء المرور أن هذا الباب ربما يتسبب في كارثة لو مرّ منه طفل أو سيدة عجوز. نعم. ولكن هل أتصرف وفق كل خاطر يرد إليَّ؟! لو لم تكن المرأة بدينة إلى هذا الحد ما وقعت هذه الكارثة. المرأة بدينة، الطفل متهور، عامل الصيانة متقاعس، إدارة الفندق مهملة، جهة الإشراف متواطئة... هل نترك كل هؤلاء ونتحدث عن خاطر؟! ستبرد قهوتي. رشفت رشفة طويلة أنهت السائل الذي لم يفقد حرارته بعد، ولم تُبقِ بالفنجان سوى الثمالة.

ـ تظن البابَ هو المسئول؟

فتحتُ عيني على سؤال البروفيسور المشوب برنة ساخرة. كان يمد يده نحوي بفنجانه الفارغ. قبَضتُه بيد واحتفظت بفنجاني في الأخرى. لم أجد في نفسي رغبة في الإجابة عن سؤاله، أو الانسياق وراء نبرته الهازئة.

أرحتُ ظهري وأغمضت عيني مرة أخرى. شعرت كأنما أهوي في بئر منتظرًا لحظة الاصطدام بالقاع. هل كان ما أنهيت شربه للتو مجرد قهوة؟

لم يعد لصرخة الطفل أو بكاء المرأة من أثر. فقط صوتُ قدمي فتاة الاستقبال وهي تنسحب من أمامي صوب مقعدها. وصورتُها وهي تدور بتنورتها الوردية في غرفتي. هل كانت هي؟

غام السؤال وتشوشت الصور في مخيلتي. بدأ البروفيسور

الكلام. لكن الحديث هذه المرة لم يكن بصوته الهادئ الوقور. إنما بصوت علاء الدين، الذي ما زالت نبراته عالقَة في زوايا ذاكرتي منذ حوارنا المخيف في الغرفة قبل ليلتين. حاولت فتح عيني لأتأكد من شخص محدثي، فلم أنجح. ارتعش فنجانا القهوة بين قبضتي كفيّ، ورنّت في أذني العبارةُ التي سمعتها من قبل: «السماعُ قوتُ العاشقين»؛ فأصغيت.

(٢٣)

«أنا شمس تبريز، لم تكن لديَّ عادةُ الكتابة قط، ولأني لا أكتب، تبقى الفكرة في نفسي، وفي كل لحظة توجهني وجهة جديدة. أستطيع أن أحدث نفسي، أو كل شيء رأيت نفسي فيه أستطيع أن أحادثه. ومع كل هذا الجنون الذي أجدني فيه غلبت كثيرًا من العقلاء. ومع كل هذه الغفلة التي أجدني فيها جعلت كثيرًا من ذوي العلم والخبرة تحت إبطي. كان في داخلي بشارة كأنني أطير، لست فوق اليابسة. دعتني جماعة مسلمة ظاهرًا، كافرة باطنًا، اعتذرتُ. كنت أدخل الكنيسة، وكان فيها كافرون. أحبائي: كافرون ظاهرًا، مسلمون باطنًا».

تلك كانت أولَ عبارة نطقها البروفيسور بصوت علاء الدين. تلاها كأنما يحفظها عن ظهر قلب. وصمتَ بعدها إلى أن ساورني القلق، ثم عاد ليقول:

- «هكذا يتحدث عن نفسه.. إما أنه تاجرٌ... وإما... مجنون».

توارى طرفُ تنورة كيميا خلف المكتب الرخامي. ولم يعد بين عيني وجفوني المغمضة سوى بياض حليبي أسمعُ في كثافته حفيفَ قدمين تدوران، وأصداءَ موسيقى وترية، كأنها عُزفت في أرض تبعد عني آلاف السنين.

أعرف أنهما قَدَما كيميا. كما أعرف أن المقصود بحديث علاء الدين هو شمس الدين التبريزي. ولا علم لي كيف أعرف!

ضغطتُ بكفي على الفنجانين. وكانت تلك الضغطة آخرَ عهدي بالقدرة على القيام بفعل. انتبهتُ إلى صوت علاء الدين الخارج من جثة الأفغاني يستكمل حديثه:

ـ *«... وأظنه كليهما معًا»*.

استسلمت لحالة انعدام القدرة التي تلبستني، فألقيت السمع للصوت، واستقبلت بانتباه ما أظنه يصنعه بكلماته من صورٍ على شاشة جفوني المغلقة.

«نبتَ التبريزي من العدم، وتغذّى على القلق الوجودي الذي حاصرَ جلال الدين في سنواته الأخيرة، نفذ إليه من حيرته بشأن الله، وانشغاله بطبيعة علاقته بالكون والناس، ضرب جذوره بين طيات عدم ارتياح أبي إلى الصورة التي رسمها الفقهاء التقليديون للإله. التقطه من مستنقع الشكّ وجذبه إليه؛ لا ليريح قلبه، أو يؤنس قلقه، أو يعيد ترتيب طيات روحه. بل ليصنع منه ـ وهو الشيخ العابد ـ صنمًا يزوره الناس. وجلس على أبواب معبده يقبض الثمن».

صَمَتَ الصوتُ قليلًا. تجسّدتْ لي كيميا. لمحتها تركض من غرفتها بركن دار جلال الدين. تتمسح كقطة بجدران البيت متجهة صوب الساحة الخارجية.

لمعت ثيابُها الملونة بين تكسّرات الشمس والظل على جدران المنزل. مرقتْ مضطرةً ـ ككلّ مرّة ترغب في الخروج ـ من أمام غرفة شمس الدين التي منحها له مولانا منذ قرر أن يعيش بينهم؛

تُربكها نظراتُه، وإن كانت من خلف جدار. توشك أن تؤمن بأن هذا الشيخ الغريب يرى من خلف الجدران والملابس، ويرى في العتمة كما تفعل القطط. نظراته تعرّيها، تشعر بجسدها يكاد ينهزم. طرقت الأنوثةُ أبوابَها منذ شهور قليلة، لكن روحها ما زالت تمرح في حقل الطفولة البهيج. نظراتُه ـ هو فقط ـ في هذا البيت الذي ألفت أهلَه وألفوها، تبعثُ في جسدها شعورًا يراوح بين الخوف والرغبة؛ تنتصب لها شعيرات جسدها، تسري من أسفل ظهرها قشعريرةٌ فتتصلب حَبَّتَا توتها ويرتعش عنقُ تينتها الغضة، وترغب في المزيد. كم مرة أرادت أن تخبر «كيرا» بما يدور، لكنها خجلت... ربما خافت أو شعرت بالإثم؛ يراودها شعور بأن في الأمر شيئًا يُريب؛ هي أصغر بكثير من أن يرى فيها أنثى، وهو أكبر بكثير من أن ترى فيه رجلَ أحلامها! راودها السؤال: لماذا لا تشعر بهذا الإثم عندما ترقد كفُّها الصغيرة كيمامةٍ مطوّقة بخطوط الحناء... في كف علاء الدين الكبيرة؟

أدركتْ سريعًا أن الغرفة فارغة إلا من طيف الشيخ الغريب؛ هي أيضًا صاحبة قدرات كانت وراء وصولها إلى هذا البيت وهذه المدينة. مرقت مهرولة إلى أن وصلت قرب البوابة. واختارت، بحرصِ طفلةٍ يقودها الشغف، مكمنًا لتتلصص على ما يدور هناك من دون أن ينتبه إليها المحتشدون.

في زاوية الباب الكبير يجلس حسام الدين، له جسدٌ ممشوق القوام، نحتت تقاسيمَه أعمالُ البستنة، ووجه لم تُفلح لفحات الشمس في مداراة وسامةٍ تزينها لحيته المشذبة.

تكتظ الساحة أمام الدار بعشرات الأشخاص، نساء ورجال، شواب وشباب وأطفال، فقراء وأغنياء.

«الجلبي يجيد المساومة»، طالما سمعتُ هذه العبارة على لسان الشيخ الجديد ـ كما يسمون التبريزي في أحاديث النساء داخل الدار.

من مكمنها راقبتْ حسامَ الدين يأمر مساعديه بترتيب الزائرين. قال لها علاء الدين ذات مرة: «إن الجلبي يرتب الناس حسب أقدارهم وقدراتهم»، وفسر لها: «يعني بالأولى قدرتهم على البطش، وبالأخيرة مقدرتهم على الدفع».

خرج الصوتُ من جسد البروفيسور الأفغاني متسللًا كأنما هو من يدير هذه المشاهد على شاشة جفوني المغمضة: *«قبل ذلك، كان شمس يجلس عند باب المختلى ويجعل مولانا في داخل الحجرة، وكلما شاء أحدٌ أن يلقى مولانا كان يقول له: ماذا أحضرتَ، وماذا تعطي مقابلًا لكي أظهره لك؟*

مع الوقت انتقلت المهمة إلى حسام؛ بحنكته بستانيًا في حديقة أبي، كان يرى الثمار في الشجرة قبل أن يُلقي البذور في التراب. صار الذين يريدون رؤية أبي يلجئون إلى جلبي ويتواجدون في مجلس شمس الدين، وإذا أراد أحد المريدين رؤية شمس فعليه أن يقدم عشرة أو عشرين ألف درهم، وإذا ما قدّم المال المطلوب فإنه يتكلم إلى شمس، أو إلى مولانا».

حسام الدين جلبي، الفتى الغامض في حياة جلال الدين، أوحى له بكتابة المثنوي ليكون صاحب كتابٍ على غرار المتصوفة الكبار، وظل حريصًا على أن يستنطقه أبياتَه ساعة بساعة ويومًا بيوم. يدون

وراءه ويحفظ الرقع والأوراق، حتى قيل إنه كان يراقبه وهو في بيت الراحة متنصتًا؛ ربما تجود قريحة مولانا بما يستحق التدوين. وظلّ حريصًا على فعله إلى أن أوصى له الرومي بالخلافة وهو في مرضه الأخير، وحصل عليها رغم أن كثيرين توقعوا أن يعهد بها الوالد لولده سلطان!

كلما بردت نارُ الشيخ نفخ فيها الجلبي فأزكاها. البعض يذهب إلى أبعد من ذلك مشيرًا إلى أن وحي الرومي هو حسام نفسه، وإلا لِمَ انقطع وحي المثنوي لمدة عامين حين انقطع حسام ـ المدَّةَ نفسها ـ بسبب الحزن على رحيل زوجته؟ يقول الرومي مبررًا ذلك: «إن بركة الحليب ليست في الضرع، ولكنها في اليد التي تحلبه».

تجسد لي حسام الدين في قاعة السماع، رأيته يكاد يذوب ولهًا بين يدي مولانا الذي كان بدوره يكاد يذوب وهو يصب في أذني الجلبي هذه الكلمات: «أيها السلطان حسام الدين، أنا الحبيب وأنت المحبوب. ولقد بذلت جهدي لأكون غمد علمٍ من أجل سيفك».

ضمه الشيخ إليه وزاده من جميل القول ما دفع بالجلبي إلى أن يدور بين الأفلاك بينما قدماه على أرض قونية: «أيا نور الإله، وصاحب الفضيلة حسام الدين. اعلم أنك طبيب الأفئدة دون النظر إلى وريد أو الاستماع إلى نبض، أو الاستعانة بالعلوم التي تخص النجوم».

قاطع علاءُ الدين خواطري وقال مستكملًا الصورَ بالصوت: *«رأى الجلبي الثمرةَ في روح مولانا فاستنبتها في نصوص المثنوي. كما رآها في روح شمس فسخَّر نفسه لرعايتها، كانت لحسام الدين حيله العجيبة في استنفار طاقة الشعر في روح مولانا؛ ذات يوم جاءه*

وقال إنه رأى في منامه أن النبي عليه السلام، كان يقرأ المثنوي، ويمدح هذا الكتاب ويطريه أمام الصحابة. وقال إنه رأى النبي في معية مولانا وهو يمدحه ويثني عليه».

احتشدتْ في الصوت نبرةُ غضبٍ، شعرتُ بها ارتجافةً في فنجاني القهوة بين قبضتي تتصاعد مع كل كلمة في جملته. ارتبكتُ. قفزتْ إلى عقلي إحدى مقالات شمس الدين التبريزي وطغى رنينُها على سمعي: «قل ثلاثَ مراتٍ: ارحل أيها الوهمُ. إن لم يذهب عليك الرحيل». كررتُ لنفسي: ارحل أيها الوهم، ارحل أيها الوهم... ارحل أيـ...

«لم يذهب، ولم أرحل... هكذا قال شمس». ردد علاء الدين فهدأت ارتجافةُ الفنجانين. ثم استأنف حديثه بنبرة بدا لي منها أنه يحاول كتم غيظه، ربما رفقًا بي: *«كان حسام الدين يجمع الأصدقاء ويقرءون المثنوي في حضرة أبي، فينتشي ويكاد من فرط الطرب أن يطير».*

رأيت مولانا متكئًا على حشوة قطنية في قاعة السماع. ينير جانبَ وجهه ضوءُ القمر المتسلل من كوةٍ في نهاية الجدار. وحوله تحلق شباب تربعوا على الأرض في سكون. وحسام الدين جلبي يدور حولهم كالساحر، يقرأ من أوراق المثنوي. الجميع يرددون خلفه الكلمات المنغمة المسجوعة. تجتمع الأصوات في نبرة واحدة يتردد صداها بين جدران القاعة كأن الصدى رجع ربابة في يد عاشق حزين.

توقف جلبي عن ترديد الأبيات، واستغرق في شرح معانيها للشباب، ومولانا مُنصتٌ في رضا، يراقب بعين الإعجاب الشبابَ وقد ازداد حماسهم لأشعاره حين شرحها حسام الدين.

من فرط حماسته؛ صاح أحد الشباب الجالسين بحسام: **ما أجمل شرحك وتفسيرك لكلمات مولانا يا حسام الدين، تضعها في صورة رائعة.**

استدار حسام وقد اتسعت ابتسامته لهذه الفرصة التي سنحت له. رقق مخارج كلماته ووجّه الفؤادَ إلى مولانا والخطابَ إلى الجميع:

«إن ألفاظ مولانا تشبه المرآة، وكل شخص يرى شيئًا واحدًا في هذه المرآة .. وما يراه هو ذات نفسه، وثمة آلاف مؤلفة من الأنهار تصب في البحر، بيد أنها جميعًا لا يتأتى لها أن تكون بحرًا».

سكتَ قليلًا ليرى أثر كلماته في عيني مولانا، وفي هيئات الشباب، ولما اطمأنت نفسه إلى النتيجة أضاف:

«نعم، لو شرحنا مولانا فلسوف نتردى في لجة الخطأ بعينه».

وانتصبَ حسام الدين أمام جلال الدين كجندي يستعرض أمام قائده، وانحنى ثم استقام مستدعيًا كلَّ ما أمكنه من هيبةٍ، وقال مخاطبًا صاحبَ الكلمات الغارقَ في نشوته بسماع صداها الفخيم:

«إن في يديك سيفًا وهراوات غليظة، وملائكة موجودين يستأصلون شأفة إيمان ودين أولئك الذين لا يلقون السمعَ إلى المثنوي موقنين به مذعنين له».

«فماذا فعل مولانا؟» التقط علاء الدين السؤال من ذهني ومرّره إلى دنيا السمع، ثم أضاف: ***«لعلك تتساءل!»*** ولم ينتظر مني إجابة بل قال: ***«أكّدَ مولانا الكلامَ وأقرّه، ثم روى الواقعة بأبيات من الشعر في المثنوي، دوّنها الجلبي بأصابعه، تقول: إنني أرى الآن عدو هذا***

الكلام ماثلًا أمام ناظري بجلاء. وقد هوى في نار جهنم منكس الرأس، أقسم بنور الحق إنك قد رأيت حاله. وأظهر الله لك الجزاء الذي ناله من جراء فعلته».

«أي سماحة إذن يتحدثون عنها؟» دار السؤال بذهني، وكنت واثقًا من وصوله لمحدثي: اعتدت الآلية التي تنتقل بها الأفكار بيني وبينه، فكرت منتظرًا أن تصله الفكرة: «لكن جلال الدين الرومي حقق شهرته - كما حققها ابنُ عربي - بتجاوزه فكرة اختلاف العقائد؛ أليس هو من يقول: «عقد الخلائق في الإله عقائدًا، وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه»؟

بالفعل التقط علاءُ الدين السؤال، ثم قال بنبرة لم تتخلص من غضبها: *«هذه أسطورة يا عزيزي؛ هكذا تُصنع الأساطير. من هو جلال الدين بالنسبة إليكم؟ رجل عاش قبل ثمانمائة سنة. نقلوا لكم عنه قصصًا مذهلة. وترك كتبًا قالوا عن أحدها إنه أكمل كتاب في اللغة الفارسية. ورددوا على مسامعكم مختارات منه فاكتملت القصة. ولكن لم يقرأ أحد.*

المثنوي نَظْمٌ مسجوع لقصص ركيكة سطحية تدّعي أنها عميقة المعنى. وحجتهم في تلك الركاكة أن الله لا يستحي أن يضرب مثلًا ما بعوضة فما فوقها. كتاب يُلغز ثم يقول لك إن لم تفهم الغازي أو تعجبك حكاياتي فليس العيب فيها، إنما في ذاتك... راجع نفسك... انظر في مرآتك!

إما أن تقبل اللعبة وتسقط فيها مغلق الفم والعينين، وإما فأنت متجبر عنيد لا تفهم، ولم تعتنِ بمرآة قلبك. العيب عيبك.

«إياك أن تظن أنك بمجرد أن تقرأ المثنوي تكون قد فهمته وأدركته، وأن هذا أمر يحدث لك بالمجان، هكذا دون جهاد ودون استحقاق ودون قابلية ودون صقل لمرآة قلبك، وجلاء يزين نفسك وانصراف عن متابعة هواك، تراك إذن تظن بمجرد أن تقرأه قد أصبح لك! إنك تقرؤه لكنه يصل إليك كالأساطير؛ فهكذا همتك وهكذا استحقاقك، إنه يبدي لك قشرَه ولكنه لا يسفر لك عن لبّه، لقد اختفى أمامك كما يُخفي المحبوب وجهه بالبرقع والحجاب، ذلك أنك غير خبير بأقدار الكتب بحيث يبدو لك القرآن ـ من تجبرك وعنادك ـ مجرد أساطير وحكايات كأنه كتاب الشاهنامة أو كتاب كليلة ودمنة».

أليست هذه أبياتًا من المثنوي؟ إنه المنهج ذاته الذي يغلفون به بضائعهم فلا ترقبها عينٌ ولا تختبرها يد، ثم يدورون حولها بعيّنات مختارة مهللين ومكبرين، ومع شدة التكبير والتهليل والشرح والإعادة على مر السنين تُنسَى البضاعةُ فلا يبقى منها سوى سحر غامض غموض الأساطير، ولكن إياك أن تقول أساطير؛ فتصبح متجبرًا عنيدًا».

ها أنت أيضًا تتحدث كالأساطير. حوّلت حزنك على كيميا وحقدك على جلال وشمس إلى مجرد كلمات غاضبة، قادني حظي السيئ إلى أن أكون المكلف بنقلها للناس؛ يخلو حديثُك من دليل واحد أو شاهد ولو ضئيلًا، كلامك مجرد غضب معتق لمئات السنين... كنت أسمع صوت تنفسه يتصاعد مع تنامي الفكرة في ذهني. ومع آخر حرف من آخر كلمة فيها انبثق صوته حادًّا وسرعان ما هدأ:

«لم يكن جلال الدين كما تصورتموه لكنك مثلهم لم تقرأ، تطفو

كجثة في بحيرة من صور ركّبها آخرون. كيف غفل من قرءوا المثنوي عن موقف جلال الدين الحقيقي من أصحاب الديانات والمعتقدات الأخرى؟ كيف غفلوا عن قصصه حول اليهود والمسيحيين؟ يقول: «تصادق مسلم ومسيحي ويهودي في سفر، ولا تقل لي كيف حدث هذا فقد يجتمع الصقر والغراب والبوم في قفص واحد» هكذا رتّبهم، ولا تعجب إن جعلَ المسيحي واليهودي في القصة «يريدان أن يبيت المسلم جائعًا» فهو يعتقد أن... «النصارى ورثوا عن آبائهم ذهبًا مزيفًا ودراهم مغشوشة، وذراعًا مشلولة، وصحراء قاحلة وعليهم إن أرادوا النجاة الدخول في الإسلام».

إنه مثلًا يرى اليهود بغيضين لمجرد أنهم يهود! اقرأ قصته التي تمثّل فيها بأحدهم وقد اختار له منصب وزير في بلاط ملك، وجعله ساعيًا لإيقاع العداوة وبث التفرقة بين النصارى، ومستعدًّا للتضحية بروحه في سبيل تحقيق ذلك، يقول الوزير اليهودي لملكه: «إن النصارى يعملون لمحافظة أرواحهم ولذلك يخفون دينهم عن الملك فلا تقتلهم؛ إذ لا فائدة في ذلك، بل فكّر في تدبير حتى تقع الفتنة بينهم. وسأقدم نفسي ضحية لما تريده من إزالة النصارى، وأقوم بحل العقدة بطريق فني فيه شفاء لما في صدورنا نحن اليهود».

يقطع اليهودي الخبيث أذنيه ويديه، ويشقّ أنفه ويدعي أن ذلك من فعل الملك حين اكتشف أنه نصراني، فيتبعه النصارى حتى يصير مرشدًا لهم، ويحتال إلى أن يشتتهم فرقًا يقتل بعضُهم البعض!

القصة طويلة، اقرأها إذا كنت قارئًا. اقرأها للنهاية لتقف على المنهج الذي يحاول مولانا التملص به من ورطته بأن يجعلها

«مجرد أمثولة لمعنى أعمق». سيقولون لك: لا تقف عند الظاهر فنحن أهل باطن!

قل لي أيها العاقل، إذا كان مولانا بالفعل لا يريد إلا ضرب المثل، فلمَ اختار مثالًا ينزّ بالكراهية لأهل دين بعينه؟ إنه يستولد فهمه لقصص القرآن عن اليهود، ويغزل على منوالها هذه القصة وغيرها الكثير، منطلقًا من قناعة عميقة بأنهم أهل شر وخبث باطني وعداوة لغيرهم من مسلمين ومسيحيين. اسمع، اسمع كيف يستهل قصته التالية: «وبعدما أريق من دم لا مرد له بما ثار من فتنة هذا الوزير، قام ملك آخر من نسل ذلك اليهودي يعمل على إهلاك قوم عيسى... أشعل النار ووضع بجواره صنمًا وقال: إن كل من سجد لهذا الصنم نجا من النار، وأمّا من لم يسجد فإنه يُلقَى في قلب النار»...إنه يصف هذا الملك اليهودي بـ«الكلب وبالشيطان الخسيس». هل يحكي الرجل تاريخًا، أم ينسج قناعاته أساطيرَ يفرضها على الناس كأنها حقائق؟

أين هذا من صورة الرومي التي روجوها؟ أين هذا من أبياته الرائجة التي تنضح بالسماحة؟ كم مرة ضرب في أشعاره المثال بنصراني أو مجوسي أو يهودي... يضع الواحد منهم في مفارقات ساذجة فقط ليخلص منها إلى أنه ضلّ الطريق وعليه أن يختار طريق الإسلام؟

هو لا يقبل كل الطرق إلا لتصل إليه. إنه تحت القشرة حنفي حتى النخاع وإن كان صوفي الطريقة والهوى. والرجل الحنفي يقول: «لو أن رجلًا عبدَ الله تعالى خمسين سنة ثم جاء يومَ النيروز وأهدى إلى بعض المشركين بيضةً فقد كفر وحبط عمله».

(٢٤)

ضعت وتشتتت أفكاري في متاهة الديانات والمذاهب التي قادني إليها علاء الدين. لم أسْعَ للرومي إلا بوصفه شاعرًا وظاهرة إنسانية مرت عليها ثمانمائة سنة. ولا يربطني بشمسٍ هذا سوى القصص الرائجة. أما الشعر، فيظل شعرًا بصوره وخيالاته وأنغامه. نختار منها ونقتبس سعيًا للمتعة أو الفائدة. وأما الرجل، فإن «كيميا» حالت بيني وبين إنسانيته وصدقه، فسقط حتى قبل أن أزور ضريحه.

قلتُ لعلاء الدين مستعيدًا الحوار إلى ما قبل هذه المقارنات العقائدية التي لا طاقة لي بها، وعلى أمل تخليص نفسي من غضبة عبّأت صوتَه وارتجت لها كفّاي: «إذن، يا علاء، أجاد حسام الدين العزفَ على أوتار أبيك. استكتبه المثنوي ليستكمل الأسطورة ويجيد سبكها، في زمان راجت فيه أساطير المتصوفة وعلا على وجه الخصوص شأنُ من ترك منهم كتبًا نثرًا أو نظمًا. ومن الناحية الأخرى، كان جامعَ الأموال لشمس. هكذا تكتمل اللعبة. ولكن ما الذي يجعل الناس في أيامكم يحتفون بهذه الأمور، وهم أنفسهم - كما قلتَ لي - كانوا يحتفون بأبيك عندما كان شيخًا حنفيًّا وقورًا يؤم صلاتهم ويستفتونه ويعظهم في خُطبه؟».

جاءت إجابة علاء الدين سريعة، قال وأثرُ لهاثه يسيطر على صوته: *«يا صديقي، أنت لا تعرف قونية. في ذاك الزمن لم تكن*

حياة الإنسان تعني شيئًا؛ المغول على الأبواب، الحُكّام مذعورون، والعوام يقضون كل يوم من أيامهم، بل قل كل ساعة في يومهم كأنها الأخيرة. ينتظر الناسُ قدومَ الموت بين لحظة وأخرى».

صمتَ كأنما يلتقط أنفاسه، أو كأنه يترك لي الفرصة لتقليب الفكرة واستخراج الرابط بينها وبين سؤالي. رأيتُ أقوامًا يتراكضون في شوارع قونية مذعورين، تعلو صيحاتهم بعبارات غامضة ترن فيها كلمة Mogollar المغول... المغول. انكفأت سيدةٌ مسنة على وجهها، لم تمتد لمساعدتها يد. تركت فتياتٌ هزيلات خيوطَ الغزل ونهضن عن سجادة حريرية أوشكت أن تكتمل بين أصابعهن الماهرة، اهتزت سماء السجادة الزرقاء وارتجت الخضرة اليانعة وتهاوت تحت أقدام الراكضات في فزع.

قفز الصوت مستكملًا المشهد: *«... في أرض الخوف تتعاظم الآلهة، ويتعاظم من يتحدثون بأسمائها، المتحدثون باسم السماء يَعدونَ الناس بحماية لا يمكن اختبارُها، وطمأنينةٍ قابلةٍ دائمًا للتجديد والمراجعة حسب الظروف. يقول لك أحدهم: «ارم همومك عليه تأتِكَ راحة البال»، وماذا إن لم تأتِ الراحة ولم يهدأ البال؟ لا شك في أنك أنت المقصر وليس هو ولا إلهه. وعليك أن تظل منتظرًا، وإن لم تأتك الراحة حيًّا فهي ـ بلا شك ـ من نصيبك بعد الرحيل.*

سلاجقة الأناضول يترنحون تحت وطأة الحروب والمشاحنات، انهار الاتحاد بينهم، وتحللت كياناتهم بفعل الغزو المغولي وصارت الأناضول فوضى. والدينُ سلعة الفوضى الرائجة.

في فوضى الأناضول تنازعت الديانات والمذاهب على السلطة.

وفي قونية سال عسلُ التصوف يبث في الناس طمأنينة وسكينة هم في أشد الحاجة إليهما، تصوفٌ اختمرت فيه خلطات عجيبة من تيارات مختلفة حملها معهم الهاربون أمام الغزو من وسط آسيا، وخراسان... دراويش أردبيل، وأذربيجان وبغداد وسوريا».

صمت صوت علاء الدين، وإن لم تهدأ أنفاسه. رأيتُ النساء والأطفال والرجال يركضون صوب قبة خضراء مضروبة بأوتاد ضخمة في صحراء واسعة. ترتعش الأطراف من الخوف وتزوم عليهم الرياح باردةً فيزداد ارتجافهم. رأيت حسام الدين جلبي، وصلاح الدين زركوب، وسلطان ولد، وآخرين، بعمامات خضراء كبيرة، ومقارعهم في أيديهم يطوفون بين الناس، ينهرون هذا ويأمرون ذاك.

رأيت قاماتهم تمتد وتطول على إيقاع موسيقى صاعدة من جوقة في ركن الخيمة. ارتفعت الموسيقى وتأججت نغماتُها إلى أن هبطت في حدَّة وتجمعت في نغمة «فا» واحدة كالتي تصدرها سحبة قوس على أوتار كمان. راحت النغمة تعبئ المشهد بالتوتر والشجن. بينما صورة كبيرة لجلال الدين بعمامته ووجهه المغرق في التأمل تطفو من أعلى الخيمة كسحابة أظلت الجموع. وانطلق صوت حسام الدين مردّدًا أبياتًا من المثنوي بينما يفتش جيوب الناس وينزع عن النسوة حليهم ويلقي بها في حجر تمثال يجلس القرفصاء على مدخل الخيمة المغطى بستارة دقيقة الزركشة، وخلفه يردد صلاح الدين زركوب: «نِعَمُ هذا الكون سابغةٌ ببركة مولانا وبركتنا، فلا تضنّوا بفتاتها على أسبابها».

ارتفع صوت علاء الدين مرة أخرى: *«لم يكن التصوف جديدًا*

على الأناضول؛ إذ عرفه الناس والحكام، يمكنك القول إن الأناضول صنيعة الحركات المتصوفة التي كانت أدواتٍ للصراع السياسي والمذهبي، لعب كل منها نصيبه في ألعاب السياسة وصراعات المذاهب.

كان الناس في قونية إلى ذلك الوقت يتذكرون درويش أماسي، بابا رسول الله، أو بابا إسحق أو بابا إلياس... وفق ما سماه أتباعُه. وهو درويش جاء من سوريا وأقام في كهفٍ بين الجبال فوق ساحل البحر الأسود وادّعى النبوة فالتفتّ حوله أعدادٌ كبيرة من المريدين والأتباع إلى حدٍّ دعا سكان ملاطية إلى الزحف نحو الغرب لإعلان ثورة كبرى شملت كل مناطق سيواس وتوقات وآقسراي، ولم تخمد إلا عندما تصدت لهم جيوش السلطان الذي حكم بعد صراعات طويلة بقتل هذا الدرويش ومصادرة أملاكه وأملاك أتباعه المهولة. جاء بابا إسحق هذا إلى مولانا ذات مرة وسأله: «إذا وجدت الحقيقة، فلمَ هذه الضجة التي ألقيت بها إلى الدنيا؟ وإذا لم تجدها فلمَ لا تهدأ وتبحث عنها؟».

أفلتت من علاء الدين ضحكة قصيرة وشت باستخفافه بالأمر، ثم قال: «*دعك من القصص فهي كثيرة، المهم أن الناس في قونية عرفوا التصوف من قَبل مولانا بزمن، بطرقه القلندرية والبكتاشية واليسوية والحيدرية والوفائية والقزلباشية... وهاموا بأهل الفتوة، وأحبوا ألعابهم بالنار والثعابين...، والتف الكثيرون حول بابا بكتاش، وبابا طابدوق وصاري صالتوق، وباراق بابا...وكما سكروا بخمر هؤلاء، ذاقوا بطش التكايا السنية المغالية التي نبتت من تعاليم*

المذهب الحنبلي، وأنبتت الذعر في القلوب، وذاقوا مرارة «البابية» التي نكّلت بهم وكانت يدَ الحكام لوأد ثورة العصيان الشعبي.

بين مطرقة خوف من دينٍ يجسد كهنتُه الإله باطشًا بكل مذنب، وسندان رعب قائم من بشاعات المغول واضطرابٍ عظيم يهدد باجتياح كل شيء، تعاظم ميلُ الناس ناحية التصوف وازداد الميل إلى الدروشة. وللسبب نفسه ـ وأضف إليه ميلَ الناس ـ مالَ الأمراء والوزراء والسلاطين وأكابرُ القوم ووجهاؤهم نحو هذا التيار الجارف، فحولوا دفة مستقبلهم صوب همّة هؤلاء الأولياء المتصوفة علّها تحميهم. بات الشيوخ ذوي نفوذ مؤثر في نفوس الأمراء، ونجحوا في وضع أساس سلطة نافذة في نفوس الشعب، وباتت لهم سطوة على كليهما: الأمراء والشعب.

لقد كان شيوخ الطرق الصوفية يتبارون في كسب مساحات السلطة بين الحكام وبين الشعب. اسمع... اسمع لعلك لا تمل حديثي، سوف أروي لك قصة طريفة لتبتهج قليلًا:

ذات يوم هبت ريح هوجاء عاصفة بأحد التجار في البحر، فنذر التاجر خمسمائة قطعة ذهبية إلى صوفيّة الروم.

في تلك الآونة كان حاجي بكتاش صاحبُ الطريقة البكتاشية يحلق رأسه، فأشار بيده إلى الحلاق أن يكف، وسرعان ما بلغ درجةَ الوجد والانجذاب الصوفي وبقي فيها لفترة من الوقت.

ولما أفاق قال: لقد نذر لنا خمسمائة قطعة ذهبية ولقد ذهبنا وأنقذناه. ثم هز أكمامه فسقطت منها ثلاثُ سمكات حية.

وفي البحر، كانت الريح قد هبت على السفينة التي يركبها التاجر

وأنقذته. ولما عاد التاجر ذهب إلى جلال الدين في قونية ظنًّا منه أنه هو من أنقذه. ولما سمع مولانا الواقعة قال للتاجر: إنه أخونا حاجي بكتاش خونكار. وأرسل التاجر إلى هنالك، فقدّم النذر إلى حاجي بكتاش».

أضاف علاء الدين وقد خالطت صوته مسحة بهجة من أثر الحكاية: *«أتريد مزيدًا من البهجة؟ هل تعرف أن شمس الدين التبريزي كان خليفةً لحاجي بكتاش هذا، كما كان درويشًا لمولانا؟ وكان يؤذي نفرًا من العلماء فذهبوا إلى السلطان ورفعوا شكواهم إليه، ولما لم يستمع السلطان إليهم لأن مصالحه كانت مع الدرويش، اعتزم هؤلاء العلماء الرحيل من المدينة، فأمر السلطان رجالَه بالخروج إليهم في الموضع الذي برزوا فيه، فدفنهم في الأرض في المرة الأولى مع الأغنام حتى رُكبهم، وفي المرة الثانية حتى أثدائهم حتى تابوا عن فعلتهم وانقلبوا راجعين».*

انقلبت بهجة علاء الدين إلى ضحك وهو يقول: *«لقد صاروا أصحاب قوة ومنعة على الحكام والمحكومين؛ كان السلطان عز الدين يشك أول الأمر في عظمة الرومي، ولكن وزيره ألحّ عليه لحضور مجلسه وسماع وعظه، وعندما فعل بدّل فكره وأصبح من مريديه. أما شقيقه وشريكه في السلطنة ركن الدين فكان من مريدي الرومي في البداية، ثم مال إلى الشيخ «بابا المَرَنْتَلي» وأصبح يناديه بالوالد، وعندما سمع الرومي بهذا امتعض منه وقال له: «ما دمتَ وجدتَ أبًا آخر، فإننا سنجد نحن ابنًا آخر لنا». وسرعان ما انقلب بعض الأمراء على ركن الدين وقتلوه».*

حافظَ علاء الدين على نبرته الضاحكة رغم قسوة ما يقول، ثم أضاف: *«أذكرُ أن واحدًا من الأمراء ـ ليصبح في مأمن منهم ـ وصل به الأمر إلى ارتداء سروال الفتوة الرفاعية؛ طلب بالفعل العمامة السوداء فجاءته من سوريا مع براءة تثبت انتماءه لهؤلاء الفتية الذين شغلوا الناس بألاعيبهم وعروضهم بالنار وبالثعابين؛ تلك العروض التي خلبت الألباب»*.

امتدّ أمامي الشارع المقابل لدار جلال الدين، شمس الظهيرة تنير الكون. في الساحة المحاطة بالأشجار، وضع دراويش الشيخ أحمد الرفاعي المشهورون في الأناضول أحمالهم، وانهمكوا في ألعابهم التي يجذبون بها الصغير والكبير، المرأة والرجل. يتلاعبون بثعابينهم وعقاربهم وبالنار يلعبون، ويغرس بعضهم الأسياخ والسفافيد في أجسادهم. على صياح الناس وتهليلهم، ركضتْ كيميا خارجةً من باب الدار، وفي إثرها ركضت كيرا خاتون زوجة جلال الدين، خرجتا فرحتين غير منتبهتين، مشوقتين للفرجة على عروض تاج الدين الرفاعي.

من مجلسه قرب الباب، لمحهما حسام الدين جلبي، تسلل من بين الجموع، ودلف بهدوء إلى داخل البيت. وخلال دقائق، خرج سعيدًا مبتهجًا في ظل مولانا جلال الدين الذي بدا غاضبًا كعاصفة. ركض كل أتباع جلال الدين وخدمُ بيته فزعين عندما أهلّ الرجل بغضبه على المكان. جذب جلال الدين كيرا من ذراعها بقسوة، ونهر كيميا التي حاولت بلطفٍ أن تحول بينهما، وصرخ في وجهها، ثم ساقهما معًا إلى داخل المنزل. بكت المرأة وبكت كيميا. توسلتا

أن يتركهما يتابعان ألعاب دراويش الرفاعية، فطالما سمعتا عنهم من نسوة الحي والصديقات. لم يَرقَّ قلبُ الرجل لرجاء الكبيرة ولم يحن لبكاء الصغيرة، وأمر أحد الخدم بإغلاق الباب، فأسرع حسام الدين بنفسه وأغلقه، ثم مضى في إثر مولانا وتركا الملتاعتين بين رغبة ورهبة.

ارتفع صوت علاء الدين مستكملًا ما روته الصور: *«نعم، يومها ثارت ثائرة أبي، هاج كما لم يفعل من قبل، ولم يهدأ حتى وبّخ كل تابعيه ممن شاهد ألعاب الرفاعية، وراح يقلل من شأنهم ويخوف الناس من التأثر بأفكارهم، ويصف كيف أن تلك الألعاب مجرد عبث! ثم أمر سلطان ولد بأن يتأكد بنفسه من رحيلهم من أمام البيت. إنها حرب بين أصحاب الطرق وعليهم أن ينتبهوا لها دائمًا»*.

(٢٥)

لم أطلب من علاء الدين تفسيرًا لاختلاج صوته عند ذكر اسم أخيه سلطان ولد. من الأساس، أشعر بخجل من الحديث عن هذا الأخ الذي أعرف أنه استأثر بقلب الأب، وساند الشيخ الغريب في السطو على حبيبة أخيه. لكن لم أعجب حين سمعت صوت علاء الدين يتدفق بالحديث عنه بلا سؤال ولا إشارة:

«نعم، كنت أغار من بهاء الدين محمد. أو كما سمّاه أبي: سلطان ولد».

صمت برهة ثم أضاف بنبرة أرقّ: *«ولكنها غيرة كغيرة أي أخ من أخيه الأكبر. صحيح أن الفرق بيننا عام واحد، ولكن الابن الأول له حظوة لا ذنب له فيها؛ فهو للأب تجربة الأبوة الأولى، وللأم تجربة أمومتها الأولى، وللأجداد فرحة أولى بأعز المولد. يحمل الشقيقُ الأكبرُ هذا الوَلَه في ذرات دمه ويتغلغل في عروقه وأنسجته، وينعكس في شخصيته بين أشقائه شاء ذلك أم أبى. نعم، كنت أغار، سماه أبي باسم أبيه ودائمًا ما كان يقول له: إنك أشد شبهًا بي من ناحية الخلقة والجبلة، وما خُلقت أنا إلا لتخلقَ أنت.*

نعم كنت أغار، وكانت الغيرة دافعًا لمزيد من الغيرة لأن أحدًا لم ينتبه. كنت أغار من تألق عيني أبينا المختلف عندما يكون طرف

الحديث سلطان. أغار من تغير لون ضحكته، من انتباهه إلى كلامه وتعاليه على كلماتي.

كتب أبي على جدار مدرسته: «إن بهاء ديننا ـ يقصد سلطان ـ مجدود ميمون الحظ، وُلد جميلًا ويموت جميلًا». هناك حكاية ظلت تتردد في أرجاء بيتنا، يتندرون بها ويكررونها كالتعويذة كلما حضر اسم سلطان؛ يقولون إن أبي من فرط محبته له عندما رُزق به؛ كان يحرص على أن ينيِّمَه في حِجره، ولا يرغب في أن يغادره. وكان ـ إذا ما أراد الرضاعة ـ أرضعه ثديه لتسليته وتلهيته!

هل تظن أنني أبالغ في غيرتي؟ سلطان ظلٌّ باهتٌ لأبي. نهّاز للفرص، مداهن متزلف لا يعرف سوى نَعم، وبلى، وحاضر، ولبيك يا أبي.

استفاد أيما استفادة من نفوذ وتأثير مولانا، كان غلامًا مطيعًا لم يخرج على قولة أبيه مقدار ذرة واحدة. عَشق جلالُ الدين شمسًا، فصار شمس حبيبَ سلطان يأتمر بأمره ولا يرى الصواب إلا فيما يقول أو يفعل».

ضحك علاء الدين ضحكة مزجت بين المرارة والسخرية وقال: «عندما بدأ أبي رقصَ السماع والدوران، ثار نقاش حول الأمر إذ رأى فيه البعض ما يخالف وقارَه، واحتد شمس التبريزي، وأدلى كل منّا برأيه، كنت أحب صورة أبي العاقلة الرزينة وقلت ذلك، تعرف ماذا قال سلطان وهو يتودد إلى شمس؟ اقترب منه وقال: تعلم أنني صادق في قولي، إن كيرا الكبيرة، جدتي، رغّبت مولانا مرات كثيرة بالسماع، فإنه في ابتداء الطفولة، كان والدي يرقص. لم يكن سلطان يترك فرصة للتملق يرى فيها نفعًا إلا استغلها.

بعد غياب شمس توجه حبُّ أبي نحو الزركوبي، الصائغ الأمي الذي لا يجيد قراءة أو كتابة كلمة واحدة، فقدسه سلطان وصار ملازمًا له كنعله، وكذلك فعل مع الجلبي البستاني الذي قَرَّبه مولانا بعد وفاة الزركوبي، فصار سلطان مريدًا تابعًا له، وخشيَ أن ينافسه على الطريقة بعد رحيل أبينا، بل راح ينتظر منه ـ مع كيرا خاتون وابنتها مليكة ـ أنصبتهم من عوائد الوقف وعطايا المريدين والنذور والهدايا بعد أن يوزع على الأصدقاء وأصحاب الحاجات وينفق على مآدب الضيافة ومجالس السماع.

هكذا كان سلطان ولد، وهكذا ظل حتى بعد رحيل مولانا، رجل دنيا يُظهر حدبه وحبه لها، ينظم أشعار المديح من أجل إنقاذه من دَين، أو من أجل الحصول على وقف للمقبرة، حتى إنه كان يكتب المدائح في المغول وأتباعهم. كتب لأحد الأمراء: «لا تتوانَ في بذل كل ما تملكه في سبيل جمع الجنود وخدمة المغول ورعايتهم والتضحية بكل مرتخص وغالٍ في هذه السبيل واصنع كل ما أوتيت من قوة لأنك تملك بين يديك كل أسباب الزمن في هذه المرة». كما كتب قصيدة عنوانها لا تنسنا يا أميرنا، يمدح والي المغول العام سماكر نويان ويثني فيها على زوجته وابنته وولده.

هل تعرف بمَ يبرر هؤلاء القوم خضوعَهم؟ من أين لك أن تعرف؟! فأنت لا ترى سوى ما رسموه لك من صور. يقول أحد كبار نسل سلطان ولد: «نحن دراويش، ننظر إلى مطلب الله ومراده فيمن يريد، وننحاز إلى من يريد أن يعطي الله له الدولة، وإن الله يريد المغولَ ولا يريد السلاجقة، لذلك فقد أخذ دولة السلاجقة وأعطاها لسلالة جنكيز خان».

ولكي تعرف كيف أن الله بين أيديهم مجرد طينة يشكلونها وفق مصالحهم، اضحك معي وأنت تسمعهم يتحدثون عني لأبي نفسه ليعزلوني عنه، لمجرد أنني رفضت أن أتحول إلى ظل باهت لهم؛ يقول أحدهم وقد نفخ الإيمان أوداجه فاحمرت: «إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح»، وبالطبع لا ينسى أن يردد بعد الآية الكريمة قانتًا مرقمًا مخارج حروفه: «صدق الله العظيم».

صرت أنا العملَ غيرَ الصالح لمجرد أنني حاولت إنقاذ كيميا أخت روحي من السقوط في فخاخهم، صرت أنا «ليس من أهلك» لمجرد أنني وقفت أمام بطشهم وعبثهم بحبي لها وحبها لي، صرت عدوًا لهم ينسبونني مرة للتكية الحنبلية ومرة لملاحدة قونية ومرات يتهمونني بالجنون لمجرد أنني لم أفرط في حقي في كيميا. يلهجون بالعشق ليل نهار ويقتلون العاشق الصادق الوحيد بينهم».

(٢٦)

خشيت أن أقول له إن كيميا، في بِركة الصور التي غرقنا فيها، هي فتاة هامت حبًّا بشمس التبريزي، الذي كان ـ رغم تجاوزه الستين من عمره بسنوات ـ فاتنًا تنسدل جدائله السوداء على وجهه، وتلمع في سوادها عيناه المشعتان ببريق أخّاذ لم تملك أمامه سوى أن تتمناه! هكذا قالت شافاق يا صديقي. وقالت مفروي إن كيميا هي من طلبت يدَ شمس لنفسها من جلال، لأنها رأت فيه الطريقَ إلى الله!

ارتج الفنجانان بين قبضتي حتى بت غير قادر على السيطرة عليهما. قال علاء الدين بصوت أقرب إلى النحيب منه إلى الكلام: *«كيميا وأنا تعاهدنا على الحب منذ تلامست كفانا حين دخلتُ بيتنا أول مرة، كيميا طفلة لم تدرك الفرق بين الله الذي يشعر به قلبُها، والجحيم الذي قدموها إليه باسمه»*.

واستكمل بصوت شرخته العَبرة فصار شبيهًا بالعويل: *«كنت خارج المدينة عندما قتلوها. كنت أعرف أنها ستموت. كنت جبانًا وغبيًّا. غبيًّا لأنني أملت أن ينتبه جلال الدين إلى الفخ الذي نصبته له زوجته؛ كانت كراهية كل أتباع الرجل لشمس شيئًا. وكراهية كبيرًا خاتون له شيئًا آخر؛ نارها متقدة لأسباب أخرى، أسباب تخص المرأة ورجلها. كان من الصعب على أي عاقل أن يستوعب طبيعة*

العلاقة التي جمعت بين جلال الدين وشمس. أما كيّرا خاتون فلم يكن يهمها من كل ذلك شيئًا لو ظلّ جلال الدين على حاله؛ رجلها العاشق الذي لم يكن يطيق البعدَ عنها ليلة واحدة. وهكذا عوّدها.

يجب أن تعرف أن الرومي كان عاشقًا ماهرًا يُجيد إرضاء نفسه والنساء. تخيل عاشقًا مرهف الحس مثله تُلزمه تقواه ومكانته الدينية بأن يُرضي ذوقه ومزاجه تحت مظلة بيته فقط! كان يتفنن في استخلاص عسل العشق والمحبة من جِراره بشتى الحيل والفنون: عطور، وفاكهة، وأعشاب يجلبها له المحبون من جهات الأرض الأربع، تفانين وتمارين وألعاب وخلاصات يعرفها أهل الخبرة والدراية وينبشون عنها في الكتب ويتناقلون بشأنها الحكايات.

وفجأة يهبط هذا الظل الثقيل ليحرم المرأة من اللعبة واللاعب معًا؛ بَردَ شوقُ مولانا، وذَبُل غصنه، وفترت همته وشحب لونُ غرامه لكيّرا.

كيّرا خاتون أول من احترق بنار شمس التبريزي، عاشت شهورًا تتمنى لو تعود لها الأيام، كانت تتلصص على خلوتهما، وكان شمس يعرف أنها تتلصص، ويقوم بما يزيد من غيرتها وحقدها، ويسلط عينيه على عينيها المدسوستين في ثقوب الباب.

ظنت أن غياب هذا الظل المعتم كفيل بإعادة الرومي إليها. ولكنه ـ عندما غاب ـ خبرت ما هو أشد؛ غاب شمس مخلّفًا لها بقايا رجلٍ تندب غياب رجلٍ آخر، بقايا لا تفيق من سكرةٍ بلا شراب. فتمنت كيرا لو أنه عاد؛ حين تجلّى حضوره ـ على مرارته ـ أهون المُرّين اللذين ذاقتهما.

حثَّت كيرّا سلطانَ وبعضَ أصدقائه من أتباع مولانا على البحث عن التبريزي، بذلت من أموالها لترصّد أخبارِه. وعندما جاءت الأنباء بأنه في دمشق.. لم تهدأ إلى أن سافر سلطان وأصدقاؤه إلى هناك محملين بأكياس من الفضة والذهب، آملة أن يسكن الطيرُ إلى العشّ ولا يغادر مرة أخرى... وفي دمشق، دخل سلطان ولد وكلّ أصحابه في طاعة شمس التبريزي ومحبته، والفضة والذهب التي أحضرها، تُرِكَ قسمٌ منها عند شمس. وقد ضحك شمس عند مشاهدة أكياس الذهب والفضة، وقال: لماذا يخدعنا بالفضة والذهب؟ إن طلب مولانا فيه كفاية لنا.

ولمّا أُعلن اقترابُ عودة شمس بصحبة سلطان، أضيء ظلٌّ مولانا، وجرى النسغ في غصنه فاستقام. سَمعنا أنه كافأ كيرّا خاتون بسبعين مضاجعة في ليلة واحدة! قبل أن يعود إلى حضوره الغائب. وآه يا صديقي، ليته ما فعل؛ لو اكتفى بما اعتادته المسكينة ما استحالت إلى مجنونة تقبض جمرةً سكنت جوفها وتمنت لو يحترق بها العالمُ كله...كان مولانا، ليلًا ونهارًا، بسبب الوجد والاهتياج الذي أدركه من رجوع شمس، ينشد الأشعار، أو يدور حول نفسه، أو يجلس مع مراده في خلوة.

ماذا تفعل؟ راقبتْ بحدسها الأنثوي المشتعل غريمَها، انتبهت إلى ميله الواضح إلى الصغيرات. هذا الظل القاتم الذي لم يكن يغادر بيتها إلا نادرًا كان يتفتح فقط على البراعم. كانت في حالتها تلك تستطيع أن تشم رائحة شهوته مهما اجتهد في تغطيتها بفلسفته ولفلفتها بكلماته الغامضة، مضفيًا قداسة على ما لا يعدو أن يكون رغبة شيخ يعرف أن أيامه إلى ذبول.

كانت تراقب عينيه وهما تقلّبان جسد الصغيرة بمهارة خبير. وتكاد تلمح بعين خبرة لا يُستهان بها شعلَةَ النار تركض في حنايا الجسد النحيل. هنا ألهمها شيطانُها الخطة؛ فلتلقم هذه الشعلة حطبةً تأكلها علّها تشغلها عن روميها الحبيب. هيأت الأمر، وسوست لجلال أن تزويج شمس بكيميا سيقرب بينهما ويربطهما برباط النسب، فلا يعود وجوده في دارنا مثيرًا لشبهة ولا معرضًا لاستهجان. لم تعرض عليه ابنتها؛ فأي أم تلقي بنبتة عمرها في أتون من الحامض الناري؟!

أشاعت أن كيميا عاشقة لشمس، ترى فيه الفتاة امتدادًا لجلال الدين؛ أبيها الروحي، لكنه امتداد يمكن احتضانه وتقبيله والنوم في أحضانه. إنه الصورة المثلى لكل فتاة تمنت وهي صغيرة أن تتزوج بأبيها، وتظل تبحث عن شبيهه. ويا لسعيدة الحظ التي تعثر فيه.

لم يكن الله بيني وبين شمس، بل كانت كيميا، أحببتها أنا واشتهاها هو، أحبتني هي ورضخت لسطوته هو، رماني بالتشدد وقال إنني أثير الناس ضده لأنني لا أفهم العشق، عن أي عشق يتحدث وقد طعنني في عشقي؟! هذا رجلٌ من الحواة، لا يختلف عن الرفاعية الذين يلعبون بالنار والثعابين في شيء سوى أن ثعابينه وناره في عقله، لا يستعرضها أمام الناس، بل يُسخّرهم لما يريد وكما يريد، يصنع من الألفاظ والكلمات أحجيات ليظل في مأمن بغموضه. لا تستطيع أن تُمسك عليه كلمة. لأنه يلوّن كلماته بكل ألوان الطيف. يُقلبها وقتما شاء كيفما اقتضى الحال وقضى الاحتمال، ألم تسمعه يقول: سر البقاء سعيدًا بين الناس هو الأخذ بشيء من النفاق والخداع؟!

قلت لأبي: الناس يقولون إن أباك مجذوب. أليس هذا عيبًا وعارًا أبناه؟ قال لي: العيب والعار في عالم العشق ممتنعا الوجود. وليس على المجذوبين تكليف كما هي حال المجانين. قلت: بعض أهل قونية يحسبون أنك جننت وتجب مداواتك. قال: نعم. أنا مجنون العشق، فإذا كانوا لهذا السبب يعيرونك أو يشمتون بك فلا تنزعج لأن العار لن يلتصق بأبيك وأسرتك.

قلت: لا تنسَ أن تعشق أيضًا أبناءك وأسرتك. لا هذا الآفاقي المتشرد. أشاح أبي بوجهه، صرخت فيه: كيف تتبع بشرًا متشردًا مجنونًا ليس لديه توازن روحي؟ أجاب: اعلم بنيَّ أن شمسًا شيخ كامل. لا يمكن أن يكون مجنونًا، بل هو رجل عظيم.

يراه عظيمًا وأراه مجنونًا ودليلنا في الحكم واحد! فليكن إذن ما يكون، فقط فليبتعد عن كيميا. صرخت في وجه أبي: وما حاجة الشيخ الكامل الذائب في عشق إلهه بمحبوبةٍ من طين؟ خاصة وإن كانت محبوبتي أنا؟ أنا العاشق يا جلال الدين، وليس هذا الظل الأسود. وهنا نبذني أبي فصرت أنا المتشرد والمجنون.

كنتُ خارج المدينة عندما زوجوها به. نجحت خطة كيرّا في إلقام الكلب عظمة وإلهاء النار بالحطب. سوف يقولون لك ـ كما قلتَ أنت الآن وقالت كيرا وقتها: اشتهته كيميا زوجًا. وأقول لك: كيف للضوء أن يشتهي العتمة؟ سيقولون لك: كان زاهدًا في الدنيا ولم يرغب فيها. وأقول لك: مخدوعون، شمس يعرف ما يريد ويفعل ما يريد. من يقدر على إثناء رجل كهذا عن عزمه أو دفعه نحو ما لا يريد؟ أبهجته حيلة كيرّا بلا شك، وأظنها لم تفت عليه، إن لم يكن أدارها بطريقته من وراء حجب الكلمات. ابتهج الظلُّ

المعتم، جمع لحفل زواجه بكيميا ألوفًا مؤلفة من الأموال، استدرج إلى حِجره أكوامًا من الهدايا جمعها بسلطان مولانا وسلطانه من أميرات المدينة اللاتي كنَّ من طلاب حضرته وحضرة مولانا، ينتظرن بالساعات بعد أن يدفعن المعلوم كي يحظين ببركة الكلام إليه أو الشفاء على لمسات يديه. جمعها من أثرياء المدينة الذين كانوا يطمعون في بركته ويخشون سطوته. جمعها من بُلْهِ القوم الذين يدورون في فلكه وفلك الصنم الذي أبدعه مستشعرين الأمان وطالبين الطمأنينة.

ولكن النار لا تطفئها حطبةٌ والكلب لا تُلهيه عظْمة. لا بد للنار من ماء يخمدها وللكلب السعران من خنجر يرديه. أعرف كيميا، هي ليست حطبة تأكلها النار، ولا هي عظْمة يلعقها كلب. إنها كيان مكتمل في المعنى والحضور. أعرف كيميا منذ أن جاءتنا طفلة تركت للتو رعي غنمات أبيها في جبال بلخ. إنها روح منكشفة على ما لا نراه. وصفها البعض بالجنون. اتهمها آخرون بالمسّ. أعرف وحدي أنها ليست هذه ولا تلك. هي كائن تخلّص من عتمته فشفّ، لو كان لي أن أصف الروح فإنني أحب أن أصفها في شكل طفلة ساذجة فطرية وبريئة، تضحك لكل فعل وتبكي لأقل ألم، وتعود لضحكها قبل أن ينتبه أحد. هكذا كانت كيميا عندما ألقوا بها في تنّوره، طفلة تهيأت لتوها لدخول عالم النساء. كانت بحاجة إلى حبيب وشقيق روح يكتشفان معًا عوالم الأنس والحب والجسد. وكنا تهيأنا معًا، لكنهم اختطفوها مني وألقوها في «حوض الأسيد» هذا؛ ليستخلص روحها ويمتص طاقتها.

هل تعرف لماذا انتشرت في أيامنا فكرة إذابة الأعداء في الأحماض

النارية؟ كان الأمراء وأصحاب النفوذ يفعلون ذلك معتقدين أن هذه الطريقة لا تخلصهم فقط من أعدائهم، بل من أشباحهم وأطيافهم وقرنائهم من عوالم الغيب التي تهيم مطالبة بثأر القتيل ظلمًا مهددة قاتليه بالويل والثبور. أقنعهم المشعوذون بذلك ففعلوا، وازدادوا إيمانًا بالأمر عندما تذوقوا طعم القوة الوهمية التي يمنحها لهم اختفاءُ الخصم من الوجود. منحهم تصديقُهم لذّةً تشبه امتصاص طاقة كائن واستحلاب قواه. إنها طريقة لا تُخلّف وراءها أي أثر يثير الخوف أو القلق أو حتى الشعور بالذنب، سوى رائحة حريق عفنة، يعتادها الواحد منهم بعد قليل إلى أن تصبح رائحته المفضلة، إنها رائحة متعة الجريمة الكاملة. هذه الرائحة كانت تنضح من بين ثنايا شمس، أشمها في ضحكته الباردة، تبرق في نظرات عينيه المعتمتين، تفوح بها أظافره المصبوغة بالسواد من أثر البرد، تنزها بشرته المدبوغة كجلود الموتى في الجليد. وأعرف ـ وحدي للأسف ـ أن ضعفه الشديد أمام البرد إلى حدّ العذاب كان عقابه في الدنيا. كان عليه أن يعيش متدثرًا أو محتميًا بالنار إلى حد الالتصاق.

قبل أن أنتبه كانوا قد أذابوا كيميا، قطعة الحلوى الهشة، في حوض الأسيد النتن. مهزومًا بتقصيره تجاه جسد كيّرا الفاره، وتعُّلقه المحموم بزائر تبريز النحس؛ قدّمها مولانا قربانًا على مذبح شمسه المُعتم. ثم رقصا معًا على صوت أنينها المبحوح كصوت الناي، وحشرجات أنفاسها المذهولة كصوت الربابة. هل عرفت الآن لماذا اختار جلال الدين الناي والربابة ليقيم عليها طقوس رقصته؟ إنهما صوت أنين كيميا وحشرجات أنفاسها التي ظلت تطارده إلى لحظته الأخيرة».

(٢٧)

لم أعد قادرًا على استقبال المزيد من كلمات هذا العاشق الجريح. ضغطٌ رهيب يُثقل على كل خلية من خلايا جسدي. أكاد أنفجر. تخيلت جسدَ كيميا الرقيق يذوب في حَوض من الأحماض. قاومت الصورة فتجسدت. وبدا أنني أسمع صوت ذوبان وأشم رائحة حريق لحم. أصابني الرعب. أسقطتُ الفنجانين من بين كفي. صرختُ ملتاعًا: هل أذابوها؟ هل أذابوها يا علاء الدين؟ أذابوا جسد كيميا الرقيق؟

فتحتُ عيني فلم أجد البروفيسور في مكانه. كانت فتاة الاستقبال تقف خلف عامل البوفيه الذي انحنى يلتقط بقايا خزف تناثرت بين قدمي ويمسح آثار قهوة مندلقة. رمقتني الفتاة ببسمة مرتابة وقالت: «يبدو أنك غفوت وأنت جالس.. هل كنت تحلم؟ هل أطلب لك فنجان قهوة آخر؟»

لم أنطق بكلمة. مدّت يدَها صوبي بعلبة خضراء صغيرة وقالت: «جاءك ضيف.. انتظرك طويلًا.. وحين غِبتَ ترك لك هذه العلبة.. وأكد أن أوصيك بالبحث عن صانع شواهد القبور الذي حدّثك عنه». صمتت كمن يستجمع شجاعته أو يقاوم فضولًا حارقًا ثم قالت: «لماذا تريد صانع شواهد قبور؟».

تجاهلتُ الأسئلة المتوالدة، ومددت يدي فالتقطتُ العلبة.

نزعت ملصقها وضغطت كبسة الفتح الصغيرة. ارتفع الغطاء وانبعث من القلب تمثالٌ رشيق لفتاةٍ بتنورتها المولوية. راحت ترقص في عذوبة على أنغام ناي شجي انبعثت من الركن. وفي سقف الغطاء قرأت بخط عربي يتراقص بلون ذهبي متألق: «أنت لا تعلم أن امتحان العشق هو الفراق، وليس الوصال».

تذكرت شيئًا فرفعت وجهي نحو الفتاة. متسمرةً في موضعها كانت وعيناها تشعان رغبة في معرفة التفاصيل. سألتها ملهوفًا:

ـ هل أنقذتم كفّ الولد المسكين من ضربة الباب الدوار؟

ـ عن أي ولد تتحدث؟

عدت بعيني إلى العلبة؛ في القاع تقبع قطعة ورق صغيرة. شكلها يُنذر بأن ما فيها ليس بصغير!

(٢٨)

«إن لم تكن على علم بالمكان؛ فسوف تحتار طويلًا في تفسير أصوات تلك الطَّرقات المكتومة التي تنطلق من كل الاتجاهات، كأنما هي نابعة من داخلك؛ تتتابع في إيقاع مدهش لا تستطيع معه تصديق أن صنّاع الشواهد هؤلاء لا يتبعون نوتة موسيقية واحدة، إنما يعمل كل منهم منفردًا في ورشته حسب رزقه لينهي المطلوب منه من أعمال. بعضهم تخصّص في شواهد الأطفال، والبعض في شواهد النساء».

أخبرني بذلك علاء الدين. الورقة في قاع العلبة لم تكن سوى خريطته لإيصالي إلى دكان الفتى المبارك. فور أن فتحتها قفزتْ من ركن خفي في عقلي تفاصيلُ حكاية سردها على مسامعي ليلة حوارنا العجيب في الغرفة. أهو الخوف أسقطها في خانة المحفوظات، أم أنني سقطت ثانية في فخ أحلامي المتسلسلة؟

هبطت من سيارة الأجرة بعد أن وضعتني عند أول نقطة حددتها الخريطة. دققت النظر في نقوشها الدقيقة وألوانها النابضة بالحياة. ومضيت، وفق الخطوط المتقطعة المرسومة بحبر أخضر زاهٍ، تقودني همسات الأفكار المنهمرة من ذاكرتي.

«ورشته في نهاية درب ضيق. في المنتصف يظن الغافل أنه طريق مغلق. العارفون يتحملون الخطوات القليلة المتبقية، تزكم أنوفهم

خلالها روائحُ الحجارة وتكاد تصم آذانهم دقاتُ المطارق، لكنهم يعرفون أن هذا الضيق يعقبه، ليس فقط فرجًا، إنما جنة من جنان الله في قونية».

حكى لي علاء الدين عن «زهّار» صاحب هذه الجنة، أو صانعها، كما استدرك. وفسّر لي لماذا وصفوه بالمبارك، ولماذا ارتبط اسمه بسعة الرزق والفرج بعد الضيق.

«كان زهّار ابن امرأة توفيت فتزوج أبوه أخرى أساءت معاملته ومنعته ما استأثرت به هي وأولادُها من خير الرجل، حتى إنها حرمته تعلّمَ الصنعة على يدي أبيه الذي يقولون إنه كان أمهر من نحت شاهدًا في قونية.

لم تُجدِ طفولةُ زهار في فتح قلب المرأة الصدئ، ولم تُفلح كل محاولات الأقارب والجيران. طردته المرأة الشريرة من البيت لكي تغلق ثغرة الأمل في وجه كل من يظن أنها سوف تلين.

كان الأب قليل الحيلة يملك مزرعة صغيرة في أقصى المدينة لا تعرف عنها الزوجة شيئًا، يربي فيها بعض الحيوانات ويستعملها لتخزين كسور الحجارة وما يكسد من شواهد القبور، ويرمم فيها معداته ويحتفظ فيها ببعض الأدوات. صارت المزرعة بيتًا لزهّار، يذهب إليه أبوه بين الحين والآخر ببعض الطعام، أما الماء فمتوفر هناك.

أحب زهّار المكان، نَظَّفَ الأرض وزرعها، وبنى للحيوانات بيوتًا فزاد نسلُها، وراح يسلي يومه بنقش الحجارة مقلدًا أباه مستخدمًا الأدوات التي تركها هناك. ينقش بحب مستلهمًا وجوه وأشكال

الحيوانات والنباتات وملامح الطبيعة. تعلم كيف يستخلص الألوان من الأعشاب المحيطة ويخلطها ليلوّن تحفه الجميلة.

صار زهّار جزءًا من المكان. وصار المكان جنة تحفها الزراعات من كل حدب، وترتفع فيها بنايات رشيقة من أخشاب وحجارة لا يُعقل أن من بناها قصد أن تكون مأوى للحيوانات. تراكمت تماثيله وشواهده فنقلها ليصنع منها ممرًا تداخلت فيه الأزهار بالأحجار الملونة فزاد المكان ألقًا. مرت شهور. منعت الأب انشغالاتُه وامرأتُه فلم يزر زهار، وكان يُطمئن نفسه بأنه كلما زاره وجده يتدبر أمر طعامه ومنامه وشرابه ولا ينقصه شيء. لم يشكُ له زهار ولو مرة خوفه أو يستجر به من وحدته. كان دائمًا يستقبله باشًا هاشًا، يحتضنه ويتشمم عرقه ويقول له بينما يكفكف دموعه: أشم رائحة أمي فيك».

وصلتُ إلى الدرب الضيق، تذكرت كلمات علاء الدين «هنا تتصاعد طرقات الأزاميل وتتكثف الرائحة، لن تطيق الوقوف أكثر من ثوانٍ، اركض، اركض ولا تقلق فالمكافأة تستحق». أي مكافأة يا علاء الدين؟ الرائحة لا تطاق، ويكاد الغبار يدفنني وتقتلني الطَّرقات. «اركض اركض فبعد هذا الضيق فرج»، فركضت.

«ذات يوم فقدتِ امرأةُ الحاكم جارية عزيزة عليها، فأرادت أن تكرمها بشاهدة قبر لم يُرَ مثلها من قبل، قالوا لها: نجلب أمهر نحاتي المدينة إلى قصرك. فأبت إلا أن تذهب بنفسها إلى هناك لتراهم وهم يعملون وتختار من يرتاح إليه قلبها، وتستأمنه على عبارة تريد نقشها على قبر الحبيبة الراحلة. نزلت امرأة الحاكم، واستقبلها شيخُ الصناع، طاف بها على كل ورش السوق، بدأ بأجزلهم عبارة علّه

ينجح في إدارة عقل المرأة، ولما فشل الكلامُ اصطحبها إلى أكثرهم مهارة، لكنها لم تَرَ فيهم كلهم سوى «صنايعية»، وهي تريد لقبر الحبيبة فنانًا، ولشاهدته قطعة حجر بكر لم تُعرض لبيع ولم تهنها مساومة. أخبرها أبو زهار أن مطلوبها من الحجارة البكر عنده، ولكنه في مزرعته البعيدة، يحفظه عن أعين الناس، ووعد بأن يجلبها في الغد لتراها بعينيها وتطمئن، لكن المرأة التي لا تستمع إلا إلى قلبها أمرته بأن يركب الآن وهي في إثره إلى أن ترى الحجر الذي يدعي أنه بكر لترى إن كان يحقق المراد.

لم يملك الرجل سوى أن يُطيع، بينما يحدث نفسه بالخيبة؛ فلا حجر بكر ولا يحزنون. إن الحجارة عنده كلها حجارة. وما قال هذا إلا ليمنح نفسه مهلة للتفكير والتدبير طمعًا في الحصول على مكافأة امرأة الحاكم سخية اليد.

صرخ كبير الحرس في الرجل حين طال صمته ووقوفه كأنما تحول إلى تمثال. فما كان منه سوى أن سلّم أمره للذي خلقه وامتطى دابته ونخزها للمسير. وكل أمله أن يجعل الله لأمره مخرجًا، حتى لو في صورة زلزال أو عاصفة تحول دون وصولهم إلى مزرعته الخربة التي لا شيء فيها يبهج النفس ولا يسر النظر».

بالكاد مررتُ بين صخرتين تغلقان الدرب الضيق، بعد أن كاد يصيبني الصمم من شدة الطرق. وعاينت الموت بعينيَّ حين كاد يخنقني الغبار الذي راح ينهال كأنما يدٌ عابثة تسكبه من أعلى. لوهلة راودني الشك في أنني أحلم. ولكنني بعد أن تجرأت وفتحت عيني على اتساعهما مقاومًا حرقة الغبار، أيقنت أن الأمر أغرب من الحلم. فما أراه لا يمكن أن يكون إلا الجنة. ولولا أن خريطة

علاء الدين تصف المكان بدقة مذهلة لظننت أنني انتقلت إلى عالم آخر أو متّ من هول الصدمة.

«قاد أبو زهار موكب امرأة الحاكم في طريق المزرعة، ولما لاحت لأنظارهم على المدى زراعات تبهج الأبصار وجناتُ زهور استقبلتهم روائحها العطرة من بعيد، ظن الوالد أنه، تحت تأثير الخوف، ضيع الطريق إلى المزرعة، فراح يستمهل امرأة الحاكم وحراسها إلى أن يتمالك نفسه ويحدد وجهة الطريق. لكن المرأة المحبة للجمال لم تتمكن من مقاومة فضولها؛ سألت الحراس: «لمن هذه الجنة؟» فلم يعطها أحد جوابًا، فقادت بنفسها الركب إلى هناك بعزم لا يلين، وكانت كلما اقتربت زادت دهشتها، وحلقت البهجة داخل أسوار صدرها الحزين بسبب رحيل جاريتها الأثيرة. ولما صارت وسط الجنة رأت زهار وقد شمر عن ساعديه محتضنًا قطعة حجر متعددة الألوان، ذاهلًا عن الدنيا، ذائبًا في الحجر يستنطقه أسراره يعالجه بالمطرقة والإزميل كأنما هو عازف قانون يعزف على أوتار سحرية لا تبين.

أشارت المرأة لمرافقيها فلزموا الصمت، وظلت تراقب الفتى حابسة أنفاسها إعجابًا وسعادة. وللحقيقة فإن «زهّار» كان فتى رائق الجمال. أنت بلا شك تعرف أن الله عندما خلق آدم، نظر إلى وجهه فافتقد شيئًا من روحه، ففتح فيه ثقبين على شاكلة عينيه، لكنه ـ لكي تتم دورة الحياة ـ قيّض لهما عدوين؛ الكراهية والطمع، وحدهما يطفئان نور الله في عيني الإنسان فتغلب عتمةُ الطين نورَ الإله.

و«زهّار» كان صافي النية كالماء، رائق البال كحبات الندى، لم

يعرف قلبه الكراهية يومًا، ولا عابثه الطمع في شيء من حطام الدنيا الزائل.

طال وقوف المرأة واستغرقت في المعاينة، فلما ندت عن صدرها الشاب صرخةُ إعجاب بقطعة الحجر التي كادت ترقص بين يدي الفتى، استقبلها زهار بعيني الله لا تشوبهما شائبة، فما كان من امرأة الحاكم إلا أن رددت غير منافقة ولا كاذبة: أشهد أن لا إله إلا من أراه في عينيك.

قامت الدنيا ولم تقعد، هاج الحرس وماجوا، وكعادة الجند فإن سياطهم ألين من قلوبهم، فلما أخافتهم كلماتُ المرأة ولم يسعفهم العقل بفهم مرادها تحركت السياط، فهوت على جسد زهار، لكن الدهشة ألجمت سياطهم كذلك قبل أن تلجم عقولهم عندما رأوا سيدتهم تهوي، قبل الأب، بصدرها على جسد الفتى فتستقبل عنه الضرب بوجه باسم.

تأخذ القسوة وقتها، ولكل ذروة مهبط، لما وجد الحراس أن لا مفر، صحيح أن السيدة هي السيدة، ولكن بطَش الحاكم أشد، استأذنها قائد الحرس في أن تسمح لهم بالتشاور فيما بينهم على أن يخبرها بما اتفقوا عليه، لتصبح لديهم حكاية واحدة يروونها للجميع تحميهم وتحميها من بطش الحاكم وغدره. العجيب أن السيدة وافقت، فلم يكن بطش الحاكم شاغلها، ولا حتى شاهدة قبر الجارية الحبيبة التي من أجلها جاءت، صار الشاغل زهار العجيب الذي منح أمام عينيها الحياةَ للحجر، كما منحه للنبات والحيوان والطير والفراشات وربما للهواء في هذه الجنة التي لا يشبهها في قونية شيء.

على مدار أسابيع ثلاثة أنجز الحرس، تحت قيادة كبيرهم، ما

اتفقوا عليه؛ وضعوا خارطة دقيقة للوصول إلى المكان، حددوا عليها الدروب الخمسة التي يمكن أن تقود إليه بين دروب الجبل المهيب، وتأكد القائد بنفسه من تعميتها جميعها بكتل الحجارة حتى باتت مثلها في الصمت مثل الجبل لا منفذ ولا مفر، درب وحيد أبقوا عليه بعد أن زادوه ضيقًا بحجارة ضخمة نقلوها إليها فأصبح سردابًا يقطع الجاهل به رجاء الوصول.

خلال ذلك اتفق القائد وسيدته على حكاية ينقلونها للحاكم؛ إنهم ضاعوا في الصحراء وفقدوا الدليل وبالكاد نجا هو وسيدته بعد أن منحهما القدر فرصة جديدة للحياة.

في الجمعة الأخيرة من الأسبوع الثالث استقبل الدرب اليتيم إلى جنة زهار أول قاطعيه، امرأة الحاكم وقائد حرسها بعد أن وارى - بمساعدة أبي زهار - كلَّ الجنود الذين شاركوا في العمل، وثبَّتا على قبورهم شواهد صنعها الرجل بيديْه كما طلبها قائد الحرس تليق بأعمالهم العظيمة وما حوته صدورهم من أسرار جسيمة.

وكانت وصية أبي زهار وهو يستقبل مفجوعًا خنجرَ القائد القاتل بين ضلوعه أن ينقلوا حجارة ورشته إلى هنا، وأن يصنع زهار الذي لم يشهد أيًا من تلك الأعمال شاهدة قبر أبيه، بعد أن يختار بنفسه ما يليق به من كلمات الرثاء».

لم يخبرني علاء الدين شيئًا عن مصير العلاقة بين زهار وامرأة الحاكم. فلو أن زهار، كما توحي القصة، لم يعرف بما دار، فما الفائدة التي عادت على المرأة العاشقة؟ ولو أنه عرف وقَبِل، فهل يا تُرى ظلت عينا الله - اللتان عشقته المرأة لأجلهما - تطلان من وجهه؟

(٢٩)

وصلتُ إلى المكان. يبدو ـ بعد أن تنجح في المرور من الممر الضيق ـ كأنك خرجت من عالم إلى عالم موازٍ. ميدان كبير صنعته الجبال. الدكاكين منحوتة في الصخور. أمامها حدائق وزراعات كثيرة. كل دكان يصل بينه وبين الميدان ممر عُرضت فيه شواهد منحوتة بعناية بأشكال وألوان مختلفة تتخللها نوافير مياه وأقفاص طيور وأحواض زهور وشجيرات خضراء.

من مكانك في وسط الميدان، تصلك أصوات العمل كأنها سيمفونية غريبة من إيقاعات المطَارق والمناشير وأدوات الحفر ممتزجة بأصوات آلات كهربائية تثقب وتُقطّع. تتداخل معها أصوات رجال غليظة وحادة. كل صوت تحتفظ به الجدران الجبلية فيرتد ليتناسق مع بقية الأصوات داخل هذه المنطقة الفريدة من العالم.

من مكاني، رحت أدقق في لافتات المحال والورش. ترى هل أجد بينها ما يقودني إلى محل الفتى زهّار؟ كيف سيستقبل الناس هنا سؤالي عن فتى تفصل بيننا وبينه أكثر من ثمانمائة سنة؟ هل يعرف أحدٌ هنا شيئًا عن كيميا؟

الآن فقط انتبهت إلى معيار يمكنني أن أتأكد من خلاله إن كنت داخل الحلم أم خارجه؛ في معظم أحلامي تسقط حواجز اللغات.

يتحدث الناس لغتي أو أتحدث بلغاتهم. المهم أننا نتواصل. أسعدتني الملاحظة، وتمتمت متحديًا المأزق: الآن يمكني التأكد إن كنت في حلم، أم في علم!

لست أحلم. فشلتُ في محادثة كل من قابلتهم في هذا المكان. لجأت إلى ترجمة جوجول الناطقة. وكانت النتيجة ـ حين اختبرتها ـ مزرية؛ إذ جاءت ترجمة طلبي «أرغب في صناعة شاهدة لضريح»، حين أعدتُ ترجمتَها إلى العربية واختبرتُها بالإنجليزية: «أريد مشاهدة المعبد»!

لا شك في أنني سوف أكون محل سخرية هؤلاء الصنايعية إذا غامرتُ ووسّطت السيد جوجول بيننا.

بحثت في هاتفي عن رقم عاصم؛ الشاب صديق عمر الذي يدرس في إستنبول، إلى أن عثرت عليه في الرسائل، عرّفته بنفسي فرحب بي بكرم يشبه كرم صديقه.

أخبرته أنني في مهمة لصالح جهة فنية من الإسكندرية، ترغب في اقتناء نموذج لشواهد الأضرحة من قونية، بمواصفات معينة منقوش عليه عبارات محددة. وطلبت منه أن يكون وسيطًا بيني وبين أصحاب الورش هنا، الذين فوجئت بأنهم لا يتحدثون سوى التركية. واتفقنا على أن نلتقي هنا صباح الغد. فلتأتِ سريعًا أيها الغد.

(٣٠)

من تحت مياه الدُّش سمعت خبطات خجولةً على باب الغرفة. غالطتُ أذني مستمتعًا بتسلل حرارة المياه إلى أنسجة جسدي وعضلاتي المرهقة من المشي طويلًا في شوارع المدينة وأزقّتها.

ابتسمتُ لسؤالٍ رشقَ رأسَه في صفحة عقلي التي أحاول تهدئتها برذاذ المياه: تُرى هل كنتَ تتجول في شوارع قونية بالفعل، أم في أزقة أحلامك؟ أربكني السؤال فتشبثت بتفاصيل الواقع كما أشعر بها على جسدي ومن حولي؛ رشّاش مياه ساخن، بخار متكاثف، خرير متواصل لشلال يركض بين قدمي نحو بالوعة الصرف... دققت النظر فيه فعاودتني التساؤلات: هل ما أراه يلون الماءَ بلون الحليب غبارُ حجارةٍ حقيقي، أم مجرد امتداد ضبابي متوهم من حلم تسكعتُ خلاله بين ورش صنايعية تتكدس شواهد القبور أمام محالهم المنحوتة في حجارة جبل نجحتُ بأعجوبة في الوصول إليه والعودة منه؟

عاودتِ القبضةُ الخجولة الدقّ على الباب، أغلقتُ الحنفية وأرهفت السمع. طال تنصتي ولم تعد الدقات. ما أقسى هذا الشعور... ماذا أفعل لكي أتيقن إن كنتُ خارج الحلم، أم داخله؟

فقدت استمتاعي بطقس الاستحمام. سحبت الفوطة الكبيرة

وجففت جسدي سريعًا مركزًا كاملَ انتباهي جهة باب الغرفة. مَنْ يا تُرى يطرق بابي في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

لففت جسدي ببشكير كبير وألقيت واحدًا آخر فوقي كتفي وخرجت إلى الغرفة. أحكمَ الظلامُ سيطرته على الأركان إلا من ضوء خافت يتسلل من الحمّام. درت على مفاتيح الإضاءة وأشعلت المصابيح واحدًا واحدًا، ثم أدرت التلفزيون فتسللتْ إلى نفسي بعضُ الطمأنينة.

طمعًا في المزيد من الونس، رفعت مستوى الصوت. خُيّل إليَّ أني سمعت الطرقات على الباب... أم أن الصوت كان صادرًا من التلفزيون؟ هذه التزامنات المريبة في هذه الغرفة المريبة! كتمت صوت التلفزيون وأرهفت السمع؛ لا شيء. مرحى بالألعاب الليلية. تسللت إلى السرير وجذبت الغطاء فوقي. انتبهت إلى أني لم أرتدِ ثياب النوم. اكتفيت بالدفء الذي مرره البشكير إلى أعضائي، وحين انزلق مني تحت الغطاء، تسرب دفء اللحاف المزدوج إلى جسدي العاري ومنعني الكسلُ من النهوض مرة أخرى. فكرت في لقاء الغد المرتقب مع عاصم. تمنيت أن يكون الشاب جادًّا وأن يفي بوعده. عليه أن يقطع مسافة طويلة وشاقة لكي يصل إلى هنا. إذا صدق فلا شك في أنه في الطريق الآن. لم أسأله إن كان سيحضر بالبر، أم بالطيران! في الحالتين يجب ألا أنسى سداد نفقات رحلته كافة. وعسى ألا تمنعه شهامته من قبولها وفوقها مكافأة ترضيه.

التقطت الريموت وأعدت الصوت للتلفزيون. قررت إغماض عيني أملًا في بعض الاسترخاء... لولا أن عاد صوت الدقات.

ورغم تزامنه المستفز ـ بالثانية ـ مع صوت التلفزيون، فقد كان أكثر وضوحًا هذه المرة إلى درجة دفعتني إلى القيام للتأكد من الأمر.

متباطئًا وضعت قدمي في فردتي الشبشب المزينتين بشارة الفندق، راجيًا أن تمضي الليلة بسلام.

شغلتني الشارة؛ بدت لي شبيهة بالعلامة التي وضعها البروفيسور الأفغاني على بطاقته. تفحصت خيوطها من مكاني على طرف السرير. انتصبت واقفًا حين انتبهت إلى تسرب الوقت. مضيت صوب الباب وعيناي تختلسان النظر إلى طرفي الشبشب محاولًا إيجاد وجه الشبه بين الشارة المغزولة بخيوط لامعة على خلفية قطنية بيضاء... وبطاقة الأفغاني.. وقلادة كيميا وإسورة الطفلة. توالت الصور على مخيلتي... كدت أصطدم بباب الغرفة، فتفاديته. قفز إلى ذهني مثالُ الحمار الذي حدثني عنه ابن الإسكندروني والكردية. لا أعرف لماذا تخيلته بوجهه المكتنز بالحمرة وعينيه المتورمتين جالسًا في ركن الغرفة يسخر مني! توقعت أن أسمع ضحكته الغليظة الآن. سَرَت قشعريرة من أسفل عنقي وركضت بين فقرات ظهري حتى ارتعشت لها ساقاي. جُلت بعيني سريعًا في أركان الغرفة وزواياها، ولعنت للمرة العاشرة أنظمة الإضاءة في غرف الفنادق.

تذكرت سبب وقوفي قرب الباب فنظرت من العين السحرية. ولمّا لم أجد أحدًا، قررت تعليق لافتة «رجاء عدم الإزعاج» تمسكًا بأمل ضعيف في قضاء ساعات متصلة من النوم قبل لقاء الغد المأمول. رددت لنفسي في محاولة لجلب بعض الراحة بالسخرية: أي نوم؟ أظنني نائمًا بالفعل. ربما أنا في حاجة لبعض اليقظة، لا النوم!

هممت بإدارة مقبض الباب فعادت الطَّرقات. تيبست يدي لبرهة. لجمتُ لساني عن السباب مرة أخرى لاعنًا هذا التزامن الذي أخشى أن يصيبني في واحدة من قفشاته بسكتة قلبية. ملهوفًا أعدت النظر في العين السحرية، كانت كيميا في نهاية الممر المقابل للباب تقف كطفلة فقدت والديها.

أدرت مقبض الباب بلهفة. في منتصف انفراجته أصابتني لسعة رعب انتصب لها شعر رأسي وشعرت كأن سياطًا تُلهب جسدي بضرباتها، أعقبتها قشعريرة صاحبها عرقٌ غزير غمرني دفعة واحدة. أغلقت الباب بسرعة وهرولت إلى داخل الغرفة يكسوني شعور بالخزي؛ فقد فتحت الباب عاريًا كما ولدتني أمي! التقطت البيجامة من فوق ظهر الكرسي وأسقطت نفسي بداخلها في عجلة. ثم ركضت عبر الباب إلى نهاية الممر حيث كانت كيميا، فلم أعثر لها على أثر.

كنت أحملق كالمجنون وأدور حول نفسي في النقطة التي لمحت فيها كيميا تتوارى عن الأعين. جفلتُ من صوت رنة المصعد التي سرت في سكون المكان فانتزعتني من الأرض. انفتح الباب عن فتاة الاستقبال تقف هادئةً بابتسامةٍ غريبةٍ وبهجةٍ لم أجدها مبررة. رمقتني بنظرة مشاكسة أظنها طالت عن اللازم، ثم قالت: «ضيوفك مريبون...». وأعقبت بعد تردد بدا أنها تزن خلاله مدى لياقة الكلمة: «مثلك». ثم بسرعةٍ كمن يداري جريمة، أضافت: «البنت التي غادرت للتو... تركت لك رسالة».

كنت أحدّق في صورتي المنعكسة في مرآة المصعد خلفها، وأرى معها انحناءات ظهر الفتاة الرشيق تنعكس عليها الحمرة

المنبعثة من كسوة القطيفة المبطنة للكابينة. هل هو قدري أن أرى انعكاسات الأشياء في المرايا؟ إنها هي. رغم اختلاف الثياب، وربما بعض فروق طفيفة في تسريحة الشعر ودرجة تورد البشرة. كيف نجحت في تغيير ثيابها وتسريحة شعرها بهذه السرعة، ولماذا...؟ قطعت الفتاةُ استرسالي في عقد المقارنة بينها وبين كيميا... حين مالت بجذعها قليلًا خارج المصعد، ومدت نحوي ذراعها على طولها محافظةً على يدها الأخرى فوق زر فتح الباب. لمحتُ ورقة صغيرة بين أصابعها. تأملت رقّة الأصابع وفكرتُ في طريقة لإجبارها على الاعتراف بدورها في هذه اللعبة. بدا لي أن أسحبها إلى الممر ومنه إلى الغرفة لأعرف منها الحقيقة كاملة.

(٣١)

يجرفنا الحماس ونحن نحارب من أجل حقوق البشر فندوس بأقدامنا بشرًا آخرين لتزداد دائرة الظلم كثافة. فَزِعتِ الفتاةُ المسكينة عندما قبضتُ على معصم يدها مندفعًا وراء رغبة حمقاء يقودها فضول حارق لمعرفة الحقيقة. أي حقيقة تلك التي تسمح لي بإرهاب إنسان مسالم؟ الإنسان فوق كل حقيقة، لو كان ثمة ما يمكن وصفه أصلًابالحقيقة؛ إنْ هي إلا زوايانا ننظر منها فنرى قدر ما يتيحه النظر ويفسره العقل.

«بقدمين اثنتين، وخطوات كثيرة نقطع الطريق»، كانت هذه العبارة هي فحوى الرسالة التي تركتها زائرةُ المساء؛ طيفُ كيميا، أو من ظننتها كذلك. ورقة صغيرة مطوية أسقطتها فتاة الاستقبال وهي تسحب يدها من قبضتي وتركض إلى داخل المصعد وتهبط به مسرعة غاضبة. ربما ظنتني متحرشًا همجيًّا! أنا مدين لها باعتذار فور خروجي من هذه المتاهة.

دققت النظر في قطعة الورق الخضراء. الكلمات منقوشة بلون أغمق قليلًا من الخلفية. كتبتْها يدٌ غيرُ مدربة. فبدت كأنها رسوم نقلها طفل من فوق سبورة الصف. بقليل من الخيال، يمكن تصورها نقوشًا تركها رجل بدائي على جدران كهف.

لا تخلو كلمة في الرسالة من بقعة حبر مشعشعة. تبدأ بنقطة دكناء

في القلب ثم تنطلق إلى الخارج متشعبة في خطوط سميكة البدايات رفيعة الأطراف: شمس صغيرة، شموس كثيرة تزين الكلمات، بدت لي نتيجةً لبطء اليد التي كتبتْ وسرعة تدفق الحبر من القلم. تخيلت الفتاة قابعة في ركن كهف معتم تمسك بريشة تغمسها في سائل أخضر مستخلص من أوراق نباتات، تنقش الرسوم من على الجدار المقابل. ولأنها لا تعرف معناها فإنها ترسم ببطء وحرص وخوف، ولا تنجح في مسايرة انحناءات الحروف وتشكلاتها فيتوقف السن قليلًا فينتهز الورق الفرصة ليروي ظمأه من الحبر المتدفق. ولكن... مَنْ صاحبُ الكلمات؟

سوف تقودني هذه اللعبة إلى الجنون. أسرعت إلى الغرفة. لملمت أغراضي في الحقيبة. تفقدت الزوايا والأدراج وأسفل قطع الأثاث مطمئنًّا إلى عدم نسيان شيء. لن أنام هنا الليلة، سوف أنتظر أول ضوء للصباح لأغادر؛ خرجتْ كائناتُ الحلم في هذا الفندق عن السيطرة. عليَّ أن أكتب لنوري معتذرًا عن عدم إتمام هذه الرحلة. فتحت اللاب توب، وراقبت ألعاب الإضاءة والجرافيك على شاشته إلى أن استقرت. بلغ التوتر بي حدًّا لا يسمح لي بفعل شيء. العرق يكاد يقطر من راحة كفي وأطراف أصابعي.. وليس من الحرارة. بالكاد أسيطر على جسدي المرتجف.. وليس من البرد. أنا مدين باعتذار للفتاة. سوف أفعل. لا بد أن أفعل. تركت كل شيء وركضت نحو الأسفل.

في الاستقبال لم أجد الفتاة. ولا خطيبها. وجدت رجلًا آخر، قصيرًا وبدينًا، يجلس على المقعد بين اليقظة والنوم. وضعت جواز سفري أمامه وطلبت مساعدته في حجز غرفة باسمي في فندق

قريب من ساحة السلطان أحمد في إستنبول ليلة بعد غد. تحرّك ببطء مبالغ فيه، كأن أعضاءه مثبتة بغراء يخشى أن تسقط لو عملت بشكل طبيعي. هز رأسه، فاكتفيت بالهزة لأعرف أنه سيفعل. راقبته قليلًا وهو يتصرف كتمثال تُحركه أسلاكٌ خفية ثم سألتُه، بنبرة حاولت جعلها طبيعية، عن فتاة الاستقبال: لماذا لا أراها هنا؟ رفع نحوي عينين محمرتين، فخشيت أن تكون الفتاة قد أطلعته على موقفي معها. طالَ صمتُه؛ ربما يكبح غضبه أو يفكر في إجابة تليق بمتحرش! قاومت ارتباكي واستكملت حديثي محاولًا تبرير موقفي، قلت له إن زميلتكَ لا بد أساءت فهم تصرفي. ونسجتُ سريعًا كذبة عن كوني ظننتها تسقط عندما مالت بجسمها خارج المصعد، فبادرتُ لمساعدتها. وقلت متهكمًا إنها ـ فيما يبدو ـ فهمت ذلك محاولة مني للمس جسدها. خطأ.. بالتأكيد خطأ. كما أنها غادرت المكان قبل أن أشرح لها... زخرفت نهاية كلامي بما اجتهدت أن يشبه السخرية لكي أضيف إلى الموقف ما يليق بكونه ليس أكثر من سوء فهم.

لم تتغير نظرة الرجل الحمراء. ولكني لمحت طيف استنكارٍ يمازج ملامحَ النعاس على وجهه قبل أن يُجبرني بكلمات قليلة على صمتٍ لازمني طوال الفترة التي انتهى خلالها بكل بطء وهدوء من عمله، وامتد طوال ساعات جلوسي قرب المدخل في انتظار أول بصيص ضوء يسمح لي بالمغادرة للقاء عاصم... قال الرجل القصير البدين البطيء الناعس صاحب العينين المحمرتين وهو يمد يده لي بورقة سجّل على طرفها رقمَ الحجز الذي طلبته في فندق إستنبول: اهدأ... فمن تتحدث عنها لم تكن هنا اليوم!

(٣٢)

ـ «كيف يا أخي لا يتحدث الأتراك الإنجليزية.. رغم إصرارهم على أنهم أعضاء في الاتحاد الأوربي؟».

سألت عاصم ـ حتى قبل أن أصافحه. ضحك الشاب الذي بدا مرحًا وبسيطًا، وشرح لي أن السبب في ذلك يعود إلى السياسة المُغلقة التي اتبعتها تركيا، عند قيام الجمهورية؛ بهدف حماية الدولة وقوميتها. فالجمهورية التركية تأسست على قواعد وأسس قومية صارمة، استمر العمل بها حتى وقت قريب.. سنة ١٩٨٠، وهي فترة الانفتاح التي بدأها حزب الوطن الأم صاحب الخلفية الليبرالية. وقبل ذلك التاريخ كان من الممنوع ـ بالفعل ـ التحدث داخل البلاد بأي لغة أجنبية! حتى إنهم ترجموا جميع العلوم من الإنجليزية والفرنسية إلى اللغة التركية لأغراض الدراسة في المدارس والجامعات. لذلك لن تجد بسهولة أحدًا من الأجيال الكبيرة يتحدث سوى التركية، وإن بدأ الشباب هذه الأيام في تعلم لغات جديدة.

تولى عاصم المهمة بعناية، وقدّم لي ـ من خلال الحوارات التي أجراها مع أصحاب الورش ـ قائمةً بأفضل أنواع الحجارة التي يمكن استعمالها.

ترددت وساورني الخجل وأنا أؤكد له أن الشاهدَ المطلوب

لا بد أن يكون من مرمر شبه شفاف، تجري فيه عروقٌ ورديةُ اللون، وأن يتخذ شكلَ قلب به شرخ كأنه مكسور.

أوصيته كذلك أن يكون الحجر في أقل درجة سماكة ممكنة. وأخيرًا طلبت أن يقوم الصانع بتقسيم الشاهد إلى بلاطات صغيرة تشبه «البازل» يمكن تركيبها إلى جوار بعضها البعض بسهولة. وأضفتُ، كمن يبرر سلفًا طلبه الغريب: «سيكون أسهل في السفر».

أعفاني كرمُ عاصم العفوي من استفسارات كنت أظنها ستضعني في مواقف محرجة. وفوجئت بحرصه البالغ على إدارة عملية التفاوض وفق مواصفاتي، وإجراء مساومات دقيقة تتعلق بالسعر من ناحية، وبنوعية الرخام المطلوب من ناحية أخرى.

تنقّلنا بسبب تلك المفاوضات بين الورش. يدلنا صانعٌ على آخر. حتى استقر الأمر على ورشة تردّد اسمُها بين الجميع تقريبًا. اسم الورشة يشبه اسمَ رقصة ويثير نطقُه الضحك: شيشيك تشي، çiçekçi. رحت أردده كالأحجية مستعذبًا مخارج حروفه بينما نمضي في الاتجاه الذي دل عليه أصحاب الورش إلى أن صرنا أمام ورشة قديمة تختفي واجهتُها في نهاية ممرّ من الأحجار منحوتة على هيئات حيوانات تغطيها نباتات متسلقة تعددت ألوان زهورها وتداخلت.

وقفنا أمام الورشة، وكنت مستمرًّا في ترديد الاسم. نظرتُ إلى عاصم الذي ظل مبتسمًا طوال الطريق:

- صحيح..ما معنى شيشيك تشي؟

فقال من دون أن ينتبه إلى ما أحدثته كلماتُه من أثر:

- «بائع الزهور.. أو الزهّار».

وأردف: «مالها علاقة بشواهد القبور صحيح.. لكن... ما عليك.. مجرد اسم.. الصنايعيه هون شاطرين».

قلّبت عيني في محتويات الورشة العتيقة وتسمرت في مكاني. انتبهت على نداءات قلقة صاحبَتْها بعد قليل لكزاتٌ ازدادت حدّتُها من كفّ عاصم: «... يا زلمه؟.. يا أخ وليد؟ يااااا أستاذ؟ احكيني يا أخ غصّ قلبي! صاير شي؟».

كانت نداءاته تصلني مختلطة بصوت علاء الدين الذي راح يتردد في أذني بينما أقلب عيني في تفاصيل الممر الممتد أمامنا: «تراكمتْ تماثيل زهّار والشواهد التي صنعها فنقلها ليصنع منها ممرًّا تداخلت فيه الأزهار بالأحجار الملونة فزاد المكان ألقًا».

قطعتُ الممر المحفوف بالتماثيل والأزهار إلى أن صرت داخل غرفة مكتظة بالتماثيل وشواهد القبور الملونة. قلت لعاصم:

- «عفوًا أخ عاصم.. هي دي الورشة».

ألقيت السلام على شاب جلس منهمكًا يضع لمساته على تمثال لملاكٍ من مرمر وردي يرفع قلبًا يشقه من المنتصف خيطٌ دموي اللون. «يا الله.. وكأنه يصنعه لكيميا!».

رفع الفتى نحوي عينين عميقتين، فالتمست العذر لامرأة الحاكم التي استقبلها زهّار «بعيني الله، لا تشوبهما شائبة». رد الفتى السلام. لحقني عاصم الذي بدا مرتبكًا. شرحت له أنني راغبٌ في هذا التمثال البديع إذا وافق الشاب على بيعه. فقط سوف نطلب منه أن يضيف إلى القلب الذي يحمله الملاك بضع كلمات، ثم يقسم التمثال أفقيًّا إلى أجزاء قابلة للتركيب.

(٣٣)

حملت التمثال إلى غرفتي. أجاد الفتى في ورشة زهّار صنعه حتى كاد ينطق بالأسى من فرط دقته. وقام بتقسيمه كما طلبنا منه إلى قِطَعٍ يمكن فكُّها وتركيبها بطريقة التعشيق عبر أصابع من حجارة صُلبة.

ركّبت أجزاء التمثال وفككتها عدة مرات. وضعته أمامي في الغرفة. ملاكٌ رقيق الوجه رشيق الجسد بارتفاع ٣٥ سم، يرفع قلبًا نحو السماء، يحمله بين كفيه كالمبتهل. في القلب يركض عِرْقٌ دموي اللون كأنما يشقه إلى نصفين، حسرةً أو عشقًا أو أسفًا. ملاكٌ جريح القلب، «ما أشبهه بكيميا!».

فككت قطع التمثال وصدى سؤال يتردد في رأسي: «كيف أنقله إلى هناك؟». يخشون حتى ذكر اسمها؛ غَضِبَ المرشد السياحي لمجرد أنني تساءلت بعفوية إن كان يملك أي قصص عن كيميا، الفتاة التي عاشت في ظل جلال الدين الرومي! إنه يبدع في حكاياته عن الرومي وعن نسله، ويكتسي وجهه بالخشوع والتبتل وهو يسرد معجزات شمس التبريزي، فينفخ فيها كما شاءت له مخيلته وفق درجة انسجام السياح ومدى اهتمامهم بالخوارق والخرافات.

أما كيميا، فكما قال علاء الدين: طعنةٌ في جسد الفكرة. بابٌ تأتي منه الريح لتدير السؤال في العقول.

وما حاجة العشاق بالعقل؟! فالعشق ـ عندما يراد له أن يكون إلهيًّا ـ لا يسمح بسؤال. إلا إذا كان صالحًا لتضخيم الإجابة لا البحث عنها. اسأل أيها المريد لأغزلَ من أسئلتك حبالًا تقودك نحو إجابتي.

وما جدوى تساؤلات عن إجابة اكتملت؟ المجد هنا للاستماع لا للسؤال، يقول الرومي في أشعاره: «أنا أبكم.. والخلق كلهم صم.أنا عاجز عن الكلام.. والخلق عاجزون عن الاستماع» هذه ذروة ما يخشاه؛ أن يفقد قدرته على التأثير في البشر. ويؤكد شمس في مقالاته أن الناس سيدركون معانيه جيّدًا بعد مضي ألف عام، فيغزل الرومي مستكملًا الأسطورة بالشعر: «أُفْشِي سرَّك، لأنه لم يبقَ لديَّ صبرٌ أكثر من هذا، ولم تعد السماء والأرض تتحملان ألمي. أنا ثملٌ، وأُفشي سرَّ ألف عام، فإما أن تغمض عينيك وإما أن تفتحهما وترى جيدًا».

إنها لعبة اليقين المغلق ذاتها تصنع أسطورتها من جديد، مغلّفةً هذه المرة بشعر لا يراد له أن يكون شعرًا يكتفي بالجمال. عليك أن تفهمه كما يريدون. وإلا فأنت من هؤلاء الناس الذين لا يفهمون.. الجهلة والحمقى. كما يصفهم شمس في مقالاته: «فالشخص الذي فهم حديثي علامتُه أن حديث الآخرين يغدو عنده غثًّا باردًا ومرًّا، وليس ذلك بمعنى أنه يغدو عنده باردًا ويظل مع ذلك يتحدث معه.. بل بمعنى أنه لا يستطيع أن يتحدث معهم».

ولا مجال لأن تُعمل عقلك أو أن تتساءل محاولًا فلسفة الأمور: فـ«ما الفلسفة غير الثرثرة والكلام الفارغ...؟ والتعلم حجاب عظيم، والناس ينزلون فيه نزولهم في بئر. والعقل والعشق أحدهما ضدٌّ للآخر، ولا يتّحدان. وحيثما ألقت شعلةُ نارِ العشقِ شعاعًا

تجمّد العقل. وكل ما يدخره العقل في خمسين عامًا يحرقه العشق في لحظة واحدة». يقول شمس الدين، نثرًا، ويجاوبه الرومي شعرًا: «والعقل، في شرح العشق، مثل حمارٍ نام في الوحل».

ما ألطف الكلمات! إن العشق الذي يتحدثون عنه هو ما وصفه ابن سينا بالمرض الوسواسي الشبيه بالماليخوليا، وقال عنه أرسطو «هو عمى الحس عن إدراك عيوب المحبوب». إنهم يريدون عميانًا بآذان لا تسمع سوى كلماتهم وتفسرها كما يرغبون. ولا يريدون «الحمقى والجهلة أهل الجدال والحجاج».

من ذاكرتي قفزتْ صورةُ باب الضريح المكسور الذي خشيتُ أن أدفعه عندما كنت أبحث بين شواهد القبور. فتحت اللاب توب وتنقلت بين الصور إلى أن لاحت لي لقطات الباب: هذا حلٌّ جيد.

أفرغت حقيبة الكاميرا، ووضعت أجزاء التمثال بداخلها بعد أن لففتها جيدًا بقطع قماش سوداء، وقررت الشروع في العمل فورًا؛ فليس أمامي الكثير من الوقت في هذه المدينة.

(٣٤)

عند مدخل المتحف، وقفتُ في نهاية الطابور المنتظم أمام شباك التذاكر، أدقق النظر في وجوه الزوار. عند اقترابي من فتحة الشباك الملاصقة لبوابة الدخول الإلكترونية، ادّعيت الارتباك ورحت أفتش كالملهوف في جيوبي بحثًا عن نقود إلى أن انتبه الناسُ من حولي. تذمّر البعض وتعاطف البعض، واقترب آخرون وفي أعينهم الاستعداد لعرض العون.

رحت أردد: just give me minutes. ثم مددت يدي بالحقيبة لأقرب سيدة لمحتها على الجانب الآخر من البوابة. من هيئتها أظنها ألمانية؛ قوية البنيان رغم عمرها البادي على وجهها. بدت باقترابها من المكان متعاطفة أو فضولية، وتجلّت قائدةً وسط مجموعتها التي مرت معها للتو من الحاجز المعدني.

في فوضى الزحام التقطت السيدةُ الحقيبةَ من يدي. فخلعتُ معطفي وتظاهرتُ بالبحث في بطانته الداخلية إلى أن أخرجتُ يدي بنقود منحتها لموظف الشباك فسلمني التذكرة متعجلًا مروري، وعيناه منشغلتان بتزاحم المتذمرين ينتظرون دورهم خلفي.

مرقت بسرعة من البوابة. التقطتُ الحقيبةَ من يد السيدة وشكرتُها. وقصدت بخطوات واسعة مدخلَ المتحف لتقرأ عيناي للمرة الرابعة منذ جئت إلى هذا المكان: «يا حضرت مولانا».

رغم برودة الجو، ضايقتني حرارةُ العرق المتسرب من فروة رأسي عبر سلسلة الظهر متجمعًا عند رباط الحزام حول خصري. تذكرت أن عَرَقَ الخوف له رائحة تختلف عن العرق العادي. جيد أن المكان هنا متسع ولن يشمني أحد. ابتسمتُ رغم توتري؛ أفلت التمثالُ بمعجزة. فلنأمل في معجزة أخرى لاستكمال المهمة.

«لا تفقد الأملَ أيها القلب. المُعجزات تختبِئُ فيما لا نراه» حتى وأنا أحاول اختراق أسطورتك أستشهد بأشعارك يا جلال الدين. ما أشد سطوتك! شاعرٌ فارقٌ أنت. وسحر الكلمات كفيل بمواراة السوءات. منذ سجع الكهان وصولًا إلى مثنوي الرومي الذي كان «مبكيًا للشعب، مهيجًا لثورة حمياه، مثيرًا لدهشته، ساحرًا للبّه»، كما يصفه المؤرخون. الكلمات تحيي وتميت، ترفع وتخفض، تعز وتذل، يبدو أن «تهييج الشعب» هو رهان السلطة منذ الأزل. ولا يملك السَّحَرَة لذلك سوى الكلمات التي يجب أن تقول ولا تقول فيتوارى المعنى خلف مَن بيده الحجاب.

«كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة» ونسيَ النفري أن يضيف: واتسع التأويل. وبات المعنى في يد الأقوى يفرضه وفق حدود شهوته وقوته وأطماعه.

هل قَدَرُ الإنسان أن تحكمه كلمات مُلغزة، يفسرها كل صاحب سلطة على هواه؟ كلما ضاقت العبارة وتلونت اتسعت فرصة أصحاب السلطة لإعادة تفصيلها وحياكتها على قدر أطماعهم.

المجد للكلمات، ولا قيمة للإنسان. عاشت كلمات الرومي الوفيرة رغم ضيق عباراتها فوارى جميلُها قبيحَها. أما كيميا، فكانت مجرد كلمة واحدة. واضحة وصريحة لا بلاغة فيها ولا مواربة.

كانت «إنسانًا». لذا سقطت في بحر الصمت ولم يُحدث سقوطُها سوى فرقعة صغيرة لم يسمعها أحدٌ على وقع معاول بناء الأسطورة.

وفقًا لقاعدة المعجزات، أو وفقًا لقاعدة أن لا شيء يحدث مصادفة، فإن باب الضريح المكسور كان مهيأ لي وليس لأحد غيري. أقنعت نفسي بذلك. ورحت أدور في جولات واسعة تشمل الحديقة كلها ثم تضيق عند باب الضريح المقصود. أراقب المكان منتظرًا لحظة تخلو من زائرين.

حين حانت اللحظة، صعدت الدرجتين المؤديتين إلى الباب الخشبي المنقوش. وقفت كأنما أتأمل عروقَ النباتات وأوراق الزهور المحفورة ببراعة على اللوح البني حائل اللون في منتصفه.

دفعت الباب قربَ القفل دفعة قوية بيد ثابتة حتى لا يدوي الصوت، فانخلعت بسهولةٍ المساميرُ من الجهة المتحركة، وبدا شقٌّ يسمح بالدخول. كنتُ أسمع لضربات قلبي ضجيجًا خشيت أن يفضحني. انزلقتُ إلى الداخل كقطٍّ سرق طعامًا وأعدت إغلاق الباب.

يا الله! لم يجل في خاطري قط أن تكون العتمة في الداخل شديدة إلى هذا الحد. لا أرى شيئًا من فرط الظلام. ألمح لذراعي- حين أعلقها أمام عيني ـ طيفًا، أظنه حرارة وليس ضوءًا. أو هو وهم الواثق من أن ذراعه أمامه ولا يستطيع رؤيتها فتنعكس صورتُها من خياله أمام عينيه.

تسمرت في مكاني. لا أشعر بالطمأنينة سوى للبقعة التي أقف فيها، فهي المكان الوحيد الذي حفظته ذاكرتي على هدي الضوء المتسرب من الباب خلال الثواني القليلة التي انشق فيها لأدخل.

وماذا بعد؟ كانت المرة الأولى التي أشعر فيها بالقيمة العظمى لهذا السؤال.

(٣٥)

لم يكن أمامي سوى الانتظار، متجمدًا كتمثال، إلى أن يهدأ المكان في الخارج فأتشجع وأضيء كشّاف الموبايل لأرى أبعادَ المكان الذي أقف بداخله. لو كان ضريحًا كبقية الأضرحة التي زرتها خلال جولتي السابقة... فلماذا أغلقوا بابه؟ طرق السؤال ذهني فاقشعرت له أطراف جسدي.

هل يختلف الموتى هنا عن غيرهم في أي مكان؟ هنا رفات بشر عاشوا قبل ثمانمائة سنة. لو كانت لدى أرواحهم مهارات كالتي نسمع عنها في حكايات الجدات أو نقرأ نوادرها في روايات الرعب أو نشاهدها في أفلام السينما، لظهرت من زمن. أم تُراهم ينتظرون وصولي لبدء الحفل؟ ليس ببعيد؛ انتظَرَني علاء الدين ثمانمائة سنة حتى ساقتني الصدفة وحدها إليه... صدفة! كم يبدو غريبًا إيقاع الكلمة وسط هذا الظلام الحالك يرددها رجلٌ غريبٌ محجوز في غرفة مقبرة عتيقة ومظلمة في أقصى بلاد الأناضول!

اهتز الباب محدثًا صريرًا حادًّا انتزعني من بين أفكاري فارتعدت مفاصلي وتخيلت أن هذا الصوت لن ينبه فقط زوار المكان ورجال الأمن، بل سوف يوقظ الموتى من رقدتهم الطويلة.

تسرب إلى الغرفة خيطُ ضوءٍ باهت، لكنه كان كفيلًا بكشف

معالم المكان. إلى يميني بناء متهالك كان ـ ربما قبل مائة سنة ـ مقبرة. به أربع عيون. كل عينين في جهة، يفصل بينهما عمود رخامي مفتول على شكل ثلاثة أغصان شجر متعانقة.

العين إلى أقصى اليمين مقبرةُ رجل أخلصَ للطريقة المولوية؛ تشي بذلك الشاهدة المنتهية بالعمامة في قمتها. ولا شك في أنه كان فنانًا: كاتبًا أو رسامًا؛ يحرص الأتراك على ترك علامة تكشف مهنة الميت؛ هنا على الشاهدة نقش للفائف ورق وريشة رسم وقلم. يبدو أنه كان مبدعًا شاملًا!

المقبرة إلى أقصى اليسار لسيدةٍ؛ شاهدها المزين بعقد أو سوار من الزهور لا يترك مجالًا للتخمين. هل كانت زوجة الفنان؟

القبران في الوسط أحدهما لامرأةٍ ماتت قبل زواجها؛ إذ يزركشون شواهد قبور الفتيات بزهور تتدلى من أغصانها المنحنية. هل تكون ابنتهما؟ لماذا أغلقوا باب البناء عليهم؟ هل تكون كيميا؟

اقتربت لأتأكد من شاهدة المقبرة المتبقية، لفحني تيار هواء صادر من مقبرة الفتاة، من أين يأتي هذا الهواء؟

ارتفعتْ في الخارج صيحةٌ حادة. أعقبتها صيحاتٌ مع تغيّر المصدر. يبدو أنها طقوس يؤديها الجنود لاستلام أماكن الحراسة. كيف مر الوقت بهذه السرعة؟ تغيرت الإضاءة من ضوء النهار إلى أضواء المصابيح الكهربائية. وانسابت في المكان غلالات الأخضر المشع من ضريح جلال الدين الرومي.

اقتربتُ حذِرًا من مصدر الهواء. سمعت صوتَ أنين كأنما طفل يناغي. وامرأة تردد تهويدة لتنوّمه. أصختُ السمع فاتضح الإيقاع، هنا أمٌّ تهدهد طفلها.

ـ أيًّا كنتَ أيها الطيف، إلى أين تقودني في هذه الرحلة؟ومتى تنتهي مهمتي المخيفة هذه؟

ـ هذا تقديرٌ إلهي فَسِرْ في طريقك حتى يوم القيامة.

ـ أي تقدير، وأي طريق؟

ـ سَن وليد علاء الدين سِن، بَن علاء الدين وَلد تر، سَن بِنم ترستر.

ـ عدتَ إلى الطلاسم!

ـ أقول لك: أنت معكوسي في عالم الصورة بعد انتقالي إلى عالم الحقيقة.

ـ لمجرد أن اسمي واسمك يشتركان في علاء الدين؟

ـ لا شيء في هذا الكون يحدث مصادفة، ألا تعرف أن اسمي وليد؟ اسمع.. اسمع الحكاية.. أوشك وقتي على النفاد.

ألصقتُ أذني بالفتحة، فاستكمل الصوتُ حديثه بنبرة الأم التي تنوم طفلها، كأنما يقرأ لي متنًا من كتاب:

«ولما ذهب شمسٌ إلى مدرسة مولانا قال: هلمّ خذ قدحين واذهب وأحضرهما [مملؤتين بالنبيذ] هذه المرة دون مواراة. وفعل مولانا ما أمره به شمس. ودخل المدرسة ونادى زوجته وبناته وأعدّ اللحم المشوي. وقدّم شمسٌ قدحًا ممتلئة لهم جميعًا وجعلوا يتوادون ويتحابون سبعة أيام.

بيد أن الناس قالوا لوليد بن مولانا إن أباك قد أصبح كافرًا ويجب البحث عن علاج ناجع لهذا الأمر. فقال وليد: لأقطعن رأس هذا الدرويش، ولأخلصنكم منه. ثم أقسم الأيمان المغلظة ليضطلعن بهذا الأمر.

ولما أقبل إلى المدرسة نظر فرأى أباه وأمه وإخوته جميعًا

مشغولين بالسماع وأرجلهم لا تكف عن الحركة وهم يلفون ويدورون في الهواء، فما كان من وليد إلا أن عشق هذه الحركة التي هم عليها وأقنعوه بدورهم واستمالوه.

وذات يوم وقف مولانا على باب الخلوة ونادى شمسًا فأقبل في الوقت المحدد، ثم خرج يقول: يا الله، وضربه وليد بالسيف الذي في يده ثم قطع رأسه، فما كان من شمس إلا أن أمسك برأسه قبل أن تقع على الأرض وتناولها بيده. ثم صاح قائلًا لمولانا: إما أن تستمسك بي وإما بخونكار حاجي بكتاش. ثم قال لوليد: إنك ستضطلع بالمهمة بيدك».

صمت الصوتُ وإن بقيَ إيقاع التهويدة مستمرًّا. عاد علاء الدين وخاطبني، أو قالت الريح بصوته:

«يخرج في آخر الزمان رجالٌ يختِلون الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلودَ الضأن من اللين، ألسنتهم أحلى من السكّر، وقلوبهم قلوب الذئاب. يقول الله عز وجل: أبي يغترّون، أم عليَّ يجترءون؟ فبي حلفتُ لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم منهم حيرانًا».

- إن كان زمانكم «آخر الزمان» فماذا عن زماننا؟! هل قتلتَ شمس الدين؟

ألقيتُ السؤال بحرقة الأرق الذي لازمني طيلة الوقت: هل ندفع الظلمَ بالقتل؟ هل قتلتَ شمس الدين يا علاء؟

ارتجف الصوت وعاد إلى حكاياته:

«علم حاجي بكتاش بهذا الأمر فنهض من مكانه، ولما سمع مولانا ما قاله شمس: فاستمسِك بي أو بخونكار حاجي بكتاش، همَّ من فوره واثبًا من مكانه، ثم أخذ يجري في إثر شمس وجاء إلى

تكية حاجي بكتاش وقال له: اذهب إلى شمس التبريزي وستجده في منطقة خاموش.

ولما جاء مولانا إلى هنالك مهرولًا، فماذا رأى حينئذ؟ لقد وجد شمسًا منشغلًا بالسماع فوق مئذنة خضراء، فصعد مولانا المئذنة من فوره ونظر فلم يجد أحدًا، ولما ألقى نظرة إلى أسفل رأى شمسًا يمارس طقوس السماع في قاع المئذنة فجرى وهو يقول: استمسك بي، أو بشمس التبريزي. ثم قفز من المئذنة، وإذا بشمس يمسك بإحدى يديه ويمسك مولانا بالأخرى، ثم قال: ادفني بالكفن ها هنا واذهب أنت إلى حاج بكتاش ونل نصيبك.

ذهب مولانا إلى حاجي بكتاش بعد فراغه من دفن شمس، وقضى مدة الندم أربعين يومًا في مطبخ التكية. وبعد انقضاء هذه المدة حلق حاجي بكتاش شعرَ مولانا بحسب ما تقضي به طقوس الطريقة ونواميسها، ثم ألبسه القلنسوة مكبّرًا ثم قال: ليكن طريقك مولويًّا ومسيرك بكتاشيًّا».

- ماذا تريدني أن أفهم من هذه الحكايات؟

ردّ الصوت:

- فتنة تدع الحليمَ منهم حيرانَ.

- تمارس معي لعبة الكلمات نفسها التي أوصلتنا إلى ما نحن فيه! هل قتل شمسٌ كيميا؟

ردّ الصوت:

- ألسنتهم أحلى من السكّر، وقلوبهم قلوب الذئاب.

لن أصل معه إلى حلّ. صرخت: متى تتركني لسبيل حالي؟

قرقعتْ في الهواء ضحكةٌ، هي ضحكتي، أعرفها. خاطبني صوتي هذه المرة:

«حين تجد سبيل حالك.. أرح ضميرك.. ضع شاهدة الضريح.. اغرسها هنا في قلب مقبرة قاتليها.. دع الناس يعرفون قتيلة مولانا.. اغرس السؤال بين صدورهم.. ضع بذرة الفكرة.. ولا شك سوف تنبت فيعرف البشر أن حياة فتاة ـ على بساطتها ـ فوق كل دين وقبل كل معبود.. اغرس شاهدة قبرك وارحل إلى ديارك فإنك أتممتَ الرسالة».

غادرني الخوف. فتحتُ باب المقبرة الصغرى وخرجت إلى المقبرة الأكبر. غير محتاط لحارس أو متهيب من رقيب. بخطى ثابتة توجهت نحو ضريح الرومي:

- سلامٌ عليك أيها الشاعر العظيم.. أما آن لك أن تضمّ كيميا إلى جوارك؟

لم أنتظر ردًّا. استنفد المثنوي كل ما يمكنني سماعه من جلال الدين ودراويشه. على كيميا اليوم أن تقول كلمتها. أن ترفع صوتها مهما كان ضعيفًا وسط صرير عجلات عربات السلطة الصارخة بأسماء الآلهة، والأديان، والسياسة ووعود الآخرة البراقة.

في قلب ضريح قاتليها، وضعتُ تمثالها رافعًا قلبَه المنكسر بين كفيه. كُتب عليه لمن يقرأ: «قتيلةُ مولانا».

تمدّدتُ هادئًا على السجادة العجمية الناعمة، وصوت في ذهني يقول لي: فعلتَ الصواب؛ ومعه ترددت مقولة الرومي صانعةً دلالة جديدة خالية من التشويش: «لا تقل إن كل هذا خيال وضلال، فليس في العالم خيال بدون حقيقة».

كنت مستمتعًا بتأملِ القبَّة العالية كأنها سماء طرّزتها نقوشٌ تجلّى جمالُها رائعَ التصميم بعد أن خَفِيَ عني طوال الأيام الماضية.

عزيزي نوري

في المرفق تجد آخرَ ما يمكنني مشاركته حول هذه الرحلة. سوف أبدأ كتابته الآن- إن استطعت- وأبقيه على الديسكتوب لأضيف إليه خلال السفر ما يستحق من أحداث... هذه هي الطريقة الوحيدة التي أشعر معها أن المهمة انتهت.

لا أريد العودة للكتابة عنها بعد وصولي. كانت رحلة شديدة الصعوبة.

حديثي ليس عن مشقة التنقل والمسافات الطويلة والبرد؛ أجساد البشر مصممة لتحتمل أشق أنواع المتاعب والصعاب إذا كان القلب مؤمنًا بما يفعل والروح متطلعة ومنسجمة. لكن المرء مهما بلغت قوته ينكسر أمام سؤال صغير يحرّك القلق في نبع روحه.

وإذا كان الرومي يقول: «حَاصِلُ عمري كنتُ نيئًا ثمّ نضجتُ ثم احترقتُ»، فأنا ذهبتُ إلى قونية نيئًا وأنضجتني نارُ الحزن والغضب على فتاة كزهرةٍ برّية اقتطفتها يدٌ خشنة بقلب غليظ بدعوى عشق الله. نضجتُ وصرت أخشى أن أحترق.

أظنني في حاجة إلى وقت طويل.. طويل بالفعل.. لمراجعة الكثير من الأمور قبل أن تتضح الرؤية أمامي. واسمح لي أن أحتفظ بعنوان ما أُرسله إليك من مشاهدات وخواطر كما هو: «في الطريق إلى مولانا»؛ فأنا ـ في الواقع ـ لم أصل بعد.

مودتي/ وليد

في الطريق إلى مولانا (٦)

في العاشرة والربع صباحًا تحركتْ طائرةُ الخطوط الجوية التركية من مطار قونية قاصدة إستنبول.

خططت لقضاء يومي في رحاب المسجد الأزرق وكنيسة آيا صوفيا، قبل أن أغادر إلى دبي.

لم تستغرق الرحلة أكثر من ٤٥ دقيقة. هبطنا في مطار إستنبول. بعد خطوات من اجتيازي لبوابة التفتيش إلى صالة الرحلات المحلية، تذكرت أنني لمحت غرفةً للأمانات يضع فيها المسافرون حقائبهم لقاء أجرة؛ فغلبتني الرغبة في التخفف من أحمالي.

أمرني الضابط بالعبور مرة أخرى من بوابة تفتيش إلكترونية. اضطررت لتكرار رفع حقائبي إلى سير جهاز التفتيش، وخلع معطفي وحزامي وحذائي ووضعهم مع العملات المعدنية والموبايل في صندوق، قبل المرور من البوابة الصغيرة ذات اللمبات الحمراء والخضراء، لأستسلم ليد شرطي يمسح جسدي بعصا إلكترونية.

الجديد هذه المرة كان سؤال الشرطية اللطيفة التي فتشت أغراضي فاستوقفتها لمبةُ جاز زجاجية ذات جسد نحاسي أصرَّت على أن أخرجها بيدي من الحقيبة. تحسستْ جسدَها المكتنز وقالت: لماذا تحمل هذه؟ قلت: ذكرى من جحا العظيم، فاكتفت بابتسامة، لا تقلّ في تهذيبها عن ابتسامة الشاب التركي بغرفة الأمانات الذي هشَّ في وجهي بعد تصفحه جواز السفر، وقدّم لي قطعة حلوى وهو يردد: Egypt ثم أعاد لي جواز سفري ومفتاحًا وإيصال أمانة.

صرت خفيفًا لا أحمل سوى حقيبة يد صغيرة والكاميرا واللاب توب. توجهت إلى محطة المترو داخل المطار وألقيت بنفسي في واحدة من عرباته الهادئة. بت أعرف الطريق. مقصدي آخر المحطات «أكساراي»، الأقرب إلى مركز المدينة.

إستنبول، وقد غسلها المطر، أكثر دفئًا من أنقرة التي جففني صقيعُها، ومن آق شهر رغم جمالها، ومن قونية التي تركتُها بأطرافٍ تجمّدت بفعل البرد.

إستنبول، للمرة الثانية، تستقبل وتودع؛ استقبلتني قبل أيام قاصدًا زيارة مولانا، لتودعني إلى قونية وأنقرة، وآق شهر، ثم تستقبلني اليوم قاصدًا زيارتها لتودعني في الغد وداعًا لا نعرف متى نلتقي من بعده.

خفيفة الروح هي إستنبول.. رغم أنها مدينة مزدحمة، فهي ليست صادمة كأنقرة. أنقرة، متمنعة ـ كغيرها من العواصم ـ تصدك بزحامها غير المنظم وبردها القارس، إلا أنها تسلب لب الغريب إذا جاهد فارتقى مقامَ بوح قلبها القديم؛ حيث تتواصل في شوارعها الضيقة أنفاس اللاهثين وراء قضاء حوائجهم من غابر الأزمنة، وحتى المنحنين أمام موظفي المصالح الحكومية الحديثة.

إستنبول رقيقة وراقية. تستقبلك على مهل ولا تشترط عليك المجاهدة. يكفيها أنك تقصدها فتقصدك وتمنحك ما يوافق هواك.

في زيارتي الخاطفة لها منذ أيام، توقفت مشدوهًا في برزخها بين المسجد الأزرق وكنيسة آيا صوفيا. دقائق قصيرة قضيتها هناك كانت أشبه بنداء خفي للعودة. لم أستطع سوى تلبيته، لأعود إليها اليوم مسلّمًا ومستئذنًا في الرحيل. إذا أغفلنا تواريخ الحكام والصراع الدموي على السلطة، وفكرنا في البشر والحياة، فإن إستنبول ـ بالتركية الحديثة ـ وإستانبول ـ بالعثمانية ـ هي بيزنطة التاريخية.. هي القسطنطينية والأستانة وإسلامبول، الرومانية

البيزنطية اللاتينية العثمانية..صاحبة الأرض وخازنة الأسرار التي تعتقت فيها آمال وأحلام ومسرات وأحزان الملايين، مسرح أرواح يستحق أن نملأ أعيننا وقلوبنا منه قبيل المغادرة، لنعرف أننا لا شيء، وأن اللاشيء عليه أن يكون خفيفًا كلاشيء؛ حتى يمكنه السلوك في مدرج الأرواح كما سلك السابقون.

انتبهت على نداء الإذاعة الداخلية للمترو عند وصوله إلى محطة أكساراي. نهاية الخط في اتجاه وسط المدينة. غادرت سريعًا قبل أن يغلق القطار أبوابه استعدادًا لتغيير المسار.

اليوم أول أيام عيد الأضحى في تركيا، أثار الأمرُ عجبي لأن الحجّاج وقفوا وقفتهم بعرفات أمس الأول. كانت رغبتي أن أصلّي العيد في المسجد بقونية قبل التوجه إلى المطار. ولكن قررت مغادرة الفندق مبكرًا لقضاء فريضة إنسانية لا تحتمل الخلاف بشأنها.

في الفندق، اكتفيت بتأكيد الحجز، ثم ألقيت بنفسي إلى الشارع. خطوات قليلة وجدتُ نفسي بعدها في ساحة السلطان أحمد. صباح مبكر وإجازة عيد. الشوارع ساكنة وفارغة تمامًا. وإستنبول مِلكي الخاص.

في ميدان السلطان أحمد: مسجده أمامي، وكنيسة آيا صوفيا خلفي. لا أعرف لماذا ظل المسجد مسجدًا بينما أُغتصبت الكنيسة مرتين؛ مرة لتصبح مسجدًا والأخرى لتكون متحفًا كما هي الآن؟

عمران آيا صوفيا أكثر رحابة وفخامة، هي أقدم وتبدو آثار الزمان واضحة عليها إلا أن ذوقها الرفيع واضح، وإن كانت يد العبث شوهت الكثير من معالمها الداخلية.. خاصة تلك الأقراص الخضراء الضخمة ذات النقوش الذهبية التي تم تعليقها في زوايا

البناء، لا بد أنها أفسدت الكثير من الزخارف والنقوش البديعة التي تظهر في أماكن أخرى من البناء العتيق. حتى مع الجمال لم ينجح الإنسان في التعامل بحياد بعيدًا عن التعصب الديني.

فوق المحراب الذي يحدد اتجاه القبلة مباشرة، تُحلّق مريم العذراء محتضنة ابنها في نقش متقن بديع. تقول الأسطورة إن أحد سلاطين الخلافة العثمانية عندما دخل الكنيسة قصد أحد الأعمدة الرئيسية فيها ودسّ إبهام يده اليمني في ثقب بها وأدار كفه فاعتدلت الكنيسة في اتجاه القبلة! رأيت الناس ملتفين حول أثر إبهام السلطان، كل منهم يدس إبهامه في الثقب نفسه ويحاول أن يديره إلى أقصى اليمين. الكل راغب في أن يصبح سلطانًا ويدير العالم وفق هواه.

عندما خرجتُ من آيا صوفيا كان الليل والبرد يغلّفان المدينة، لم تتجاوز الساعةُ السادسةَ مساءً إلا أن ميدان السلطان أحمد كان شبه خالٍ من الزوار.. إنه البرد وعيد الأضحى.. شكرًا لهما أن منحاني إستنبول خالصة لي من دون ضجيج أو زحام يومًا وليلة كاملين.

المترو ينساب بهدوء محترمًا جلال الميدان، ثمة تآخٍ عجيب في المباني بين القديم المكلل بالدقة والإتقان، والمعاصر السطحي. تآخٍ مذهل آخر بين الموت والحياة؛ المباني على ناحيتي الشارع مقابر عائلية تحول معظمها إلى مطاعم وكافتيريات وبازارات.

السكينة هي الصفة الوحيدة الملائمة لوصف الشوارع اليوم، سواء صباحًا في قونية أو الآن في إستنبول..إنها إجازة العيد.

في صباح قونية المبكر لم أر سوى بعض الأُسر اصطحبت أطفالها وشدّت رحالها. ربما لزيارة عائلاتهم في مدن أخرى.

وعددٍ من الأفراد الذين وقفوا أمام متحف مولانا المغلقة أبوابه، في هدوء متمتمين بكلمات.

أفسد البردُ المشهدَ الكلاسيكي للدعاء حيث ترتفع الأكف نحو السماء، فالجميع كانوا يدسون أكفهم في جيوب معاطفهم الثقيلة، إلا عجوز وحيد أصرّعلى أن يقيم دعاءه رافعًا كفيه إلى السماء مقاومًا رعشة بدت واضحة فيهما، لا أعرف إن كانت من التقوى أو بسبب البرد أو من فعل الزمن.

قلوب الجميع أمام الضريح لا بد كانت معلقة بجلال الدين، بينما كان قلبي معلّقًا بكيميا.

* * *

على متن طائرة تابعةٍ للخطوط الجوية السنغافورية تقبع في مطار أتاتورك، أخرجتُ المطبوعةَ التي حصلت عليها من محل التذكارات في متحف الرومي: «نصائح مولانا السبعة».

ارتفع صوت الإذاعة الداخلية معلنًا عن استعدادنا للانطلاق في رحلتنا إلى دبي. أمرنا الصوت الأنثوي الناعم، بإنجليزية ذات لكنة غريبة، بربط أحزمة الأمان وعدم التحرك من المقاعد طوال الرحلة، لأي سبب بما في ذلك استخدام الحمام؛ فالطائرة سوف تتعرض لاهتزازات عنيفة نتيجة مطبات هوائية، وصفها الصوت بالمتوقعة في مثل هذه الأجواء، وطلب منا عدم القلق متمنيًا للجميع «رحلة سعيدة».

مجتهدًا في دفع القلق من المطبات الهوائية والاهتزازات وطيف كيميا، رحت أقرأ وصايا الرومي المكتوبة بسبع لغات:

كن كالنهر الجاري في السخاء والعطاء.
كن كالشمس في الشفقة والرحمة.
كن كالليل في ستر عيوب الآخرين.
كن كالميت عند الغضب والثوران.
كن كالتراب في التواضع والبساطة.
كن كالبحر في التسامح والعفو.
كن كما أنت أو كن كما يراك الناس.

منعتُ نفسي من الالتفات إلى الفتاة الصغيرة في المقعد المجاور. أشم ريحَ كيميا. أخشى أنني سوف أظل أراها في كل فتاة.

أغمضت عيني وأرحت رأسي للخلف أملًا في إغفاءة تحميني من عصف السؤال بداخلي: تُرى يا كيميا، بأي هذه الوصايا عمل معك جلال الدين الرومي وهو يمنحك هديةً سائغة لشمسه؟

إشارات هامة

الأقوال والأشعار والحوارات المنسوبة للشخصيات التاريخية في الرواية: الرومي، وشمس التبريزي، وحسام الدين، وغيرهم مأخوذة نصًّا ـ أو بتصرف لا يخل بالمعنى ـ من عدد من الكتب استعان بها الكاتب.

هنا تفصيل لأبرز تلك الاقتباسات:

ص ٦٧: حول ليالي الرومي في مجلس نساء زوجة مسئول الاستيفاء... يراجع كتاب «**رسائل مولانا جلال الدين الرومي**» ترجمة عيسى علي العاكوب دار الفكر في دمشق، ط١، ص ٤٠٦-٤٠٨.

ص ١١١: «رفرفة طائر نصف مذبوح ملطخ بدمه يتمرغ في الوحل» وصف لرقصة السماع من **المثنوي المعنوي للرومي**.

ص ١١٢: «استمع إلى الناي، وكيف يئن ويشكو، وكيف يشرح الفراق!» هذا البيت هو أول الأبيات الثمانية عشر، وهي فقط ما كتبه الرومي بقلمه من مجموع ٢٦ ألف بيت يضمها المثنوي. أما الباقي فقد كتبها طُلّابُه، وفي مقدمتهم حسام الدين جلبي. ولهذه الأبيات لدى المولويين منزلة خاصة تصل إلى حد التقديس وتعظيم الرقم ١٨ لأجلها. (جيهان أوقويوجو، **مولانا جلال الدين الرومي**، دار النيل، مصر، ص ٢٠٦-٢٠٨).

ص ١١٣: «السماعُ قوتُ العاشقين، من خلاله يتحقق الوصال، وبه تقوى خيالات الضمير، وتتحول إلى صور» من شروح الرومي للسماع.

ص ١٤٤: «ادخُل في السماع، فإن الذي تنشده سيزداد» **من أقوال شمس الدين التبريزي لجلال الدين الرومي**.

ـ «غيّر النغمةَ واعزف لحنًا جديدًا، فقد وصل من الفَلَك صوتٌ جديد». **ديوان شمس تبريز**، الغزلية ٢٢٦٣.

ص ١٥٤: «أنا شمس تبريز... مسلمون باطنًا». من مقالات شمس، وهي أقوال جمعها سلطان ولد، ابن جلال الدين الرومي في كتاب حمل هذا الاسم، فلم يترك شمس الدين التبريزي أثرًا فكريًّا نثريًّا أو شعريًّا مكتوبًا.

ص ١٥٧: «كان شمس يجلس... وماذا تعطي مقابلًا لكي أظهره لك؟» هذه العبارة وردت عند عطاء الله تدين في كتابه «**بحثًا عن الشمس**»، نينوى، ص ٤٧٧.

ـ «صار الذين يريدون رؤية أبي... أو إلى مولانا». ص ٥٢ من كتاب «**المولوية بعد مولانا**»، عبد الباقي جلبنارلي، ترجمة عبد الله أحمد إبراهيم، المجلس المصري الأعلى للثقافة.

ص ١٥٨: «أيها السلطان حسام الدين، أنا الحبيب وأنت المحبوب. ولقد بذلت جهدي لأكون غمد علم من أجل سيفك». من مقدمة المثنوي. جلبنارلي عبد الباقي، **المولوية بعد جلال الدين الرومي**، المشروع القومي للترجمة ص ٥٦.

ـ «أيا نور الإله، وصاحب الفضيلة حسام الدين. اعلم أنك طبيب الأفئدة دون النظر إلى وريد أو الاستماع إلى نبض، أو الاستعانة بالعلوم التي تخص النجوم». نفس المرجع السابق.

ـ جاءه وقال إنه رأى في منامه أن النبي عليه السلام، كان يقرأ المثنوي، ويمدح هذا الكتاب ويطريه أمام الصحابة. وقال إنه رأى النبي في معية مولانا وهو يمدحه ويثني عليه... نفس المرجع السابق.

ص ١٦٠: «إن ألفاظ مولانا تشبه المرآة، وكل شخص يرى شيئًا واحدًا في هذه المرآة .. وما يراه هو ذات نفسه، وثمة آلاف مؤلفة من الأنهار تصب في البحر، بيد أنها جميعًا لا يتأتى لها أن تكون بحرًا». نفس المرجع السابق.

ـ «نعم؛ لو شرحنا مولانا فلسوف نتردى في لجة الخطأ بعينه». نفس المرجع السابق.

ـ «إن في يديك سيفًا وهراوات غليظة، وملائكة موجودين يستأصلون شأفة إيمان ودين أولئك الذين لا يلقون السمعَ إلى المثنوي موقنين به مذعنين له». نفس المرجع السابق.

ـ «إنني أرى الآن عدو هذا الكلام ماثلًا أمام ناظري بجلاء، وقد هوى في نار جهنم منكّس الرأس، أقسم بنور الحق إنك قد رأيت حاله، وأظهر الله لك الجزاء الذي ناله من جراء فعلته». نفس المرجع السابق.

ص ١٦٢: من «إياك أن تظن... حتى كليلة ودمنة... الأبيات من ٣٤٥٩ إلى ٣٤٦٣ **المثنوي، الكتاب الرابع**، ترجمة د. إبراهيم الدسوقي شتا، ص ٦٠٩، المشروع القومي للترجمة، مصر.

ص ١٦٣: قصة الرومي عن صداقة المسلم والمسيحي واليهودي ووصفهم بالصقر والغراب والبوم، ووصف الأديان السابقة بالذهب المزيف والدراهم المغشوشة والذراع المشلولة إلخ.. وردت في كتاب «**مولانا جلال الدين الرومي**» جيهان أوقويوجو، دار النيل، مصر، ص ١٤٠ و١٦٧. ومثلها كثير في أشعار الرومي.

ص ١٦٤: «لو أن رجلًا عبدَ الله تعالى خمسين سنة ثم جاء يومَ النيروز وأهدى إلى بعض المشركين بيضةً ـ يريد تعظيم ذلك اليوم ـ فقد كفر وحبط عمله». من كتاب «**البحر الرائق شرح كنز الدقائق**»، ابن نجيم ج ٨ ص ٥٥٥.

ص ١٦٨: قصة الدرويش بابا إلياس مذكورة في الكثير من المصادر، وقد اعتمد الروائي كتاب **الفكر الباطني في الأناضول**، الدكتورة بديعة محمد عبد العال، ص ١٠٩.

ص ١٦٩ حكاية حاجي بكتاش خمسمائة القطعة الذهبية، وبابا المرنتلي، مذكورة في عدد من المراجع، اعتمدنا هنا على كتاب «**جلال الدين الرومي**»، الباحثة جيهان أوقويوجو، دار النيل، مصر.

ص ١٧٤: «استفاد أيما استفادة من نفوذ وتأثير مولانا، كان غلامًا مطيعًا لم يخرج على قولة أبيه مقدار ذرة واحدة»، هذا الوصف لسلطان بن جلال الدين

أورده عبد الباقي جلبنارلي في كتابه **المولوية بعد جلال الدين الرومي**، المشروع القومي للترجمة، مصر، ص ٥٠. وتتحدث الكثير من المصادر عن أنه كان رجل دنيا من الطراز الأول.

ـ حديث سلطان لشمس عن رقص أبيه منذ الطفولة ورد في كتاب «**بحثًا عن الشمس**» لعطاء الله تدين، نينوى، ص ٤٥٨.

ص ١٧٥: انتظار سلطان ولد وكيرا خاتون وابنتها لعوائد الوقف من حسام ورسالة سلطان ولد بشأن خدمة المغول، وردت في كتاب **المولوية بعد جلال الدين الرومي**، عبد الباقي جلبنارلي، المشروع القومي للترجمة، مصر، ص ٥٤، ٧٤. وكذلك نص رسالة سلطان ولد لأحد الأمراء بشأن المغول.

ـ «نحن دراويش، ننظر إلى مطلب الله ومراده فيمن يريد، وننحاز إلى من يريد أن يعطي الله له الدولة، وإن الله يريد المغولَ ولا يريد السلاجقة؛ لذلك فقد أخذ دولة السلاجقة وأعطاها لسلالة جنكيز خان». هذه المقولة منسوبة لـ «أولو عارف جلبي» الذي تربى في حجر الرومي وصار أحد الخلفاء، وكان مناصرًا للمغول. عبد الباقي جلبنارلي، **المولوية بعد جلال الدين الرومي**، المشروع القومي للترجمة، مصر، ص ١٢٧.

ص ١٧٨: حول تلصص كيرا خاتون زوجة مولانا، على الرومي وشمس في المختلى، أورد سلطان ولد في كتابه «**مناقب العارفين**» هذه الحكاية على لسانها: «في أحد الأيام، في صميم الشتاء، كان مولانا جالسًا مع حضرة شمس التبريزي في المختلى، كان مولانا متكئًا على ركبة شمس الدين، وكنت أنا قد وضعت أذنًا واعية على شق في المختلى باتجاههما، لكي أسمع: ما الأسرار التي يذيعانها، وما الذي يجري بينهما».

ص ١٧٩: حديث ذهاب سلطان للبحث عن شمس في دمشق وحمله الذهب، أورده عطاء الله تدين، في كتابه «**بحثًا عن الشمس**»، ص ١٤١.

ـ حديث السبعين مضاجعة في ليلة، ووجد واهتياج الرومي بعد عودة شمس.. أورده عطاء الله تدين، في كتابه «**بحثًا عن الشمس**»، ص ٤٧٨.

ص ١٨١: الحوار بين علاء الدين والرومي بتصرف من كتاب **«بحثًا عن الشمس»** لعطاء الله تدين، و«الآفاقي» لقب أطلقه مخالفو شمس عليه بمعنى جوّاب الآفاق.

ص ١٨٥: «أنت لا تعلم أن امتحان العشق هو الفراق، وليس الوصال». من أقوال شمس الدين التبريزي.

ص ٢٠٧: «أنا أبكم.. والخلق كلهم صم. أنا عاجز عن الكلام.. والخلق عاجزون عن الاستماع». من **ديوان شمس تبريز لجلال الدين الرومي**.
ـ«أُفْشِي سرَّك، لأنه لم يبقَ لديَّ صبرٌ أكثر من هذا، ولم تعد السماء والأرض تتحملان ألمي. أنا ثملٌ، وأُفشي سرَّ ألف عام، فإما أن تغمض عينيك وإما أن تفتحهما وترى جيدًا». الغزلية ١٨٣٢، **ديوان شمس تبريز لجلال الدين الرومي**.

ص ٢١٠: وصف الرومي بأنه كان «مبكيًا للشعب، مهيجًا لثورة حمياه، مثيرًا لدهشته، ساحرًا للبّه» ورد عند عبد الباقي جلبنارلي، **المولوية بعد مولانا**، ترجمة عبد الله أحمد إبراهيم، المجلس المصري الأعلى للثقافة، ص ٤٩.

ص ٢١٤ ـ ٢١٥: الحكاية واردة هكذا مع استخدام «وليد» اسمًا آخر لعلاء الدين ابن جلال الدين الرومي، في رسالة «ولايت نامه» لحاجي بكتاش التي تحكي أسرار ومعجزات مؤسس الطريقة البكتاشية، معاصر جلال الدين الرومي ومنافسه الأشد. نقلناها نصًا عن كتاب عبد الباقي جلبنارلي، **المولوية بعد مولانا**، ترجمة عبد الله أحمد إبراهيم، المجلس المصري الأعلى للثقافة، ص ٤٦٩.

ص ٢١٥: حديث (فتنة تدع الحليم منهم حيرانَ...) ص ٢٣٤، أخرجه الترمذى (٢٤٠٤)، وابن المبارك (٥٠)، وهناد بن السرى (٨٦٠) كلاهما في «الزهد»، وابن عبد البر في «الجامع» (١/ ١٨٩)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٦٢) والبغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٣٩٤) من طريق يحيي بن عبيد الله، عن أبيه، عن أبي هريرة.

أهم المصادر والمراجع التي قام عليها الجانب البحثي في الرواية:

١ ـ المثنوي المعنوي، جلال الدين الرومي، ترجمة د. إبراهيم الدسوقي شتا، المشروع القومي للترجمة، مصر.

٢ ـ رسائل مولانا جلال الدين الرومي، ترجمة عيسى علي العاكوب، دار الفكر، دمشق، ط١.

٣ ـ ديوان شمس تبريز، مختارات من ديوان شمس الدين التبريزي لمولانا جلال الدين الرومي، ترجمة د. إبراهيم الدسوقي شتا، المشروع القومي للترجمة، مصر.

٤ ـ جلال الدين الرومي صائغ النفوس، إحسان الملائكة، المركز الثقافي العربي، المغرب، ٢٠١٥.

٥ ـ المولوية بعد مولانا، عبد الباقي جلبنارلي، ترجمة عبد الله أحمد إبراهيم، المجلس المصري الأعلى للثقافة، مصر.

٦ ـ مولانا جلال الدين الرومي، جيهان أوقويوجو، دار النيل للطباعة والنشر، مصر، ٢٠١٥.

٧ ـ البحر الرائق شرح كنز الدقائق للعلامة ابن نجيم، دار الكتب العلمية.

٨ ـ الفكر الباطني في الأناضول، بديعة محمد عبد العال، الدار الثقافية للنشر.

٩ ـ بحثًا عن الشمس، عطاء الله تدين، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، ٢٠١٥.

١٠ ـ قواعد العشق الأربعون، رواية، إليف شافاق، ترجمة خالد الجبيلي، طوى للنشر والإعلام.

١١ ـ بنت مولانا، مورل مفروي، ترجمة محمد عيد إبراهيم، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا ٢٠٠٧، ٢٠١٤.

١٢ ـ العقود اللؤلؤية في طريق السادة المولوية، الشيخ عبد الغني النابلسي، تحقيق وتقديم د. بكري علاء الدين، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، ٢٠٠٩.

١٣ ـ الرومي: نار العشق، نهال تجدد، ترجمة خالد الجبيلي، منشورات الجمل، بيروت ـ بغداد ٢٠١٥.

١٤ ـ جلال الدين الرومي بين الصوفية وعلماء الكلام، عناية الله إبلاغ الأفغاني، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ٢٠١٦.

شكر

لا أستطيع إهداء رواية. وهذه الرواية تحديدًا لا أعرف لمن أهديها. إذ لا يمكنني إغفال الكثيرين حقوقهم في شكر يليق بأرواحهم، فقد كانوا بالفعل ملهمين ومعينين على العمل.

ممتن لرشا؛ راعية المحبة التي تثبت جدارتها بهذا اللقب يومًا بعد يوم؛ لتحملها أحوالي المتقلبة، ورعايتها لروحي التي لا تهدأ إلا بعد اكتمال المشروع.

والشكر الجزيل للأصدقاء الذين سأورد أسماءهم هنا ـ بلا أي معنى للترتيب ـ مجردة من كل لقب سوى المحبة: أحمد حيدري عيني الفارسية على عوالم كيميا وشمس. هشام عطية الذي رأى في كيميا رواية منذ أول مقالة كتبتُها عن الفتاة. صلاح صبري الذي لا أعرف كيف أقدّر جهده في الضبط والتوجيه والتدقيق والدعم المعنوي. ولعامر عبد الله لصبره وإنصاته وأنا أقرأ عليه النص مرة تلو مرة. ولمحمد عيد إبراهيم، ونوري الجرّاح، وعلاء الجابري، وزبير مهداد، وبوزيد لغلي، وباسم سليمان، ووليد مكي، وهويدا صالح، ومحمد سعد شحاتة، ومختار سعد شحاتة، وعهدي محمود، وإيهاب الملّاح، ومحمود عبد الشكور، ومحمود الحلواني، وسالم الشبانة، ومصطفى رزق، وميسرة صلاح الدين، وعمر جالودي، وأيمن بكر... للكثير الذي أهدوه لي

عبر المناقشات التي كانت دعمًا نفسيًّا احتجته في لحظات حاسمة توترت فيها علاقتي بالنص.

ولمحمود السعيد الذي لم يمهلنا الموت لكي أحقق له وعدًا قطعته بأن يقرأ مسودتها النهائية قبل النشر، ولكلماته الأخيرة التي انحفرت في روحي:

«لم أكن أتخيل أن رواية عربية ستنجز في هذه المساحة وبهذا الخيال وبهذه الجرأة.. خيالك معقد جدًّا وجميل، وكتابتك تشبه أفلام ميلييه الصامتة الجميلة، الصورة أهم من الكلمة... سأنتظرها.. عدني بأن أقرأها فور الانتهاء».

فلتتنزل على روحه الرحمات.

ولم يكن لهذه الرواية أن تظهر إلى الوجود بهذا الشكل، لولا الدعم الكبير الذي قدّمه الصديق محمد أحمد السويدي؛ ليس فقط لأنه راعي الرحلة إلى قونية سنة ٢٠٠٧ ضمن مشروعه البحثي الأدبي الرائد «ارتياد الآفاق». ولكن لأنه بروحه الشاعرة حفظ ناري مشتعلةً حول كيميا والرومي والتبريزي لأكثر من عشرة أعوام بقصة سردها بمحبة وذكاء حين دار نقاشٌ حول تأخري في تقديم نص الرحلة حسب الاتفاق. كان ردي وقتها أنني لن أكتب شيئًا عن الرومي قبل أن يطمئن قلبي بشأن فتاة اسمها كيميا شوشت حالة التقدير التي أكنها له شاعرًا وإنسانًا، وأن الأمر يحتاج إلى وقت ـ قد يطول ـ للقراءة والبحث والتفكير.

يومها حكى لحضور مجلسه حكاية لوحة «العشاء الأخير» التي رسمها ليوناردو دافنشي بتكليف من لودوفيكو إيل مورو، دوق ميلانو، في حجرة طعام دير القديسة ماريا ديليه غراتسيه. لقد

استغرق دافنشي ثلاث سنوات في إنجاز هذا العمل، إلى حد دفع بعض الرهبان للشكوى من تأخره وتعطيل المطبخ وحجرة الطعام. وكان مبرر دافنشي أن الفكرة ما زالت تعمل في عقله.

يقال إن دافنشي كان يغيب طويلًا ثم يأتي إلى الدير فجأة على حصانه ليضرب عدة ضربات بفرشاته ثم يعود فيختفي. كانت قصة العشاء الأخير قد استُهلكت قبل ذلك في عشرات اللوحات. ودافنشي يبحث عن فكرته، إلى أن قرر تصوير ملامح تلاميذ المسيح في اللحظة التي أعلن أن أحدهم على وشك خيانته فوقع الاضطراب في نفوسهم. وهو أمر استغرق من دافنشي وقتًا للبحث والتأمل، عندما تمَّ، اكتمل العمل.

تلك الحكاية التي اختارها السويدي بمهارة في السرد والتوقيت، كانت الشرارة التي حولت موقفي من كتابة رحلتي إلى الرومي.. من الزهد، إلى نارٍ هادئة طبختُ عليها بإصرارٍ هذا الكتاب الذي يدين له بأكثر من قدرتي على التعبير.

الأعمال الكامله
t.me/kotbhm

كيميا

«أعرف كيميا منذ أن جاءتنا طفلةً تركت للتوّ رعي غنمات أبيها، روحًا منكشفة على ما لا نراه. وصفها البعض بالجنون، واتهمها آخرون بالمسّ. أعرف وحدي أنها ليست هكذا، هي كائن تخلّص من عتمته فشفّ. طفلة تهيأت لدخول عالم النساء، بحاجة إلى حبيب، يكتشفان معًا أسرار الحب والجسد. وكنا تهيأنا، حين اختطفوها منّي وألقوها في تنّوره ليستخلص روحَها».

تتتبع هذه الرواية مصير«كيميا»، تلك الفتاة التي نشأت في بيت الشاعر والعاشق الصوفي «جلال الدين الرومي»، والتي قدمها زوجة لأستاذه «شمس الدين التبريزي» على الرغم من عدم التكافؤ البادي بينهما؛ والذي تجلى في أنها كانت أصغر من زوجها بثمانية وأربعين عاما.

تطرح الرواية عبر سرد متدفق ولغة عذبة، عدة أسئلة صعبة وملغزة.. لماذا وافق «التبريزي» على التزوُّج بكيميا برغم أنه يكاد يكون في عمر أجدادها؟ لماذا مرضت كيميا بعد زواجها به بقليل مرضًا لم يُغادر سوى بروحها؟ كيف اختفت كيميا هكذا وكأنها لم تكنْ؟ لماذا لم يتأسفْ جلال الدين الرومي في أشعاره على موتها ؟ لماذا عاشت نكرة وماتت مجهولة القبر؟ والأهم: لماذا أهداها الرومي لشمس الدين برغم علمه بالحب الذي جمعها بابنه علاء الدين؟

رواية بكل ما فيها من جرأة على اختراق الماضي وإعادة بنائه، تفتح الباب لقارئها أمام عالم آخر وتفسيرات مغايرة.

وليد علاء الدين؛ شاعر وكاتب مصري، مواليد ١٩٧٣. حاصل على ماجستير علوم الإعلام من جامعة القاهرة. له رواية «ابن القبطية»، وفي الشعر «تردني لغتي إليّ»، و«تُفسّر أعضاءَها للوقت». وفي المسرح «العصفور»؛ الحاصلة على جائزة الشارقة للإبداع العربي، و«٧٢ ساعة عفو» الحاصلة على جائزة ساويرس لأفضل نص مسرحي، و«مولانا المقدَّم». وله إصدارات في أدب الرحلة منها «خطوة باتساع الأزرق». وفي الدراسات الثقافية صدرت له ثلاثة أجزاء في سلسلة «واحد مصري». يعمل في الصحافة الثقافية العربية منذ ١٩٩٧ ويدير حاليًا تحرير مجلة «تراث» الإماراتية.

9 789770 935453

دار الشروق
www.shorouk.com